

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جامعة الملك عبد العزيز
الطبية والشرعية والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا
فرع الدراسات الإنسانية

الدولة العثمانية وعرب الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس

(١٢٨٦ - ١٣٢٦ هـ / ١٨٦٩ - ١٩٠٨ م)
رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير
إعداد الطالب

نبيل جبريل رضوي

إشراف

الدكتور / محمد جبريل الطيف الجبروي



١٤٠٠ - ١٤٠١ هـ
١٩٨٠ - ١٩٨١ م

٢٨٢

الرموز المستعملة في الرسالة
=====

الرمز	ما يعبر عنه
ت	توفى
ج	جزء
ق	قسم
ط	طبعة
ص	صفحة
C.R.T.P.	Correspondence Respecting Turkish Proceedings in Neighbourhood of A den. Page.
P	

المقدمة

أهمية الجزيرة العربية
وعلى الأخص الحجاز
للدولة العثمانية

بسم الله الرحمن الرحيم

"مقدمة"

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فإن أهمية الجزيرة العربية ترجع إلى العصور القديمة ، إذ قامت بها حضارات عديدة منذ فجر التاريخ ، وكانت مركز اتصال بين الشرق والغرب حيث تقوم العلاقات الاقتصادية على أساس متين من تبادل حاصلات الاقليم الموسمي في الشرق وحاصلات اقليم البحر المتوسط في الغرب . (١) وموقع الجزيرة العربية عظيم الأهمية بالنسبة للمواصلات العالمية ، فهي تقوم على الطريق إلى الهند والشرق الأقصى وأستراليا . كما تعتبر الجزيرة العربية بموقعها الممتاز والفريد مفتاح الخليج العربي والبحر الأحمر ، فهي تشرف على أهم وأقصر طريق بحري عالمي ، تربط القارة الاسترالية وآسيا بالغرب ، فجميع البواخر التي تغادر أوروبا محطة بمختلف المصنوعات والمنسوجات متجهة لأسواق استراليا والشرق الأقصى والهند والخليج العربي وشرق أفريقيا تمر في البحر الأحمر ، وتعود في نفس الطريق مشحونة بمختلف حاصلات الشرق . لذلك قامت على أطرافها مراكز تجارية ذات استراتيجية عظيمة مثل باب المندب وعدن ومضيق هرمز والكويت وغيرها . (٢)

(١) صلاح الدين المختار ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، ص ١٩ .

(٢) مصطفى مراد الدباغ ، جزيرة العرب ، ص ١١ .

ولدراسة جزيرة العرب أهمية خاصة في تاريخ العرب والاسلام ، ان كانت مهدا للاسلام الحنيف ، ومن أبنائها كان الجند الذين وسعوا حدود دولة الاسلام ، وشبهوا دعائم الأمن والنظام ، ومنهم كان الخلفاء والقواد ، ورجال الادارة الذين سيروا دفة الدولة . لذلك لم تكن الجزيرة في تاريخها منعزلة عن أحداث الأقاليم المجاورة سواء في الحياة السياسية أو الحضارية . واذا تركنا الحديث عن صلاتها بالعالم قبل الاسلام ، فانها احتفظت منذ ظهور الاسلام بصلات وثيقة بأقاليم العالم الاسلامي ، بفضل الأعداد الكبيرة التي كانت تسلك طرقها لأداء فريضة الحج في كل سنة ، ومنهم من كان يستقر مقيما في مدنها المقدسة ، أو في المراكز التجارية . وأخيرا فان صلة جزيرة العرب بما جاورها ظلت وثيقة بفضل القوافل التجارية التي كانت تمر بها ، ونتيجة لذلك فقد تعرضت الجزيرة العربية لتطورات كبيرة أوجدت فيها أحوالا متبدلة . (١)

وقد درج الكتاب على تقسيم الجزيرة العربية الى خمسة أقسام جغرافية : تهامة ونجد والحجاز والمروء واليمن ، (٢) على أن منطقة الحجاز لها أهمية خاصة بين تلك الأقسام ، وهو موضوع دراستنا ، وسمى الحجاز بهذا الاسم لأن جبال السراة حجزت بين نجد وتهامة ولا متداه بينهما ، (٣) ومنطقة

(١) د . صالح العلوي ، جزيرة العرب للأصمعي : بحث ألقى في مجمع اللغة العربية في القاهرة في دورة ٣٣ ، في ٢٤ شوال ١٣٨٦ الموافق ١٩٦٧/٢/٤ م ونشور في كتاب بلاد العرب تأليف الحسن بن عبد الله الاصفهاني تحقيق حمد الجاسر وصالح العلوي ص ١٥٠ (٢) الطقشندي ، صبح الاغشى ، ج ٤ ، ص ٢٤٦ . (٣) الهبداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٤٨ .

الحجاز عبارة عن مكة والمدينة المنورة واليمامة ومخاليفها ، وتلك المناطق جميعها قطعة من جزيرة العرب . (١)

وقد كان لهذه المنطقة أهمية بالغة ان كان يوجد فيها شريان رئيسى من شرايين التجارة العالمية التى أشرنا اليها ، وهو الطريق البرى الذى يصل ما بين جنوب الجزيرة وشمالها ، ومنه تتفرع الطرق التى تتجه صوب الشرق والشمال الشرقى كما يوجد فى موازاته البحر الاحمر كشریان رئيسى له مكانته العالمية فى ميدان التجارة الدولية ، وانما كان الشريان الاول وأقصد به الطريق البرى قد تقلص ، فان الثانى لا زال يمثل فرعاً حساساً من فروع السياسة العالمية ، ذلك هو البحر الاحمر ، فالمنطقة ذات أهمية كبيرة من الناحية العسكرية والاقتصادية وذلك على اعتبارها جسراً يصل بين بلاد الشام ومناطق حوض البحر المتوسط من جهة اليمن والمحيط الهندى من جهة أخرى . لذلك صارت أرضها منذ القدم طريقاً للتجار ، وأصبحت مرافئها منازل للبحارة وملاجئ للسفنهم . (٢)

ولأهمية هذه المنطقة فقد حاول اليونان بعد استيلائهم على الشام ومصر ، فتح الحجاز ، ليتحكموا من الوصول الى اليمن ، وذلك مثل ما حدث فى عهد الاسكندر الأكبر ، كما حاول الرومان فى عهد أوغسطس تكرار ما حاوله اليونانيون

(١) الطقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٤٤ .

(٢) احمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة ، ص ٣ .

الا أنهم فشلوا جميعا فى محاولاتهم (١) ، وعند ما يئسوا وضموا مشروعا آخر
الفرض منه احتلال الحجاز وذلك عن طريق الحبشة حليفة البيزنطيين ، ان بنى
أبرهة الحبشى كنيسة فى صنعاء وأراد بعد ذلك أن يصرف اليها حجاج العرب
فسار شحلا بجيش كبير لا احتلال مكة ، أن الحطة أخفقت . (٢)
x

وقلت أهمية البحر الأحمر قبيل ظهور الاسلام وذلك لانشغال الروم
بالصراع مع الفرس ، وتبعاً لذلك برزت فى نهاية القرن السادس أهمية الطريق
البرى الذى يسيطر عليه العرب . وقام القرشيون بدور بارز فى نقل التجارة مما
أبرز أهمية الحجاز ، وعلى الأخص مكة المكرمة ، وبعد ظهور الاسلام ارتفع شأن
الحجاز ، ان قامت فيه الدولة الاسلامية الأولى فى المدينة المنورة فى عهد النبى
عليه الصلاة والسلام ، فتوحدت الجزيرة العربية ثم اندفع العرب منها الى
الأقاليم الأخرى خارج الجزيرة ، وتكونت دولة عظيمة (٣) استطاعت أن تضع
حدا للصراع القديم الذى كان قائما فى المنطقة ، وانتشر الاسلام بعد ذلك فى
أنحاء المعمورة ، وأصبحت بعد ذلك لشبه الجزيرة العربية أهمية خاصة فى نظر
العالم الاسلامى لأنها مهد الدعوة الاسلامية وموطن مقدساته ، وحرصت كل
الدول الاسلامية على بسط نفوذها على الحجاز ، واعتزوا بحمل لقب خاد الحرمين

(١) جرجى زيدان ، العرب قبل الاسلام ، ص ١١٥ .

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الرسول واللوك ، ج ٢ ، ص ١٣١ .

(٣) أحمد ابراهيم شريف ، دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة ، ص ١٥ .

الشريفين ، ونظرا لقلة الموارد في الحجاز فقد ارتبط أمراؤه بالحكام في مصر الذين يقومون بإرسال المصروفات والمؤن اليهم ، ونتيجة للارتباط الوطيد فقد تأثر الحجاز في بعض الاحايين بالحالات السياسية القائمة في مصر ، وتلك الدولة هي الدولة الفاطمية والدولة الأيوبية والدولة المملوكية .

وكانت دولة المماليك قد وقعت في أواخر أيامها في صراع عنيف مع البرتغاليين الذين وقفوا يحاولون الدخول الى البحر الاحمر تمهيدا للنزول في الحجاز لتخديم المآكن المقدسة الاسلامية . وأرسلت دولة المماليك الأساطيل الحربية الى البحر الاحمر والمحيط الهندي فبدأت بسيطرتها على اليمن الذي يتحكم في مدخل البحر الاحمر الجنوبي عن طريق باب المندب لتكون قاعدة لهم في جنوب شبه الجزيرة العربية ، وأخذ البرتغاليون في المقابل توطيد قواعدهم الحصينة في الهند ، واشتد ضغطهم على المسلمين هناك ، ولم تكن نتيجة الصراع لصالح المماليك . (١)

ولما كانت الدولة العثمانية هي الدولة الاسلامية الكبرى القائمة بالفتح في أوربا باسم الاسلام ، فقد رأى سلاطينها الالتفات الى الشرق والجنوب والاسواق بحماية البحر الاحمر من الاستعمار البرتغالي ، ولتتوفر لهم الزعامة الوحدوية والسياسية اللازمين لمواجهة الغرب المسيحي خصوصا بعد فشل الدولة المملوكية في أول

(١) محمد عبد المنعم السيد الراقدة ، الفزوة العثمانية لمصر ، ص ٢٢٩ .

محاولة ايجابية في المحيط الهندي في موقعة ديو البحرية سنة ١٥٠٩ م ، ومن ثم رأى العثمانيون وجوب فتح مصر ، الذي كان في اعتبارهم الخطوة الأساسية لتكوين الجبهة الاسلامية (١) .

وبعد انتهاء حكم الدولة المملوكية سنة ١٥١٧ م انتقلت مسؤولية الدفاع عن الأراضي المقدسة الاسلامية الى سلاطين الدولة العثمانية ، ولحماية الأماكن المقدسة في الحجاز . واستعادة طرق التجارة يتحتم على الدولة العثمانية أن تقضى على الخطر البرتغالي ، وعلى هذا الأساس شرع العثمانيون في بسط سلطانهم على البحر الاحمر وذلك بضم الحجاز واليمن ، وجانبه الافريقي بضم سواكن ومصوع وهرر . ومن البحر الاحمر بدأت الأساطيل العثمانية بالخروج لمقاطعة البرتغاليين في المحيط الهندي والخليج العربي وذلك لفك الحصار البرتغالي الذي فرض حول الشواطئ العربية (٢) .

وبعد انتهاء الدولة العثمانية من تلك المهمة كان عليها أن تستحوذ على الزعامة في العالم الاسلامي ، وقد آلت اليهم تلك الزعامة في مصر والحجاز ولكنهم فشلوا في تحقيقها في فارس . وكان فتح اليمن شئنا ضروريا لتحقيق الزعامة الاسلامية وخاصة لقيام علاقات قوية بين الأشراف في الحجاز ، وبين أئمة اليمن وسلاطينها (٣) ، بالإضافة الى تأمين الحدود الجنوبية للحجاز . وكان

(١) د . محمد عبد اللطيف البحراوى ، فتح العثمانيين عدن ، ص ٨٧ .

(٢) محمد عبد المنعم السيد الراقدة ، الغزو العثماني لمصر ، ص ٢٣٠ .

(٣) محمد عبد اللطيف البحراوى ، فتح العثمانيين عدن ، ص ١٣٨ .

سلاطين الدولة العثمانية على العموم يبدلون ما في وسعهم لتحقيق سلطانهم على الحجاز، ومن ذلك أن جعلوا البحر الأحمر بحيرة إسلامية لا تستطيع السفن المسيحية المرور فيه، كما سائر العثمانيون الظروف في الحجاز، وأقروا الأنظمة السائدة فيها، وكانت علاقاتهم بأشراف الحجاز علاقة حسنة ذات نتائج ايجابية بناءة، كما فخر السلاطين العثمانيون الحجاز عمومًا ومكة المكرمة خصوصًا بكثير من عطفهم وحسن سياستهم، وكان كل سلطان لا يتردد في اقرار الشريف على امارته وارسال الخلع والهدايا اليه وتخصيص رواتب كثيرة لكثير منهم اضافة لارسال آلاف الأرباب من الحب، وذلك عن طريق تخصيص أرضى موقوفة على أهل الحرمين الشريفين، ونتيجة لتلك الامتيازات نعم الحجاز بسلام وطمأنينة لم يعهده من قبل، ولم تكن سلطة العثمانيين قائمة على الجاه وقوة النفوذ، وإنما لاتباع المسؤولين في الدولة العثمانية وسائل ادارية حسنة جعلت الحجازيين يألفون هذه السلطة (١) .

وظلت هذه السياسة قائمة حتى خروج الدولة العثمانية من اقليم الحجاز وبداية عهد جديد والمتصل في دخول الحكم السعودي الاول للحجاز والذي كان سنة ١٢١٨ هـ الموافق ١٨١٣ م، وذلك بعد انسحاب الشريف غالب وجنوده من الطائف، وفراره الى مكة المكرمة بعد ذلك تعقبه سعود وانهزم الشريف غالب الى جدة (٢) . وبعد أن استولى سعود على مكة أرسل بخطاب الى السلطان

(١) محمد عبد اللطيف البعراوى، فتح العثمانيين عدن، ص ٢٠٥ .

(٢) ابن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، ج ١، ص ١٤٩ .

سليم الثالث هذا معناه " من سعود الى سليم : أما بعد فقد دخلت مكة ففى الرابع من محرم سنة ١٢١٨ هـ وأمنت أهلها على أرواحهم وأموالهم بعد أن هدمت ما هناك من أشباه الوثنية ، وألغيت الضرائب الا ما كان منها حقاً ، وثبت القاضى الذى وليته أنت طبقاً للشرع ، وطليك أن تمنع والى دمشق ووالى القاهرة من المجىء بالمحمل والطبول والزمو الى هذا البلد المقدس فان ذلك ليس من الدين فى شىء ، وطليك رحمة الله وبركاته .

وبعد فتح مكة بسنتين استولى السعوديون على المدينة المنورة ، ثم اتجهوا نحو الشمال حيث دانت لهم الجوف والبتراء ، واجتازوها الى حوران والكرك فوقفوا منتصرين عند أبواب الشام وقلسطين . (١) وكانت الدولة العثمانية فى هذه الفترة تمر فى حالة ضعف وانحيار ، وفى نهاية القرن السابع عشر تقهقرت الجيوش العثمانية فى الارض المجرية وكانت الحدود الروسية العثمانية مع أواخر القرن الثامن عشر فى حالة غير مستقرة ، كما سيطرت روسيا على أزوف والقرم وأخذتها بموجب معاهدة (Jassy) سنة ١٧٩٢ م وهذا يعنى سيطرة روسيا على البحر الأسود ، كما أخذت فرنسا الجزر الايونية وممتلكات البندقية بألبانيا جنوبي خليج درين (Drin) (٢) . هذا الى جانب ضعف النظام الحربى بعد القضاء على نظام الانكشارية . وصار الواجب على كل جيش نظامى جديد أن يتوجه

(١) أمين الريحانى ، تاريخ نجد وطلحاته ، ص ٧٠ .

(٢) محمد عبد اللطيف البجراوى ، حركة الاصلاح العثمانى ، ص ١٨ - ١٩ .

الى أوروبا ، حيث كانت الدولة تواجه أخطار الغرب المسيحي ، وعلى الرغم من هذا الضعف والتفكك الذى ساد الدولة فى هذه الفترة من الزمن ، اتجهت الدولة العثمانية الى واليها فى مصر محمد على باشا ليتولى بنفسه انقاذ الحرمين الشريفين واخراج أهل نجد (١) ، فقد عزّ على الدولة أن تفقد تلك الأماكن المقدسة ، والتي بموجبها حصل السلطان العثماني على المكانة الروحية بين الشعوب الاسلامية ، وبعد أن وافق محمد على باشا على انقاذ تلك الحملة أرسلت الدولة العثمانية اليه الذخائر والمئات الحرس ، كما بحثت بالأموال التي يحتاجها والى المصرى ويعد من الجنود (٢) ،

وفى خريف سنة ١٢٢٦ هـ (١٨١١ م) أرسل محمد على أول حملة بحرية بقيادة ابنه أحمد طوسون الذى يبلغ السابعة عشر من عمره ، ووصل الى ميناء ينبع ومنها اتجه نحو المدينة ، بعد أن استعد له السعوديون ، ولاقى الجيش العثماني هناك هزيمة ، ارتد بعدها طوسون الى ينبع ، وطلب النجيدات من والده فى مصر وفى السنة التالية ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م) وصلت تلك النجيدات . واستطاعت أن تقضى على سيطرة السعوديين وتستعيد الأماكن المقدسة (٣) ، لتعود الى حظيرة الدولة العثمانية ، والجدير بالملاحظة أن عطية ارسال جنود من

-
- (١) أمين الريحاني ، تاريخ نجد وطبقاته ، ص ٧١ .
 - (٢) ابن بشر ، عنوان المسجد فى تاريخ نجد ، ج ١ ، ص ١٩١ .
 - (٣) أمين الريحاني ، تاريخ نجد وطبقاته ، ص ٧٢ - ٧٣ .

عاصمة الدولة العثمانية الآستانة ، وشاركهم في حطة محمد علي لانقاذ الحرمين
كان مفزاه أن الجيش المحارب ما هو الا جيش عثماني ، وما محمد علي الا وال
عثماني ، وذلك حتى لا تجتمع عواطف المسلمين في العالم على حبيب محمد علي
وولائه بصفته منقذ الحرمين ومعيد مناسك الحج ، وبذلك تحتفظ الدولة العثمانية
بمركزها الممتاز في العالم الاسلامي .

من خلال ذلك يتبين أن العثمانيين كانوا يقدرون أهمية المحافظة على
نفوذهم في الجزيرة العربية التي تحتضن بين جنباتها مقدسات المسلمين ،
فكانت حماية العثمانيين لتلك المقدسات ضمانا لزعامتهم للدول الاسلامية
 واحتفاظا بلقب السلطان العثماني خليفة للمسلمين وحاميا للحرمين الشريفين
وانبثاقا من ذلك الهدف كان عنوان رسالتي للماجستير " الدولة العثمانية وغربي
الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس " .

وقد قسمت الرسالة خمسة فصول ، تناولت في الفصل الاول : الوضع في
غربي الجزيرة العربية قبيل افتتاح قناة السويس ، وكيف كان للأشراف في الحجاز
نفوذ قوى في حين كانت الدولة لا تستطيع أن تقضى على ذلك النفوذ ، على
الرغم من وجود وال عثماني بجانب الشريف ، بالإضافة الى قوة عثمانية ، فوجود
الدولة في اقليم الحجاز أشبه بوجود اسمي ، ثم انتقلت بالحديث عن عسير
والمخلاف السليمانى هناك ، أما المخلاف فكانت الثورات التي قامت بها القبائل
ضد الشريف حسين حاكم المخلاف ، بالإضافة الى ضياع الأمن في تلك النواحي ،

ثم تعرضت لمنطقة اليمن لأصوار الاضطراب السياسى الذى أوجد حالة من
الفوضى بلغ أقصاه فى صنعاء ، وأشارت الى تنافس الأئمة فيما بينهم حول الاستئثار
بالإمامة ، وتحريض القبائل اليمنية على بعضها البعض لنصرة إمام على آخر ، مما
نتج عنه غرق البلاد فى حروب أهلية ، بعد ذلك تعرضت الى عدن لأصوار الحالة
التي كانت عليها ، والذى يتمثل فى الوجود البريطانى ، وكيفية احتلال المنطقة ،
دون عمل حاسم مقابل من جانب الدولة العثمانية ، كل ذلك لأصل للنتيجة أن
الدولة العثمانية كان وجودها فى غرب الجزيرة الحربية وجود لينا هشا بسبب
صعوبة ارسال الحملات و المواصلات من العاصمة الى غربى الجزيرة العربية
قبيل افتتاح قناة السويس .

وخصصت الفصل الثانى : لقناة السويس ، وفى البداية تحدثت عن عودة
طريق التجارة العالمية الى البحر الأحمر ، نتيجة لافتتاح قناة السويس ، فأشرت
باهتمام الى التنافس الذى قام بين إنجلترا وفرنسا للاستحواذ على مركز ممتاز
فى المنطقة ، فبريطانيا أدركت أهمية قناة السويس ، لذلك فهم تسعى دائما
للتأمين الطريق الى الهند ، وتخشى من نفوذ أية دولة أخرى تنافسها فى هذا
الميدان ، ثم يأتى دور فرنسا التى سعت بأن يكون لها مركز ممتاز فى القناة
ورأت أن تحافظ على ذلك المركز باعتبارها صاحبة الامتياز ، أما الدولة العثمانية
فكانت ترى فى نفسها صاحبة الحق على القناة باعتبارها جزءا من أراضيها
الشاسعة ، كما تعرضت أيضا لأثر عودة التجارة العالمية على سواحل البحر الأحمر

وازدهار موانئها نتيجة لمرور السفن في ذلك الطريق ، بعد ذلك انتقلت لنقطة أخرى وهي أهمية القناة للدولة العثمانية من حيث سياستها العربية ، وأبرزت فيها أثر القناة على الدولة وأنها كانت عاملاً يسرع عبور السفن العثمانية ، ووصل ميناء العاصمة الآستانة بحوانى غرب الجزيرة العربية ، مما سهل عملية توصيل الامدادات العسكرية في وقت قصير ، وشجع الدولة أن تقف عن كذب على أمور هذا الجزء وأقصد به غرب الجزيرة ، وأن تقيم حكماً فعالاً فيه .

أما الفصل الثالث فقد تضمن : جهود الدولة العثمانية لتأمين الحجاز بعد افتتاح قناة السويس ، وأوضحت بأن افتتاح قناة السويس ساعد الدولة ففى ارسال حملة لاجتياح القلاقل فى عسير بعد أن عظم شأن محمد بن عائض حاكم عسير وذلك فى سنة ١٨٧٢ م ، وأقامت بعد ذلك حكمها الفعلى فى منطقة عسير والمخلاف السليمانى مما أدى الى القضاء على الحركات الاستقلالية ، وتمكن الدولة من اقامة حاميات عسكرية فيها بالاضافة الى بناء المنشآت العسكرية ، بعد ذلك تطرقت الى اليمن التى نهشتها الفتن والصراع والتنافس بين الائمة الزيدية ، فوجهت اليها الدولة حملة عثمانية قضت على تلك الفتن وحققت نوعاً من الاستقرار ، بعد أن قامت الدولة بتطبيق نوع من نظام الولايات ، وعينت جيشاً خاصاً لليمن وهو الجيش السابع الذى ثبت سلطة الدولة على مناطق عسير والمخلاف السليمانى واليمن . وشعرت الدولة بضرورة من سيطرتها على عدن ليكون لها مركز ممتاز فيها وسعت لذلك بالطرق السلمية مبتعدة عن مواجهة بريطانيا ففى

تحقيق ذلك المركز والفرض من ذلك الشرح هو أن أصل بأن قناة السويس ساعدت على القيام بترك المحاولة وفتحت آفاقا جديدة أمام الدولة العثمانية جعلتها تعيد النظر في سياستها تجاه تلك المناطق وذلك بإعادة السيطرة عليها .

أما الفصل الرابع فقد تضمن عوائق استكمال نفوذ الدولة العثمانية على غربي الجزيرة العربية . وتناولت في هذا الفصل الاستراتيجية الانجليزية في احتلال قناة السويس ، ومدى عجز الدولة عن فرض سيطرتها على القناة مع التعرض للجانب السياسي بين طرفي النزاع - إنجلترا والدولة العثمانية دون التعرض كثيرا الى الجانب الحربي ، وكيف استطاعت إنجلترا أن تستغل كل الظروف لخدمة نواياها ، وانتقلت بعد ذلك للنفوذ الانجليزي في عدن الذي ازداد كثافة بعد أن أحست إنجلترا برغبة الدولة العثمانية في إعادة سيطرتها عليها ، وكان ذلك معناه تهديد لمركز بريطانيا فيه ، فطورت بريطانيا بعد ذلك معاهدات الصداقة واستبدلتها بمعاهدات حماية مع رؤساء المناطق المجاورة لعدن ، وذلك حتى لا تحاول الدولة العثمانية أن تفكر في مد سيطرتها على تلك المناطق ، ولتفرد بريطانيا بالنفوذ المطلق في عدن ، واستطاعت بريطانيا أن تنجح في ذلك فمقدت سبع عشرة معاهدة مع رؤساء المناطق المجاورة لعدن ، بعد ذلك تعرضت لثورة اليمن ضد الدولة العثمانية والتي استمرت سنين طويلة ، وتعرضت بالحدوث عن سيرة بعض الولاة الذين كان لهم أهمية خاصة في هذه الفترة ، ثم تعرضت لموقف الدولة تجاه الثورات القائمة ، وارسال بعض الولاة الذين نجحوا في التقليل

من حدة تلك الثورات والفرض من ذلك هو ايضاح أن هذه المشكلات والتي قامت في وجه الدولة كانت عائقا لاستكمال نفوذ الدولة العثمانية على غربي الجزيرة العربية ، وعلى الأخص المناطق الجنوبية . ونتيجة لذلك اتجهت الدولة الى انشاء سكة حديد الحجاز ، وهذا هو موضوع الفصل الخامس .

وفي بداية هذا الفصل تحدثت عن اهتمام الدولة العثمانية بانشاء شبكة سكة حديدية في معظم أقاليم الدولة ، وذلك بفرض ربط أجزاء الدولة المترامية الأطراف ، وكيف كان رأس المال الألماني عاملا مساعدا لقيام تلك الشبكة ، ثم انتقلت لسكة حديد الحجاز ، وعوامل انشائه لنرى اهتمام الدولة بذلك المشروع للوصول الى هدفها وهوتايم الحجاز تأمينا مباشرا حتى افتتاح الخط في سنة ١٩٠٨ م .

وانتقلت بعد ذلك الى الفوائد التي عادت للدولة من انشاء الخط سواء بالنسبة لنقل الحجاج الى الأماكن المقدسة ، أو أنه كان عاملا مساعدا لحركة الجامعة الاسلامية والتي كان يرعاها السلطان عبد الحميد ، والأهم من ذلك هو ايضاح أن الخط كان خير بديل لقناة السويس ، ثم تحدثت بعد ذلك عن أثر الخط على غربي الجزيرة العربية من حيث ازدهار الحركة التجارية ، وانشاء القرى والمزارع حول الخط ، بالإضافة الى ذلك تعرضت للمشاكل التي واجهت الدولة في سبيل استكمال بناء الخط .

وانتقلت بعد ذلك للحديث عن الخاتمة أو النتائج ، وقد شرحت فسى البداية كيف ان القناة كانت أداة لتدعيم سياسة الدولة فى الجزيرة العربية وعلى الأخص الجزء الغربى منها ، بل ان الدولة حاولت الاستفادة من هذا الوضع فى غرب الجزيرة بتميز وجودها فى الخليج العربى ، وفى شرق الجزيرة كذلك ، ومن ذلك تعيين مدحت باشا على ولاية بغداد فى نفس السنة التى افتتحت فيها قناة السويس ، ثم محاولة مدحت باشا اعادة سيطرة الدولة على الخليج العربى ، وفى الاحساء والكويت ، وفى مقابل ذلك كانت هناك عوائق واجهت الدولة فى اكمال سيطرتها على الجزيرة ، ومن ذلك النمو المستمر فى النفوذ البريطانى على جنوب غربى الجزيرة ، وعلى الساحل الشرقى للقارة الأفريقية ، وفى البحر الاحمر بوجه عام ، والأهم من ذلك احتلال انجلترا مصر والتالى على القناة ، ونهبت بريطانيا ، كما نهبت الدولة العثمانية الى بسط سيطرتها على البحر الاحمر بتدعيم سيطرتها فى الخليج العربى عن طريق فرض حمايتها عليه ،

وأشرت بعد ذلك الى الظروف التاريخية التى اضطرت الدولة العثمانية الى ارخاء قبضتها على مصر بعد افتتاح القناة ، وذلك بمنح نظام الخديوية امتيازات عديدة بموجب فرمانات بالاضافة الى تعقد الصراع الدولى الاستعمارى فى هذه الفترة ، كل ذلك ترتب عليه الاحتلال البريطانى لمصر ، ثم القناة ،

وانتقلت بعد ذلك للتحدث عن الوضع فى قلب الجزيرة " نجد " وشرقى

الجزيرة ، فتحدثت عن حائل وآل الرشيد ، وصلاتهم الودية بالعثمانيين —
وولائهم للدولة . بيد أن القوة النامية في الرياض على يد المغفور له الامام
عبدالمعز هي التي حسمت الموقف في قلب الجزيرة وفي شرقها ، وهذا هو
ما اختتمت به حديثي في هذا الجزء منها ، وانتهى بنا تحليل الموقف في
غرب الجزيرة ووسطها وشرقها ، الى أن مد خط سكة حديد الحجاز ثم افتتحه
كان هو الحل البديل والحقى لنتائج التطورات في هذه الحقبة .
كانت تلك الخاتمة .

أما ملاحق الرسالة ، فهي عبارة عن ثلاث خرائط توضح قناة السويس ،
وأهم المدن القائمة عليها ، وخريطة أخرى لسكة حديد الحجاز ، وأخرى للمناطق
المجاورة لميناء عدن ، كما توجد ثلاث وثائق تعكس العلاقات بين بريطانيا والدولة
العثمانية ، بعد المحاولة الأخيرة لاعادة سيطرتها على المناطق المجاورة
لعدن ، والحاج بريطانيا على انسحاب العثمانيين من تلك المناطق .

وكان هدفى من وراء ذلك ابراز اهتمام الدولة العثمانية بمنطقة
الجزيرة العربية ، وعلى الأخص غرب الجزيرة من أجل تأمين الحجاز ، حتى
تحظى الدولة العثمانية بشرف استمرار حمايتها للأماكن المقدسة ، واستمرار
احتفاظ السلطان العثماني بلقب خادم الحرمين الشريفين .

ولحل أهم المشكلات التي واجهت البحث ، قلة المصادر والمراجع التي
تعالج فكرة الرسالة ، وتغطي كافة خططها ما تطلب من القيام بعدة سفريات

الى الخارج بحثا عن تلك المصادر والمراجع ، فقامت بزيارة مكاتب القاهرة
ثم خصصت لى جامعة الملك عبد العزيز رحلة أخرى لزيارة مكاتب استانبول
ثم قامت بزيارة عدة أماكن فى لندن ، ومن ضمنها دار الوثائق الحكومية .

وانى أنتهز هذه المناسبة لأشكر جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة
والمسؤولين فيها ، وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور عميد كلية الشريعة
والدراسات الإسلامية الذين سهلوا لى تلك الرحلات ،

ولا يسعنى الا أن أتقدم بجزيل الشكر الى استاذى المشرف الدكتور
محمد عبد اللطيف الجراوى ، لما غمرنى به من أفضال كثيرة ، كما أشكر
سيادته على ارشاداته وتوجيهاته العلمية السديدة ، واصراره على أن أصل
فى بحثى وتفكيرى وكتابتى الى الحد الذى ارتضاه .

وأخيرا فان رسالتى المتواضعة ماهى الا جزء من خطة لتغطية بحوث
متعددة فى التاريخ الإسلامى الحديث لشبه الجزيرة العربية ، تلك الخطة التى
يفضطلع بها حاليا قسم التاريخ الإسلامى بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
بمكة المكرمة ، وقد بدا لى من اطلاعى على كثير من المصادر والمراجع العسى
تناولت تاريخ شبه الجزيرة أن الذين كتبوا وأرخوا لشبه الجزيرة العربية فى
عصورها التاريخية المختلفة ، كتبوا عنها كجزء من دولة إسلامية كبرى ، سواء فى
العصور الوسطى الإسلامية ، أو فى العصر العثمانى ، ولذلك جاء تنظيم

هذه الكتابات بشكل سطحي بعيدة عن المحق وقد آن الاوان أن ياخذ
أبناء شبه الجزيرة العربية المتخرجين من أقسام التاريخ بجامعات المملكة
العربية السعودية على عاتقهم دراسة تاريخ شبه الجزيرة العربية بتمعن
وعلى الاخص في عصورها الحديثة الاسلامية .
والله ولي التوفيق .

نبيل عبدالحى رضوان

الفصل الأول

الوضع في غربي الجزيرة العربية قبل اقتراح قناة السويس

أ - الأشراف في الجحانه

ب - الحالة في عسير واليمن

ج - البريطانيون في عدن

أقر العثمانيون في ولاية الحجاز النظام المعروف باسم نظام الشرافسة ،
ومقتضى هذا النظام يتولى الحكم أحد الأشراف الى جانب وجود وال عثماني .
وكان من عادة العثمانيين تجنب ادخال تغييرات جذرية في البلاد التي يتم
فتحها ، واستبقاء الأنظمة السائدة طالما لا تتعارض مع نظم الدولة وأهدافها ،
واستحدث العثمانيون بجانب نظام الشرافة نظاما مدنيا آخر ، انشاؤا في
شفر جدة صنجقية يقيم فيها وال كانت رتبته في أغلب الأحيان صنجق ، وفى
أحيان أخرى باشا . (١)

وبفضل نظام الشرافة تمتع الحجاز خلال العصر العثماني الاول بقدر
كبير من الاستقلال الذاتى ، وأصبح الاشراف يعتمدون في مصروفاتهم على
القاهرة أكثر من العاصمة القسطنطينية ، على الرغم مما ترسله الدولة كل سنة
من مال كانت الدولة قد قررت على مصر واعتبرته من ملزمات مصر السنوية (٢) ،
وهو خلال الجراية والصدقة الى مكة المكرمة والمدينة المنورة . (٣)

كان نفوذ العثمانيين قد ضعف منذ بداية القرن الثانى عشر فى جميع
أنحاء شبه الجزيرة العربية تقريبا بسبب اختلال نظام الانكشارية ، الذى فقد
تدريجيا كل مزاياه ، وتحول فى النهاية الى معول هدام لشؤون الحرب والادارة ،

(١) د . فائق الصواف ، العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، ص ٤٨ .

(٢) سيد رجب عراز ، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، ص ١٠١ .

(٣) سجل ٢٤ عابدين ترجمة " الوثيقة " رقم ٧٢ . شوقى عطا اللماجل - الوثائق
التاريخية لسياسة مصر فى الحجاز - ص ٤٢٣ .

وقد أدى ذلك الى اختلال نظام الحكم من جميع الوجوه ، وبخاصة فـسـى
الولايات العثمانية البعيدة عن العاصمة (١) ، الا أن الأشراف ظلوا محتفظين
بولايتهم للباب العالي ان كان يتسلم براءة منصبه ويعترف من جانبه ، أى
الشريف ، بالقاضى الذى يعينه السلطان ، ويفخر بأنه خادم الدولة
والسلطان العثمانى . (٢) ومع ذلك لم تكن الصلات بين الأشراف والدولة
العثمانية ودية تطام ، فعندما كان يهدو على أحد هم بأنه غير صالح يطلب منه
لزوم داره ويستبدل به آخر ، لذلك كانت المكائد منتشرة بينهم ، وأصبحت
رغبة الصلاطين هى أن يجعلوا الحجاز ولاية عثمانية تدار ادارة مباشرة
أوشبه مباشرة . (٣)

وكان الشريف يحتر صااحب الكلمة العليا فى تصرف شئون البادية ،
وهو المرجع الأكبر فى الحجاز ، وكان يتصل مباشرة بالصدر الأعظم ، ويأتى
بعده فى لائحة التشريفات العثمانية .

ومن أهم اختصاصات الشريف تأمين قوافل الحج الذاهبة الى الحجاز
وخصوصا قافلة الحج الشامى التى تضم حجاج الشام وتركيا ، وقافلة الحج
المصرى وتضم حجاج مصر وشمال افريقيا ، بالإضافة الى قافلة الحج العراقى

-
- (١) فاروق أباطه ، الحكم العثمانى فى اليمن ، ص ٣٠ .
 - (٢) سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية ، ص ١٠٢ .
 - (٣) هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن فى طوك العرب ، ص ١٥١ .

وتتضمن حجاج العراق وفارس ، وقافلة الحج اليمنى وتتضمن بلاد اليمن والهند
واندونيسيا ، وتأمين القوافل عبارة عن تأمينها من أعمال السلب والنهب التي
تتعرض لها من جهة الأعراب وقطاع الطرق ، ويعتمد الشريف في ذلك على
نفوذه لدى القبائل العربية النازلة على طرق القوافل ، ان لم تكن هناك
قوات عسكرية نظامية ، ويوجد هناك أيضا محطات حراسة أنشأتها الدولة
العثمانية بجوار الأبار على طول طريق قافلتى الحج الشامى والحج المصرى .^(١)

وفي العهد العثماني الاول كانت القضايا الادارية للبلاد من اختصاص

الاشراف ، ثم استحدث العثمانيون في كل مدينة مجلسا خاصا للفصل فيها
وكان أعضاؤه من الحجازيين والعثمانيين غير الحجازيين ، وسوف نعرض لهذا
المجلس بالتفصيل فيما بعد ، ان كان هذا المجلس قد تكون بمقتضى قانون
الولايات الذي صدر في سنة ١٨٦٤ بهدف دعم سياسة الدولة المركزية ، حيث
قسمت السلطنة الى ولايات تتألف من متصرفيات ، وهذه تتألف من قائمقاميات
يتبع كلا منهم عدد من النواحي ، وكانت الهيئات المنتخبة التي أوجدتها
قانون الولايات الجديد ، لتعاون الولاة والمتصرفين والقائمقاميين غير خاضعة
للقانون العام ولم يكن جميع أعضائها منتخبين ، بل ان الاعضاء المنتخبين
لم يكونوا يشكلون سوى أربعة من تسعة أعضاء بمفاهيم الوالى ، أما الأربعة
الباقون فيكونون من كبار موظفى الدولة الذين يعطون الى جانب الوالى

(١) د . فائق صواف ، العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، ص ٤٨ .

أو المتصرف أو القائم مقام في كل وحدة من الوحدات الادارية .

وقد قسمت الدولة العثمانية البلاد العربية اثر تنفيذ قانون الولايات الجديد الى الولايات التالية : حلب وسيرت ودمشق وسفداد والموصل والبصرة وطرابلس الغرب ، بالإضافة الى متصرفيات مستقلة تابعة رأساً للباب العالي وهي : جبل لبنان ، والقدس ودير الزور وبنغازي ، وكانت هناك ولايتا الحجاز واليمن اللتان لم يطبق فيهما قانون الولايات تطبيقاً تاماً ، بسبب التعارض مخظام الشرافة والامامة (١) .

وفي سنة ١٢٨٦ هـ الموافق ١٨٦٩ م كان افتتاح قناة السويس دعماً لهذا النظام الجديد ، حيث تقلصت سلطة الأشراف ، بعد أن كانوا يوقعون عقوباتهم بالسجن أو النفي أو القتل دون أن يستأذنوا السلطان ، أما في ظل هذا النظام فقد اقتصر نفوذهم على حكم البلاد باسم العثمانيين إذ أصبحوا يرجعون اليهم في كل شأن من شئون الحكم .

تتبع الأشراف بواردات بلادهم في العهد العثماني الاول بالإضافة الى ما يصلهم من منح السلاطين ، الا أن الدولة حددت بعد ذلك دخل الشريف ، وأضيفت الأموال المتحصلة الى قيود الخزينة العامة ، ومع هذا كان لبعض الأشراف مصادر تدريع عليهم بعض الأموال كخراج الجبال واثاث وأخرى

(١) فاروق اباظه ، الحكم العثماني لليمن ، ص ١٠٣-١٠٤ .

يأخذونها من بعض الطوائف العاطفة في خدمة الحجاج أو رؤساء حلقات بيع المنتجات الزراعية ، ولم يعارضى الولاة العثمانيون في ذلك الا في حالات قليلة عند ما كانوا يشعرون بضعف الشريف^(١) ، ومن خلال هذا بيد و ضعف نفوذ الدولة أو اتساعه على حسب قوة الحاكم من الاشراف ، ومما هو جدير بالملاحظة أن واردات الحجاز تلك التي تضاف الى الخزينة العامة لا تغطي نفقات الحجاز ولا تعود بربح لخزانة الدولة ، بل كانت الدولة تتفق على مرتبات الاشراف ورؤساء القبائل وكبار العلماء وأعيان البلاد والموظفين ما يزيد مجموعه من الواردات والتي تنحصر في رسوم التقاضى .

وقد أشرنا من قبل أنه كان بجانب الأشراف قائد عسكري يسمى الصنجق ومكانه جدة ، ثم تحول هذا اللقب الى والى جدة الذى نقل مقره الى مكة وكان ذلك سنة ١٢٨٧ هـ (٢) ، وأقامت الدولة في الحجاز الى جوار والى العثماني وشريف مكة قوة عثمانية كبيرة لتوطيد النفوذ العثماني ، ونجح العثمانيون الى حد كبير في دعم سلطانهم في الحجاز ، وكان اختصاص والى العثماني الاشراف على القوة ظم عسكرية الحراطة بين مكة والطائف وجدة ، وقد حاولت الدولة العثمانية منذ مطلع القرن التاسع عشر أن تحتفظ بممتلكاتها في شبه الجزيرة العربية وخاصة في الحجاز ، حيث يفد الحجاج سنويا من أرجاء

(١) احمد السباعي ، تاريخ مكة ، ص ١٨٧ .

(٢) المجتوى ، الرحلة الحجازية ، ص ٣٨ .

العالم ويسمعون اسم السلطان يدعى له يومياً في مكة ويرون العثمانيين أمامهم
قوة حاكمة فكان ذلك يرفع من مكانة السلطان العثماني في العالم الإسلامي كله،
ويضخم من نفوذ الدولة أمام الدول الأوربية، إلا أن نفوذ الدولة في الحجاز
لم يكن مستقراً تمام الاستقرار، فعلى الرغم من المعونات التي كانت تقدمها
الحكومة العثمانية للحجاز، فإنها كانت تخشى من أشرف مكة الذين ينحدرون
من نسل النبي صلى الله عليه وسلم أن يحاولوا تنصيب أحدهم خليفة
للمسلمين (١). لذلك نجد العثمانيين يكتفون بما حصلوا عليه من الطاعة من قبل
الأشراف، الذين تتفق عليهم الدولة، فكانت غلال القمح تصل إلى كل بيت فسي
الحرمين، والمعاشات تصل إلى الموظفين الكبار،

وعلى مر السنين شعر الناس أنهم يعيشون في كنف آل عثمان،
واستكانوا لهذا الظل، وتوطنت نفوسهم على احترام العلاقة التي تربطهم
بالعثمان والرضا بتبعيةهم للدولة، واهتم الناس بطلب أولادهم حسب
السلطين من آل عثمان والدعاء لهم بالعز والتمكين، كما استطاعت الدولة
بفضل تلك الأحوال التي تدونها للحجازيين أن يدعموا نفوذهم في البلاد على
الرغم من تدمر بعض القبائل، واستطاع صنّج جدة والوالى فيما بعد أن يستقل
بمقدرات الإمارة، وأن يتصرف في تنصيب الأمير بعد الأمير ويكتب رأيه فيه إلى
عاصمة الدولة ليطلق تعليقاً وأوامرها (٢). ويرى ذلك واضحاً في كيفية

(١) فاروق اباطه، الحكم العثماني لليمن، ص ٨٢، ١٢٧.

(٢) أحمد السباعي، تاريخ مكة، ص ١٨٨.

تحيين الاشراف فى منصب شرافة الحجاز والذى كان يصدر به فرمان
التولية من العاصمة استانبول ، فبعد انسحاب القوات المصرية من شبه جزيرة
الحرب سنة ١٨٤٠ م كانت السلطة بيد الشريف محمد بن عون الذى أخذ
يتطلع الى توسيع نفوذه خارج الحجاز (١) .

وفى سنة ١٨٤١ م عين السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١)
عثمان باشا واليا على الحجاز ، وكان الفرض من ذلك أن تكون الاماكن المقدسة
الاسلامية تحت ادارة مباشرة ثنائية تكون فيها سلطات الوالى مقيدة فلا تطفى
على الامتيازات الممنوحة لكبار الاشراف (٢) . ولقد ثابر هذا الوالى على
اتخاذ جدة مقر له ، فحصن ينبع وأنشأ حامية صغيرة ، وأقام مخافر عسكرية
بينها وبين مكة ، وأخذ يدس الدسائس بين العشائر ولكن هذا أدى الى قيام
اعمال العنف ضد الدولة ، إلا أن الوالى العثماني قمعها بحملات ارتكبت
الفظائع ضد الأهالى وتمكنت حطة مكونة من ألف رجل من دخول مكة ، مما
جعله ينقل مقر الإقامة اليها ، وبذلك تيسر له التدخل المباشر فى عزل الشريف
وتولية آخر مكانه (٣) .

ومع أن الشريف محمد بن عون كان قد وافق الحطة العسكرية التى

(١) سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، ص ١١١ .

(٢) جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ص ١٣٣ .

(٣) توفيق على بربوط ، العرب والترك ، ص ٨ .

وجهت لليمن عن طريق جدة في مايو سنة ١٨٤٩ م واستخدم نفوذ هـ لدى قبائل
عسير ليقفوا على الحياد أثناء مرور الحطة عبر أراضيهم الى اليمن فقد تلقى
باشا جدة في أغسطس سنة ١٨٥٢ م تعليمات من الباب العالي بإرسال شريف
مكة وابنيه الكبيرين الى تركيا ، وتعيين عبد المطلب مكانه ، فترك الشريف محمد
ابن عون (١٨٢٨ - ١٨٥٢) أمور شرافة مكة بيد منصور بن يحيى وذلك حتى
عودة عبد المطلب من العاصمة (١) ، ومكث الشريف عبد المطلب في شرافة مكة
أربع سنوات (١٨٥٢ - ١٨٥٦ م) ثم أعادت الدولة محمد بن عون الى شرافة
مكة حتى توفي في مارس سنة ١٨٥٨ م ، فوجهت الدولة الامارة لابنه الشريف
عبد الله (٢) ، ويعتبر الشريف عبد الله أول شريف منح رتبة الوزارة ولقب باشا
وتربى في الاسنانة ، وتعلم فيها العلوم الشرعية والتفسير والحديث وفنون
الأدب (٣) ، وكان من أعضاء المجلس الخاص ، واشتهر عند رجال الدولة
بكمال العقل وحسن التدبير ومعرفة الاحكام ، وكان يكثر في مجلسه من مذاكرة
العلم والأدب ، ويحضر مجلسه كثير من العلماء والأدباء (٤) .

وفي ٦ ذوالقعدة سنة ١٢٧٤ (١٨٥٨ م) وقعت حادثة فحواها أن صالح
جوهر أحد تجار جدة كان له مركب عليه العلم الانجليزي ، فخلعه ووضع مكانه
العلم العثماني ، وعند ما طلع القنصل الانجليزي البحر دخل المركب وأزال العلم

-
- (١) سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، ص ١١٢ .
 - (٢) احمد زيني دحلان ، خلاصة الكلام في أمراء بيت الله الحرام ، ص ٣٢٠ .
 - (٣) محمد لبيب البتونى ، الرحلة الحجازية ، ص ٧٩ .
 - (٤) احمد زيني دحلان ، خلاصة الكلام في أمراء بيت الله الحرام ، ص ٣٢١ .

المعثاني ورفع العلم الانجليزي وتمادي ووطى العلم العثماني بقدمه مما أدى الى ثورة المسلمين في جدة ونهبوا الى دار القنصلية وقطوا القنصل وبعض القناصل الموجودين في جدة ، واستولوا على أموال النصارى ونهبوا الى فرج أحد التجار الذي دافع عن القنصل الانجليزي وأرادوا أن يد مروا داره ، فمنعهم عبد الله نصيف والذي كان لا يزال يشغل منصب وكالة محمد بن عون آنذاك ، وكان نامق باشا والى الحجاز قد ولي الشريف على ريشما يحضر الشريف عبد الله من العاصمة ، وكان الاثنان في المدينة المنورة لتقابل الحجاج وعند ما سمعا بذلك توجهتا الى جدة وسكنتا الفتنة ، ونتيجة لذلك أرسل الانجليز مركبا حربيا أخذ يرمى جدة بالدافع ، فهرب الناس وانزعجوا ، فعقد نامق باشا في مكة مجلسا في ديوان الحكومة وأخذ يتشاور لتسكين الأمر مع العلماء والتجار وأعيان الناس ، ووصل الشريف عبد الله في ربيع الاول سنة ١٢٧٥ هـ ، ودخل مكة في موكب عظيم وفرح الناس بولايته ، وكانت له عند الناس هيبة ، لعلمهم بحسن سياسته ودرايته (١) ، وقابل الشريف عبد الله المندوبين الانجليز ، فطلبوا منه المساعدة في دخول مكة فاعتذر عن احتمال هذه المسئولية ثم قال لهم : ماذا تريدون من بلد لا زرع فيه ولا نبات ولا ماء وربما نالكم منه مرض يذهب بحياتكم لعدم اعتيادكم على مثل هوائه في حين أنكم في غنى عنه ؟ فاقنعوا بجوابه وعادوا الى بلادهم (٢) .

(١) احمد زيني دحلان ، خلاصة الكلام في أمراء بيت الله الحرام ، ص ٣٢١ .

(٢) محمد لبيب البتوفى ، الرحلة الحجازية ، ص ٧٩ .

وكان مقدم الشريف عبد الله برفقة معاون برتبة فريق ، وفى سنة ١٢٧٦
توجه الى الشرق لقمع بعض المخالفين ، وكان ذلك فى مدة ولاية ناصى باشا
قبل عزله واستبداله بعلى باشا الكاهيلى " (١) . وفى سنة ١٢٧٧ قام سعيد
باشا والى مصر بزيارة المدينة ، فتوجه الشريف عبد الله لمقابلته ورافقه الى مصر
ورجع الى مكة فى نفس السنة بعد أن قوبل بالاحترام والاكرام ، وسار الشريف
عبد الله الى عسير فى سنة ١٢٨١ هـ لقتال أميرها محمد بن عائش لأنه تجاوز
الحدود ، وسنعرض لذلك بالتفصيل فى الفقرة التالية ، وفى سنة ١٢٨٥ هـ
توجه ناحية الشرق ووصل الى رنية لتأديب بعض القبائل ورجع منصورا ، وفى
سنة ١٢٩٤ هـ أمر بتعليم أهل مكة الحركات النظامية ، وتوفى الشريف فى نفس
السنة فى شهر جمادى الآخرة (٢) وعين مكانه أخوه الشريف حسن باشا بعد
مقدمته من الاستانة وكان على جانب عظيم من التقوى والصلاح والزهد والسور
واستمر حكمه الى سنة ١٢٩٧ هـ ان قتل بيد رجل أفغانى وذلك أثناء دخوله
جدة ، وجاء الشريف عبد المطلب للامارة للمرة الثالثة ولكنه عزل عنها سنة ١٢٩٩ هـ
بسبب الشقاق بينه وبين الاشراف ، وعين بدله الشريف عون الرفيق بن محمد
ابن عون والذي مكن نفسه فى مركز الشرافة ، ودعم نفوذه على العرب والولاءة
المعثانيين وأصبحوا كأنهم مأثورين من قبله الا فى زمن عثمان ونورى باشا ، فانه

(١) احمد زينى د حلان ، خلاصة الكلام فى أمراء بيت الله الحرام ، ص ٣٢٣ .

(٢) خليل مردم بك ، أعيان القرن الثالث عشر ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

حد من نفوذ ه حتى نقل من ولاية الحجاز بسعى من عون الرفيق وأنصاره
فى الاستانة ومن ذلك الوقت أخذ حريته فى الولاية . (١)

قسمت الدولة العثمانية ولاية الحجاز الى متصرفتين ، متصرفية جدة
الواقعة على البحر الاحمر وهى ميناء عظيم ، ويوجد بها جمرك وثكنات للمساكر
ومحجر صحرى ، وكانت تعتبر من أعظم مدن الحجاز ، ويتكون سكانها من خمسين
ألفا ، وميناء جدة من أعظم الموانىء على البحر الاحمر ، والمتصرفية الثانية
فى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم (٢) ، وكان
قائمقام ينبع تابعا لها على اعتبار أن ينبع ميناءها (٣) ، وبالإضافة الى
قائمقامية ينبع هناك قائمقامية الليث ، وهى مرفأ على البحر الاحمر جنوب جدة
وعدد سكانها ستة آلاف ، وقائمقامية الوجه وهى مرفأ على البحر الاحمر وبلغ
سكانها خمسة آلاف (٤) .

واختصت الحجاز بمجلس ينظر فى الامور الهامة ، ويتكون من قضا
والدفتر دار ، ومدير الحرم ، وكاتب أسرار الولاية ، ونقيب الاشراف ونائب
الحرم ، وسادن البيت الحرام ، ومفتى الحنفية ، وقائمقام الشريف فى مكة ،

-
- (١) محمد لبيب البتونى ، الرحلة الحجازية ، ص ٧٩ .
 - (٢) شرف بن عبد المحسن البركاتى ، الرحلة اليطانية ، ص ١٤٥ .
 - (٣) هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن فى طوك الحرب ، ص ٧٣ .
 - (٤) شرف بن عبد المحسن البركاتى ، الرحلة اليطانية ، ص ١٤٧ .

ومدير الصحة ونقيب السادة الحسينية ، وهناك ديوان تمييز بالنظر في الدعاوى المدنية والجنائية ، تستأنف أحكامها في محاكم الاستانة ، وتتكون هذه المحكمة من نائب الشرع الشريف ، وثلاثة أعضاء منتخبين من أهالي مكة ، وقائم مقام مكة يعين من قبل الشريف ، وقاضى مكة يعين من قبل الدولة العثمانية لسنة واحدة ، أما نائب المشرع فكان يعين لمدة سنتين .

ولولاية الحجاز نواح وأخطاط يسمى متوليها مدير ناحية ، وحاكمها بلقب قائم مقام ، منها الطائف ورايح بالإضافة الى القاء مقامات السابقة ، ولكل قائم مقام مجلس يتكون من القاء مقام ، ومن نائب الشرع الشريف ومأور المالية ومن بعض الأهالي الذين يختارهم شريف مكة ، وكان للقبائل مجالس عرفية تنظر في أمورهم وتتألف من القاضى وبعض الشيوخ ورؤساء القبائل مع من يختاره الطرفان للاشتراك معهم واستئناف أحكام هذه المجالس عند الشريف الذى بدوره يزيد الحكم أو يعدله ويكون حكمه هو الأخير . (١)

أعفت الدولة أهل المدينتين المقدستين من الضرائب والجندية الاجبارية ، ودفعوا لهم اعانات سنوية (٢) ، ولم يطبق نظام الالتزام الذى أخذت به مصر وجهات أخرى من بلاد الشام . (٣)

(١) محمد لبيب البنتونى ، المرحلة الحجازية ، ص ٣٨ .

(٢) جيمس موريس ، الطوك الهاشميون ، ص ١٤ - ١٥ .

(٣) د . فائق صواف ، العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، ص ٤٠ .

وعندما استولت الدولة العثمانية على مصر والحجاز ، اختصت الدولة بكسوة البيت الداخلي وكسوة الحجرة النبوية الشريفة بالإضافة الى الشمع الذى يسرج به داخل الكعبة وخارجها ، ومقامات المسجد الحرام ، كما ترسل الدولة طيب الكعبة ويخورها مثل عطر الورد والعنبر ، علاوة على الحبال الذى تربط به استار الكعبة وترسل هذه مع المحمل الشامى ، واختصت مصر بكسوة الكعبة الخارجية ، وقد كانت مصر تصنع الكسوتين الداخلية والخارجية حتى سنة ١١١٨ هـ ، وعندئذ أمر السلطان أحمد بن السلطان محمد الرابع بحياكة كسوة الكعبة فى استانبول ، وكان ذلك سنة توليه السلطنة ، واستمر سلاطين آل عثمان فى ارسالها على النحو المذكور حتى عهد السلطان عبد العزيز خان ابن السلطان محمود الثانى ، ثم توقفت الدولة عن هذا العمل (١) .

وكانت المحامل قد صنعت فى فترة وجود قوات محمد على فى شبه الجزيرة العربية ، ثم استأنف المحمل الشامى والمصرى مسيرهما الى مكة ، وكان المحمل الشامى هو الذى يحمل الصرة والصدقات ، وكان المحملان المصرى والشامى يستقبلان فى جدة ومكة استقبالا رسميا ، وعند وصول الركب يناخ جمل المحمل بجانب باب النبى فى حفل عام وتمزف موسيقى مكة ، ثم ينقل المحمل على أكتاف الرجال من باب النبى حتى داخل الحرم . (٢)

(١) يوسف احمد ، المحمل والحج ، ص ٢٥٠ .

(٢) احمد السباعى ، تاريخ مكة ، ص ١٩٩ .

وهكذا يتضح من هذا العرض ما كان للحجاز من وضع خاص يتميز به
عن سائر أجزاء الدولة بسبب وجود الأماكن المقدسة الإسلامية به ، فكانت
الامتيازات التي تمتع بها سكان الحجاز وحكامه ، إذ أقامت الدولة فيه نظاما
هو عبارة عن سلطنة ثنائية طرفها : الشريف والوالي ، ونحن إذا كنا قد
أشرنا إلى حدوث بعض التغييرات إبان صدور قانون الولايات أي منذ
سنة ١٨٦٤ م ، فإن هذا القانون لم يصحبه تطبيق فعلى في الحجاز كما طبق
في الأجزاء الأخرى من الدولة .

أما عن الحالة في عسير واليمن قبيل افتتاح القناة ، فقد استطاع الامير
عائض بن مرعي حاكم عسير أن يوطد الامور ويوفر الاستقرار في القطر العسيري ،
ان لم يذ كر المؤرخون حوادث بين السنوات ١٢٧٠ - ١٢٧٣ هـ سوى ما ذكره
الشيخ حسن بن عبد الرحمن الحفظي مؤلف تاريخ عسير ، بأنه الجراح المنطقة
مرض الطاعون وكان ذلك أول سنة ١٢٦٦ واستمر الى سنة ١٢٧٣ هـ وهلك
نتيجة لذلك ناس كثيرون ، وخلت بعض القرى من السكان ، وكان ضمن ضحايا
المرض أمير عسير نفسه الذي توفي بهذا المرض وكان ذلك سنة ١٢٧٣ هـ بعد
حكم دام أربعة وعشرين عاما ، وفي امارته لمسير كان قد أرسل وفدا برئاسة
محمد بن مفرج ، الى أمير مكة عبد المطلب بن غالب ومعه هدايا ثينة بالاضافة
الى رؤوس من الخيل ، وذلك لكي يوافق الشريف على حدود بلاد غامد
وزهران . (١)

تولى محمد بن عائض امارة عسير بعد وفاة أبيه وذلك في الفترة (١٢٧٣ -
١٢٨٩ هـ) فساءت حالة البلاد ، ان اختلف مع الحلفاء ، غير أنه لم يتعرض
عند وصوله الحكم لخطر خارجي الا أن المناطق التابعة لامارته كانت مضطربة ،
ويعتريها تفكك مما أفسح له المجال الى الاصلاح الداخلي ، فحفر الآبار
وأقام عليها المزارع ، وذلك في أودية أبها والفيحاء والبصرة والسقا وغيرها ،

(١) هاشم سعيد التميمي ، تاريخ عسير في الماضي والحاضر ، ص ٢٠١ .

كما شيد الحصون المنيعه في كل من أبها والسقا وريدة والحرطة وغيرها من المناطق التابعة لمارته . (١)

ويبدو لى أن الفرصة كانت مواتية لمحمد بن عائض في اتجاهه نحو الإصلاح الداخلى وذلك لأمرين أحدهما طول مدة حكم أبيه ، مما ساعد على ولأه القبائل لأبناء ورجالاته بيته ، والثانى : شيوع العداوة بين بعض القبائل التابعة لمارته مما حال دون الاصطدام به فشغل الناس عنه وتفرغ هو للجانب الاصلاحى ، وكانت الفتن قائمة على أشدها فى مناطق السحر وتقع فى الشمال الغربى من تهامة عسير ، والأحابيش وتقع فى أسفل وادى حلى من رجال ألمع ، وأودان مغيط وهى تقع فى أعمال رقعاء من رجال ألمع ، وعمرم بين المخلوط والطامية ، والنقلى من أعمال المحارث على طريق قرعاء ومسلية من أعمال بيشه ، والقاع من أعمال واحة بيشة ، فوضع الامير محمد بن عائض حدا لتلك الفتنة ، ومن تلك الفتن ما حدث بين قبيلتى البناء وآل عاصم ، اذ نشب القتال بين القبيلتين ، وقامت بينهم غارات مستمرة قتل فيها أناس كثيرون وانتهكت الأموال رغم تدخل أصحاب الشأن فى عسير ونذل المحاولات لايجاد حل سلمى بين القبيلتين (٢) .

(١) محمد بن احمد عيسى العقيلى ، تاريخ المخلاف السليماني ، ق ١ ج ٢ ص ٥٨٤

(٢) هاشم بن سعيد النعيمي ، تاريخ عسير ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

وفى جمادى الاولى سنة ١٢٨٠ هـ توجه الامير محمد بن عائض على رأس جيش كبير الى المخلاف السليماني (١) بعد أن ساد المخلاف الفوضى وفرقت الأسرة الحاكمة فى الفتن الداخلية والتقاتل فيما بينها فضاقت السكان ذرعاً من جراء تلك الفتن الدامية بينما كان دور الوالى العثماني دور المتفرج ، فاستنجد أعيان المخلاف بأمر عسير محمد بن عائض الذى وصل مدينة أبى عريش فاستقبل من قبل أهلها ودخل المدينة سلماً ، بينما هرب الأمير الحسن بن محمد ، فتقدم العسيريون ، وهزموا الحصون وقصر الأمير ، وظلت الحاميات العسيرية مرابطة بالمخلاف السليماني حتى سنة ١٢٨١ هـ (٢) ، وازاء هذا الموقف اضطر الباب العالي الى أن يلجأ الى والى مصر (اسماعيل) للاستعانة به فى اخلاء ثورة العسيريين ضد العثمانيين فى اليمن ، حتى لا تخرج تلك الجهات نهائياً عن حظيرة الدولة (٣) ،

وقد زاد من اشتعال الثورة ضد العثمانيين فى تهامة والمخلاف السليماني انضمام ثلاثة قبائل كانت تسكن بالقرب من الطائف الى جانب الثوار العسيريين (٤) ، وحاول اسماعيل ، والى مصر أن يحل المشكلة ودياً ، وذلك بأن وجه النصيح الى أمير عسير محمد بن عائض باحترام سيادة الدولة

(١) العقيلي : تاريخ المخلاف السليماني ، ق ٢ ، ج ١ ، ص ٥٨٤ .

(٢) النعيمي ، تاريخ عسير ، ص ٢٠٢ .

(٣) فاروق أباطه ، الحكم العثماني فى اليمن ، ص ٧٠ .

(٤) اسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول الجوار ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ .

العثمانية ، وذلك فى خطاب أرسله الوالى اسماعيل فى شهر سبتمبر سنة ١٨٦٥ (١٤ ربيع الثانى سنة ١٢٨٢ هـ) يوضح له ما تأمر به الشريعة الاسلامية من طاعة
ولى الأمر ، ووعد به فى حالة الاستجابة بأن يسعى لدى الباب العالي فى الحصول
على عفوه وموافقته على اقراره أميرا على عسير ، وذلك بعد أن يتخلى عن الاراضى
التي ضمها اليه ، وفى ختام الخطاب حذره من عاقبة تماديه فى العصيان بقوله :
ان الم تقبلوا النصيحة الخيرية فى الدين ، فتكونون السبب فى سوق الجيوش
المتكاثرة من أرض مصر القاهرة الى تلك البقاع ، وضرب تلك الديار وسفك الدماء
.. فالأولى الانقياد والطاعة قبل وقوع تلك الساعة " (١) .

وكان محمد بن عائض قد استولى على بعض المدن فى تهامة اليمن ، كما
حاصر المدينة الا أن متصرفها قد صده عنها ، لذلك نفذ الخديوى اسماعيل
الحملة المكونة من ثلاث فرق زودها بالمدافع وكتائب الفرسان وعقد قيادتها
للأمير لاي اسماعيل صادق الذى وصل الى جدة ، واتفق مع الوالى العثمانى على
توجيه الحملة من ناحية القنفذة (٢) ، كما توجه الشريف عبد الله بن محمد بن
عون بمن معه من الجنود على طريق الليث ثم وصل القنفذة ، وتقابل الجيشان
فى منطقة المخوة من تهامة ظاه ، وأخذ كل فى الاستعداد للدخول فى
المعركة ولكنهم جنحوا للسلم أخيرا ، بعد أن تراجع أمير عسير ، وكان الخديوى

(١) فاروق اباظه ، الحكم العثمانى فى اليمن ، ص ٧٢ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، ص ٢٠٣ .

اسماعيل قد طلب بعودة الجيوش المصرية وتكرر ذلك الطلب ، كما عاد الشريف
عبدالله الى مكة بعد أن مكث مدة في بلاد غامد وزهران التابعة لولايته (١) .
وفي شعبان سنة ١٢٨٥ هـ قام رجال ألمع بثورة كبيرة وخرجوا عن طاعة محمد
ابن عائض ، وكانت الثورة بقيادة السيد علي بن حسن ، وابراهيم بن عبد الوهاب
شيخ قيس والنضم اليهم معظم قبائل تهامة عسير ، واتخذوا من الحصن المسمى
(مشارى) والقائم على ضفاف وادى كسان نقطة لانطلاق الثوار . وكان الأمير
محمد بن عائض قد انحرف عن سيرة والده عائض بن مرعي ، وعندما سمع بالثورة
خاف على كيانه وأرسل وفدا من أعيان امارته برئاسة أخيه سعد بن عائض
لمناظرة الثوار ، ولكن من غير جدوى ، وفشل الوفد في أداء مهمته ، وتأزم الموقف
بعد ذلك ، وانقطعت المواصلات بين سراة عسير ورجال ألمع ، وأحاط الثوار
بالمضايق وقمم الجبال ، فجمع الأمير محمد بن عائض جيشه في شهر رمضان
وتقدم على رأس الجيش الى رجال ألمع ، وعندما تجمعت القوات على سطح بابه
أرسل وفدا برئاسة لاحق بن أحمد الزيداني للمصالحة والوصول الى حل سلمي ،
ف فشلوا أيضا بعد أن دفعوا خمسة آلاف ريال لزعماء الثوار ، فغضب لذلك
الأمير ، وزحف الى مواقع الثوار من جهتين عن طريق عقبة الصماء ، وعقبة (فو)
وعند (الظهرة) اشتبكت طليعة رجاله ببعض الثوار فوقع قتال بينهم وانتهى
بانهزام الثوار واحتل الظهرة وما حولها ، واتخذها مركزا لقواته ، أما القسم

(١) أحمد زيني دحلان ، خلاصة الكلام في أمراء بيت الله الحرام ، ص ٣٢٤ .

الذى كان عن طريق عقبة فوفاحتلى قرى حلى وأحرقها ، ونكل بأهلها ، وتقدم رجال قحطان على حصن شيخ بنى ظالم المطقب أبو علائم فأحرقوه وبذلك تم القضاء على الثوار (١) ،

ويبدو من خلال ما ذكرناه عن عسير أن موقف الدولة قبل فتح القنالة فى هذا الجزء من غرب الجزيرة كان وجودا اسميا أكثر منه وجودا فعليا بدليل استعانة الدولة العثمانية بالحكومة المصرية فى اخطاط تلك الفتنة ، ووجود الاضطرابات بين القبائل التى لم تستطع الدولة اخطاطها ، وكانت الحكومة المصرية تقوم من نفسها بالوساطة للصلح مع أمير عسير ، وتقدم له الوعود السخية ، فتعده بالمغفوة ، ويتعديله حدود امارته وتغيير اسمها تبعاً لذلك ، وبالإلحاح عليه بالباشوية ، على أن مصر طالبت الباب العالي أيضا بتنفيذ ما وعدت به أمير عسير حتى لا تخرج منه ، والا تتجدد ثورة العسيريين ، كما أشارت مصر الى ما كان للمسألة العسيرية من الأهمية القصوى فى البلدان العربية ، ولذا فإن حسمها بالطريقة المقترحة يوفر على الدولة الشئ الكثير من الجهود والنفقات . (٢)

وقبول الدولة العثمانية لهذه الطلبات من الحكومة المصرية لدليل على ضعف الدولة فى فرض نفوذها وسيطرتها على عسير ، وعدم رغبة الدولة بالدخول فى

(١) النعمى ، تاريخ عسير ، ص ٢٠٨ .

(٢) فاروق أباطه ، الحكم العثمانى فى اليمن ، ص ٧٣ .

حرب مع أمير عسير قبل افتتاح القناة ، وسوف نرى في الفصل الثالث نتائج فتح قناة السويس في أثناء محاولات الدولة العثمانية لاختطاب ثورة الحسنيين اذا أمكن للدولة أن تسهم بدور فعال في اختطاب تلك الثورة .

أما منطقة اليمن فكان محمد علي والى مصر يبسط نفوذه عليها وذلك منذ سنة ١٨٢٠ م ، وكان لاحتلال الانجليز لحدن ضربة موجهة اليه ، لا رغامه على الانسحاب من اليمن ، فكانت بريطانيا ترى في وجوده في غربي الجزيرة خطرا يهدد مصالحها في الهند ، لذلك انتهزت انشغاله بالحرب ضد السلطان في حرب الشام الثانية وطلبت من والى مصر اجلاء الجيوش المصرية عن اليمن بأجمعه ، ونجحت بريطانيا في تحويل مشكلة علاقة السلطان بمحمد علي الى مشكلة دولية ، واضطر محمد علي في ١٣ مارس سنة ١٨٤٠ م الى اصدار أوامره الى حاكم اليمن بالاجلاء عنها ، وتسليم البلاد الى الامير حسين بن علي حيدر شريف أبو عريش (١) وذلك كنتيجة لتنفيذ قرارات مؤتمر لندن القاضية بالانسحاب قوات محمد علي من البلاد التابعة للدولة العثمانية واقتضاره على حكم مصر ، وفي ١٩ مايو سنة ١٨٤٠ غادرت القوات المصرية أرض اليمن ، وحاول الشريف حسين بن علي شريف (أبو عريش) ان يخال بلاد اليمن كلها تحت حكمه ، لكنه لم يستطع القيام بهذه الخطوة ، ورأت الدولة العثمانية أن تبادر بتأييد الحسين بن علي حيدر في حكمه على المناطق التي يتسلمها من المصريين ويحفظ للدولة السيادة الاسمية ، وكانت تلك فرصة

(١) سيد رجب حراز ، ص ٢٠٨ .

مهيئة للدولة ، خصوصا بعد أن وضعت بريطانيا قد مها في عدن سنة ١٨٣٩م ونجاح الحكم المصري في كسر شوكة القبائل اليمنية فأرسل السلطان تأييده للحسين عن طريق حاكم جدة وأمير مكة ، واشترط بأن تكون الخطبة " للخليفة العثماني " على منابر المساجد اليمنية ، وفي سنة ١٨٤٣م خلع السلطان عبد المجيد على الحسين لقب (حاكم اليمن حسين باشا) رمزا لتبعيته للدولة وكان الحسين يرضى بذلك لأنه سيد عم مركزه أمام منافسيه ، ويمكن له في حكم المنطقة ، فاتخذ من الحديدة مقرا له ، ونظم شئونهما ، كما أخذ يوسع من اطار حكمه فاستولى على ميناء مخا ، ومدينة زبيد ، وأصبحت دائرة نفوذه من المخلاف السليطاني شمالا الى ميناء مخا جنوبا .

وقام الحسين بمهمته التي ألقيت على عاتقه ، الا أنه تعرض لمخاطبات بسبب المنافسة الدائمة بين الائمة الزيدية في صنعاء واستعانتهم بالقبائل الطامعة في السلب والنهب للانتقام من أعدائه ، ثم بعد ذلك رغبة من يستأثر بالاطمة في حد سيطرته على أملاك الحسين في تهامة والمخلاف السليطاني على اعتبار أنها تابعة لأسلافهم ، اضافة الى أن أشرف عسير يطمعون أيضا في ملك الحسين في تهامة (١) ،

وقد لجأ الامام الزيدى محمد بن يحيى بن المنصور الى الحسين يرجو مساعدته ضد منافسه الامام المهدي عبد الله بن المتوكل أحمد في صنعاء ، فتقدم

(١) فاروق أباظه ، الحكم العثماني في اليمن ، ص ٤٣ .

الحسين للمساعدة وتمكن ابن يحيى من الانتصار على منافسه ودخل صنعاء وتولى الامامة ، وبعد ذلك وصلت الهدايا من حليفه ومن ضمنها خزانة كتب تشتمل على مخطوطات (١) ، الا أنه لم يلبث أن قرر ابن يحيى انتزاع تهامة من يد الشريف حسين ، فجهز قوة من العناصر المناوئة للحسين في تهامة ، وتعاون معهم في هجومهم على جيوش الحسين التي أخذت خيانة الهمدانيين تضعف من قوته ، نظرا لولائهم للامام الزيدى (٢) .

وأدى كل هذا الى أسر الشريف وحبيه سنة ١٨٤٨ م ، وقيل " أن الامام لم يلبث أن أطلق سراح الشريف حسين بعد أن حصل منه على فدية " . (٣) وذكر الواسعى أن الشريف حسين ذهب للأستانة مستنصرا الدولة العثمانية فأمدته بقوة قادها توفيق باشا ، وكان ذلك بداية لاسترجاع الدولة لعسير واليمن (٤) ، وقيل أيضا ان الحسين تنازل عن أملاكه لقاء تأمينه واطلاق سراحه ، وكان محمد بن الحسين قد حاول الاستعانة بحاكم عسير ليخلص والده من الأسر الا انه رفض مناصرة الحسين بل أخذ يعد المدة لضم تهامة الى منطقة نفوذ في عسير ، واستطاع اخوة الحسين أن يخلصوه من الأسر بعد استعانتهم بقبائل يام اليمنية ، وكما ذكرت سابقا فقد ذهب الحسين يطلب

(١) العقيلي ، تاريخ المخلاف السليماني ، ص ٥٥٣ - ٥٥٤ .

(٢) فاروق اباظه ، الحكم العثماني لليمن ، ص ٤٤ .

(٣) سيد رجب هراز ، الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية ، ص ٨٣ .

(٤) الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ٧٣ .

من الباب العالي أن يتسلم المنطقة اليمنية التي يحكمها على اعتبار أنها
أمانة عنقه ، وذلك لعجزه عن المحافظة عليها ، بالإضافة الى أن تجار تهامة
وأعيانها طالبوا السلطان العثماني بالتدخل لقرار الأمور في اليمن بعد أن
كسدت متاجرهم ونهبت أموالهم أثناء المعارك ، خاصة أن قوات الامام كانت
مجموعة من القبائل اليمنية الطامعة في السلب والنهب (١) ، وتلقى السلطان
العثماني مطلب (حاكم اليمن حسين باشا) وتجارت تهامة وأعيانها بالقبول
والرضا ، فكانت فرصة القوات العثمانية لتعيد سيطرتها في سنة ١٨٤٩م بعد
أن خرجت من اليمن سنة ١٦٣٥ م فأرسلت من جدة ميناء الحجاز قوة
عثمانية قوامها ثلاثة آلاف من الجنود المشاة الفرسان ، فوصلت الحطة الى ميناء
البحية اليمنى ، ثم اتجهت الى الحديدة ، واستقبلها الحسين هناك (٢) ،
وهكذا ، لولا ولاء شخص من الحسين للدولة العثمانية ، ولولا حرصه على عدم
إضافة بلاد ه الى أى من القوى الأخرى المحيطة لكنت الدولة عرضة لأن تفقد
وجودها في المنطقة التي كان يحكمها حسين باشا ، ولأدى ذلك الى تضعف
القوة المقاومة للدولة في غرب الجزيرة قبل افتتاح القناة .

وهنا علم الامام محمد بن يحيى بقدوم القوات العثمانية ، ورأى أن يفوت
الفرصة على منافسه في الامامة على بن المهدي ، وذلك باستعانتة بالدولة ،

(١) فاروق اباظه ، الحكم العثماني في اليمن ، ص ٤٤ .

(٢) فاروق اباظه ، الحكم العثماني لليمن ، ص ٤٤ .

ولا ينفرد خصمه الحسين بالتقرب منها ، وذلك لتدعيم مركزه في تهامة والمخلاف
السليمانى ، فسارع الامام بالكتابة للوالى توفيق باشا بالتقدم الى صنعاء ، ثم
استقبلهم عند الأطراف الجبلية المواجهة لتهامة ، واتفق مع توفيق باشا
باصطحابه الى صنعاء حتى يوءدب رجال القبائل الذين شقوا عصا الطاعة
وتمردوا عليه وأظهروا الفساد ، وبذلك وصل العثمانيون صنعاء نهار الجمعة
السادس من شهر رمضان سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩ م) ، وسكنوا قصر غمدان دون
مقاومة تذكر ، وكان توفيق باشا ، والشريف محمد بن عون قد تمكنوا من السيطرة
على الحديدية وتهامة ودخلوا أبوعريش . (١)

وفي أثناء استقبال ابن يحيى الجيوش العثمانية ، استطاع منافسه
على بن المهدي أن يجمع عددا من القبائل وعرضهم على مهاجمة صنعاء ،
وأشعل نار الثورة باعلانه أن ابن يحيى باع اليمن وأهلها للعثمانيين ، وساعد
ابن المهدي في ذلك انكار أهالى صنعاء ما قام به ابن يحيى ، فشاركوا القبائل
اليمنية ، وأقبلت جحافل القبائل على مدينة صنعاء من كل جانب ، واكتسحوا
تحصينات الدفاع وأبادوا معظم رجال الحطة ، واضطر توفيق باشا الى الانسحاب
بما تبقى من قواته الى الحديدية ، والقوا القبض على ابن يحيى ، واقتادوه أسيرا
الى الامام الجديد على بن المهدي الذى أمر بحبسه واعدامه من بعد . (٢)

(١) الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ٧٣ .

(٢) العقيلي ، تاريخ المخلاف السليمانى ، ص ٥٦١ .

وبقى الحكم في اليمن قاصرا على الجهات الساحلية قرابة ربع قرن ، أى
حتى الفتح العثماني الثاني بعد افتتاح قناة السويس وبعد خروج العثمانيين
وتتصيب على بن المهدي اما سنة ١٨٤٩م كانت الخلافات فيها على أشدها ،
وأهمها الصراع الذي نجم بين الامام على بن المهدي في صنعاء وبين المنصور
أحمد بن هاشم في صعدة ، وبين العباس بن عبد الرحمن القائم بعد المهدي
وبين المنصور ، ثم بين الامام أحمد بن هاشم وبين المتوكل الحسن بن أحمد
صاحب الأهنوم ، وتفرعت من هذا الصراع خلافات قبلية ، كاد اليمن أن يتمزق
أوصاله (١) .

ومن تنمة القول المود الى الحديث عن المخلاف السليماني الذي
انسحبت اليه القوات العثمانية بعد خروجها من اليمن ، ان اتخذت مدينة
الحديدة مركزا لها لسهولة الاتصال بينها وبين موانئ الحجاز حيث كان يعتبر
مركزا للدولة العثمانية آنذاك ، وذلك حتى يتمكنوا من تلقى الامدادات والمؤن
اللازمة من هناك ، أما بالنسبة للشريف حسين فقد أراد أن يبتعد عن الاشتغال
بالحكم ، فتوجه الى مسقط رأسه مدينة أبي عريش ، وأقام في قصره ، وأخيرا توجه
الى الأستانة بموجب أمر من الباب العالي ، فقرر له راتب شهريا ، ثم خيّر
في الإقامة في أي ناحية من نواحي الدولة ، ففضل الإقامة في مكة ، ومكث بها

(١) أحمد حسين شرف الدين ، اليمن عبر التاريخ ، ص ٢٦٤ .

حتى توفي سنة ١٨٧٦ م ، الموافق سنة ١٢٩٣ هـ (١)

وهكذا لم تتمكن خطة الدولة التي وصلت سنة ١٨٤٩ م (١٢٦٥ هـ) من السيطرة على العاصمة ، بالرغم من المساعدات التي قدمها الشريف حسين حاكم المخلاف السليطاني ، والتسهيلات التي هيأها لهم الامام محمد بن يحيى حتى أن ظلمهم صنمء دون مقاومة ، واستطاعت القبائل اليمنية التي شجعها علي بن المهدي ضد منافسيه محمد بن يحيى ، وتمكن من خلعهم من الامة ، واختص بها نفسه ، الى جانب ثورة أهالي صنمء العنيفة ضد العثمانيين ، فاستطاعوا جميعا صد العثمانيين عن صنمء ، فرجعوا عنها ، ثم اتجهوا الى تهامة ، وقنعوا بالاقامة في الحديدة ومنطقة الساحل اليمنى القريبة من مراكزهم في الحجاز بعيدين عن جبال اليمن الوعرة ، وكانت تلك الحطة تجربة للدولة ، وتقييما لما يلزمهم من رجال وعتاد وظروف مناسبة لغرض سيطرتهم الفعلية على اليمن ، ولهذا أعادوا الكرة سنة ١٨٧٢ م والتي سنتحدث عنها في الفصل الثالث .

(١) العقيلي ، تاريخ المخلاف السليطاني ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٢ .

دخلت عدن في نطاق الاستراتيجية البريطانية ، عندما تطلع نابليون الى الهند وقام بحملة على مصر ، وذلك لقطع الطريق البري اليها ، الا أن الانجليز لم يهتموا بذلك من البداية ، واهتموا بمدخل البحر الاحمر ، واحتلوا جزيرة بريم سنة ١٧٩٩ م ، وعندما خرجوا نزلت قواتهم عدن في ضيافة صاحبها سلطان الحج ، وقامت على اثر ذلك علاقات مودة ، فمعدت معاهدة تجارية بين الطرفين في ٦ سبتمبر سنة ١٨٠٢ م (١) . وخلال احتلالهم لجزيرة بريم حصلوا من اليمن على اذن بانشاء مستشفى في مخالسا عاف بحارتهم واقتنعت حكومة الهند بطلب الامم بتعيين مقيم بريطاني سنة ١٨٠١ م وتبع ذلك محاولات لعقد معاهدة تجارية مع السلطة الحاكمة في اليمن .

وفي مطلع القرن التاسع عشر ، غزا رجال الدولة السعودية الاولى اليمن ، ولهمرطوا عنها الا في سنة ١٨١٨ م ، فأعيدت الامة الزيدية ، وكانت قطاعات من الجيش المصري متمركزة في الموانئ اليمنية الرئيسية ، خاصة في الحديدة ومخا (٢) ، وتوجس الانجليز خوفا من امتداد النفوذ المصري ، وخشوا من قيام دولة تصبح خطرا على مواصلاتهم في البحار الجنوبية فتهدد مصالحهم ، وتمعق نفوذهم على امتدادها (٣) ، وقد عبر عن ذلك بالمريستون بقوله : " ان

(١) حسين فوزي النجار ، بريطانيا والجنوب العربي ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(٢) محمد عمر الحبشي ، اليمن الجنوبي ، ص ١٠ - ١١ .

(٣) حسين فوزي النجار ، المرجع السابق ، ص ٤٠ .

سيطرة تركيا على طريق الهند لا تفضله سيطرة حاكم عربي نشط مهمب يكن* (١)
فكانت التجارة والخطط الحربية تستدعيان أن تكون الطرق الرئيسية محروسة
حراسة تكفل حمايتها ، وأصبحت حرية البحار المحيطة بشبه الجزيرة من الأسس
التي تقوم عليها السياسة البريطانية (٢) ،

واغتتم الانجليز فرصة ضعف الدولة العثمانية واتشفالها في حروبها مع
الجيش المصري ، أى في نزاعها مع محمد على وحاجتها الى مساعدتهم ، وكان
الانجليز يريدون اتخاذ عدن مركزا للفحم والتجارة ، وجدير بالذكر أن الدولة
العثمانية كانت ذات سيادة على اليمن كله ، وكانت تعتبره جزءا من أراضيها ،
ولا تعترف به هنالك من امارات وامامات (٣) وكانت حكومة الهند قد حاولت
شراء عدن من السلطان محسن سلطان لحج ، الذي رفض ذلك ، فوجهت بريطانيا
اليه انذارا بأن المرفأ سيهاجم اذا لم يقبل ببيع عدن ، الا أنه رفض واتخذ
ذلك ذريعة لاستغلال حادثة غرق السفينة الهندية (ديريا دولار) لاتهم
السلطان بأنه المحرض على اغراق السفينة (٤) ، ومنذ الثامن والعشرين من
نوفمبر سنة ١٨٣٨م كانت الحركات التميدية لاحتلال عدن قد بدأت ، فاتصل
سكرتير حكومة الهند بالكابتن هينس ، وأبلغه بأن قائد الاسطول سيرسل

(١) حسين فوزى النجار ، المرجع السابق ، ص ١٩ .

(٢) جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، ص ١٣٤ .

(٣) أمين سعيد ، تاريخ اليمن ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٤) محمد عمر حبشي ، اليمن الجنوبي ، ص ١٢ ، فاروق عثمان أباطه ، عدن
والسياسة البريطانية ، ص ١٦٢ .

السفينة آن كريشتون (Anne Crichton) الى عدن ، وطبقها كمية من الفحم لتموين السفن في البحر الأحمر لحمل المؤن والمياه للسفينة الحربية المسماة " الكوت " ، واسترسل سكرتير حكومة الهند موجهها الى هينس (وأبلغك بأنه سوف يكون على ظهر السفينة آن كريشتون مدفعان هاوترز ٨٠ بوصة وأطعم رجال المدفعية ليكونوا تحت تصرفك بعد وصولهم الى عدن لاستخدامهم في الدفاع عن هذه السفينة اذا ما توقفت في عدن ، وأوصى بتفكر في أحسن استخدام لهم ويمكن اعتبارهم - أي رجال المدفعية - جزءاً من الحطة التي طلبت ارسالها ، أما الاجراءات الاخرى التي اقترحتها فهي الآن محل اهتمام ودراسة من الحكومة) كما أصدرت حكومة بومباي تعليمات بارسال قوة لاحتلال عدن بأقصى سرعة ، وكذلك مجموعة من المهندسين ، وتتضمن هذه القوة التي السفينة (الكوت) أما المدفعية فعلى ظهر السفينة (آن كريشتون) وأصدرت التعليمات بارسال المؤن والذخائر محطة ، وأشار حاكم الهند بأن الأهم هو النزول الى عدن بسلام ، واسترسل أنه اذا سمحت الظروف فانه يمكن لهينس أن يتصل بقائد الحطة قبل وصولها ، ويستخدم السفينة " ما هي (Mahe) في ذلك والتي تحمل هذا الخطاب ."

أما من ناحية واجبات القوات البرية المكلفة بغزو عدن فقد أبلغ حاكم بومباي المايجوريلي " Bailie " قائد الحطة عند وصوله الى عدن أن يعتبر نفسه تحت تصرف السلطة السياسية للكابتن هينس ، وأنه في حالة امتلاك الحكومة

البريطانية عدن سواء بالمفاوضات أو بأي سبيل آخر ، فان على الماجور بيلي أن يوجه اهتمامه السريع الى وضع أفضل الترتيبات طبقا للمكانات المتوفرة لديه لتميز المكان ، وتهيئته للدفاع ضد أى قوة خارجية أو لمواجهة أية مفاجآت .

وتبينت انجلترا مع نهاية سنة ١٨٣٨م أنه لا جدوى من محاولة استمالة سلطان عدن الا باستخدام القوة ، لأن الحكومة كانت تأمل فى تلافى استخدام القوة وكان هو أيضا يرغب فى انتهاء الامر سلميا فوصلت القوات الانجليزية فى ١٦ يناير للقيام بتنفيذ عملية الاستيلاء على عدن ، ثم أرسل هينس انذارا نهائيا الى السلطان محسن فضل وجميع رؤساء قبيلة الحبلى .

وتم اعداد كل شىء ، فالتقوات فى القوارب تحت حماية السفن الحربية كما أخذت السفن الحربية أماكنها ، فكانت نيران هذه السفن شديدة الوطأة حتى دمرت القلعة الرئيسية ، وقضت على وحدة مدفعية العرب ، الا أن المدفعية فى منطقة " صيرة " ظلوا يسيطرون على المنطقة ، ومستعدين لاطلاق النار على القوات الانجليزية فى حالة تقدمها ، الا أن السفينة " ماهى " غيرت مكانها ، وأخذت مكانا على مسافة ٥٠ ياردة من العرب ، فوجهت نيرانها بمساعدة السفن الأخرى مما اضطر العرب الى التقهقر ، ثم تقدمت القوات فى قسمين ، ولم تواجه سوى مقاومة ضعيفة من العرب ، وانسحب السلطان وبعض أتباعه من المدينة وقبيل الظهيرية بخمس دقائق ارتفع العلم البريطانى فوق قصر السلطان واستولى قارب

من السفينة (ماهي) وآخر من (فولاج) على صيره (١) .

وكان احتلال إنجلترا لعدن ضمن خططها العامة في المنطقة فيما سمي
بخطة الهند ، وذلك باحتلالها للنقط الاستراتيجية والتحكم في مداخل البحار ،
وسوف نتعرض لذلك في الفصول التالية .

ويهدف الانجليز من احتلال عدن أن يصبحوا سادة غير منازعين على باب
المندب (٢) ، وأرادوا منها أن تكون قاعدة لتكوين السفن بالفحم ، خاصة عند ما
تحولت السفن الانجليزية الى استخدام البخار .

استرضت السلطات الانجليزية سلطان لحج بعد ذلك بمنحة مالية تدفع
اليه كل عام وعقدت معه صلحا ، اعترف لها فيه بامتلاكها عدن ، ولكنها تعرضت
لكثير من هجمات العرب ، وتوترت العلاقات بينها وبين السلطان ، ولم تستقر
الأمر تماما الا في سنة ١٨٥٧ م (٣) .

وعندما احتلت إنجلترا عدن ، لم تستطع الدولة العثمانية اتخاذ اجراء
مقابل ضد هذا التدخل في جزء هو في الاساس من ممتلكات الدولة العثمانية
وكان ذلك بسبب خروج محمد علي على الدولة ، وكانت الدولة تستعين بالوالي

(١) جان طه ، سياسة بريطانيا في الجنوب العربي ، ص ١١٣ - ١٢٧ .

(٢) محمد عمر الحبشي ، اليمن الجنوبي ، ص ١٢ .

(٣) حسين فوزي النجار ، بريطانيا والجنوب العربي ، ص ٤٠ .

المصرى فى مثل هذا التدخل ،بالاضافة الى عدم وجود طريق رئيسى يربط العاصمة بهذه المناطق ،وسوف نرى أثرا فتتاح قناة السويس للدولة ،وكيف ستكون قدرة الدولة على الوقوف عن كثب من هذه المناطق .

لم يكن الاستيلاء على عدن هو غاية ما تنفيه إنجلترا من المنطقة ،وانما كان هذا الاستيلاء بمثابة خطوة للتوسع وبداية للانطلاق لتأكيد النفوذ الانجليزى فى جنوب اليمن ،وفى البحر الاحمر ،وعلى الساحل الشرقى لافريقيا ،ومن عدن تسلل النفوذ الانجليزى أولا الى السلطنة العبدلية ،والتي كانت محتفظة باستقلالها الذاتى متخذة شكل الصداقة وحسن الجوار ، وكان لزاما على الحكومة الانجليزية أن تعامل السلطنة العبدلية معاملة خاصة لسببين ،أولهما : عدن كانت الجزء الذى اقتطعته بريطانيا من السلطنة العبدلية ،ومن ثم وجب تهدئتها ،وثانيتهما : لأن السلطنة العبدلية تفصل بين عدن واليمن والتي كانت واقعة تحت السيطرة التركية ومن ثم وجب المحافظة على وضعها الخاص لتكون حاجزا بين اليمن وعدن . (١)

وكانت إنجلترا قد عقدت مع السلطان العبدلى معاهدة حماية فى ٢ فبراير سنة ١٨٣٩م لحماية المناطق المجاورة لعدن مباشرة ،وفى شهر يونيو من نفس السنة تعهد الانجليز بدفع المعاشات التى كان يدفعها السلطان العبدلى

(١) محمد حسن عوىلى ، اغتيال بريطانيا لعدن والجنوب العربى ، ص ١٥ .

لقبائل يافع والفضلى والحوشى والاميرى . وفى نفس الوقت حدد مبلغ الاعانة المالية السنوية للسلطان وجعل التعهد بينهما هجوما ودافعا ، كذلك حددت الأراضي الانجليزية وعينت صلاحية حكم كل منهما باتفاقية (١) .

ومن خلال اقامة هينس فى المنطقة لم يذكر للقبائل عبارة الاتحاد ، ولم يذكر الوحدة فيما بينهم بل ذكر ممارسة التعارف ضمن التنوع والتعدد وقد وصف الجنرال يعقوب (John Jacob) قائد العليات العسكرية " أن القوة الأدبية تكون الحاجة اليها أكثر بكثير من القوة المادية لا خضاع القبائل التى تعيش على السلب والنهب (١) وكلتا هما ضرورتان حيث تكون القوة المادية أساسية ، وذلك ليتمكننا من فرض القوة الأخرى الأدبية " (٢) .

وقد استعان هينس باليهود واستخدمهم كجواسيس ، وكانت تليفاتهم تكتب الى أبناء ملتهم فى عدن باللغة العبرية ، حتى لا يتمكن السكان العرب من تفسيرها لو عثروا عليها . (٣)

ولما أراد الامام الزيدى مقابلة الكابتن هينس ، أمرت الحكومة الهندية هينس أن يستقبل مبعوث الامام سنة ١٨٤٠م بمجاملة لائقة ، غير أنه يجب أن يكون

(١) محمد كمال عبد الحميد ، الاستعمار البريطانى فى جنوب الجزيرة العربية ص ١١

(٢) هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن فى ملوك العرب ، ص ٤٧ - ٤٨ .

(٣) هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن فى ملوك العرب ، ص ٣٩ .

هذرا حتى لا يورط الحكومة بارتباطات متصلة بمطالب ذلك الزعيم في المخاء ،
وأما بشأن الاشارة الى أعمال الشريف حسين حاكم المخلاف السليطاني العدائية
فانه " (ربما كان من الأعطال السياسية للمستقبل البعيد تشجيع ودعم مطالب
الامام ") ، وأسفرت محاورات هينس مع امام صنعاء عن جعل الباب مفتوحا لبعض
النواحي السياسية الهامة . (١)

اعتقد هينس أنه من الضرر بالمصالح البريطانية أن يصبح الامام الزيدى
قريبا من عدن ، ودافع عن وجهة نظره بضرورة القيام برسم خط للحدود لمنع تقدم
الزيود نحو الجنوب في اتجاه مقربة (٢) ، وفي مارس سنة ١٨٥٣م أفصححت
حكومة الهند عن وجهة نظرها في الوجود البريطاني في عدن (" ان أن التحصينات
الشاملة التي أقيمت بتكاليف باهظة دلت على أنها تمت بقصد الدفاع عن شبه
الجزيرة العربية بوجه عام ، وصد هجمات العرب عن البرزخ ، وبهذا القصد يجب
أن تعتبر مدينة عدن على الأقل ذات اعتبار خاص ، وعلى فرض أن المدينة خارجة
عن الموضوع كلية ، فالبرزخ معتبر كأنه قطعة ، لكنه غير مأمن ، ان استطاع
الأشخاص الغرباء الالتفاف حوله ، لأنه غير منيع أو غير مفتت اليه ، ولا بد من
الاهتمام بالسيطرة على الينابيع ، ومع أنه من المسلم به كقاعدة أن مدينة عدن ليست
حاصلة على الاعتبار الاول والثاني ، وهى دائم محل للتكهن فى أنها سوف

(١) هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن فى طوك العرب ، ص ٣٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

تحصل على بعض الاعتبار ، فان حمايتها تكون جزءاً مقروا من نظام الدفاع العام الذى تزداد بمقتضاه التحصينات وتقوى (١) .

وفى سنة ١٨٥٤م بدأت سلطات بومباى Bombay الحربية تحس بحالة النقص وعدم الكفاءة فى الميناء وفى الدفاع عن فوهة البركان وأقصد به عدن ، وتم اكتشاف احتمالات الضرر التى يمكن أن تسببها سفن معادية (١) ، وفى ١٤ يوليو سنة ١٨٥٤م وقع السلطان سعيد بن سلطان حاكم مسقط تنازلاً للانجليز عن جزر (كوربا موربا) وتضم معها خمس جزر صغيرة فى المحيط ، وجاء فى التنازل (" أن الكابتن فرمانتل Fermantle الذى ينتسب الى الشعب القوى انجلترا والذى يتبع البحرية الملكية الخاصة بالطكة (فيكتوريا) قد طلب منى جزر كوربا موربا ، وأنى بمقتضى هذا أتنازل عن الجزر المشار اليها سابقا للطكة فيكتوريا وورثتها وخلفائها من بعدى ، بمحض ارادتى الحرة وبارتياح دون فتر أو اهراب أو أية مصلحة مالية كانت " (٢) ، واغتازت فرنسا من هذا التنازل ، ولا سيما اذا عرفنا أن صاحب مسقط كان يتظاهر بأنه حليف لفرنسا . فأمرت اسطولها بالقيام بمظاهرة فى تلك البحار ، وقابل الانجليز هذه الحركة باحتلالهم جزيرة بريم بصورة نهائية سنة ١٨٥٨ (٣) ، وتقع هذه الجزيرة عند مضيق

(١) هارولد ف ، عدن وجنوب اليمن فى ملوك العرب ، ص ٦٧ ، ٦٩ .

(٢) محمود كامل ، اليمن شماله وجنوبه ، ص ٢٤١ .

(٣) ساطع الحضرى ، يوم ميسلون ، ص ٤٣ .

باب المندب ، واحتلت أيضا جزيرة قمر في البحر الأحمر (١) . الا أن جزر
كوريا موريا تتبع في ادارتها للحقيم الانجليزى في الخليج العربى ، وذلك لبعدها
عن عدن (٢) ،

وجد بالملاحظة أن التنافس كان قائما بين انجلترا وفرنسا في هذه الفترة
من أجل التمرکز في البحر الأحمر وباب المندب فبعد أن استقرت انجلترا في بریم
أراد المسيو تير مقابلة هذه الحركة فأمر بانزال عساكر فرنسية الى رأس الشيخ
سعيد الواقع أمام (بریم) ، وقد استند في عطفه الى معاهدة عقدت في القرن
الثامن عشر بين دولا مورونيه وزعماء قبائل الخميس ودرين حيث تخلى هؤلاء عن
هذا الموقع لفرنسا . وفي سنة ١٨٦٢م اهتم المسيو توفيل بصورة خاصة لتنفيذ
خطة احتلال الشيخ سعيد والاستقرار فيها ، وحاول كذلك الاستيلاء على لأبوك (٣)
بالقرب من جيبوتي ، فقام بمفاوضات مع زعماء ونظرة انتهت الى نتيجة مبدئية
ذات ايجابية بتاريخ ٢٠ مارس سنة ١٨٦٢م (٤) . الا أن فرنسا تلكت لأبوك
بموجب معاهدة باريس سنة ١٨٦٤م (٥) . وفي سنة ١٨٦٨م باع على شاباط
أحد زعماء قبيلة درين جميع حقوقه في الشيخ سعيد لبازين رايود أحد كبار

-
- (١) محمد حسن عوى ، اغتيال بريطانيا لمدن والجنوب العربى ، ص ١٤ .
 - (٢) حسين فوزى النجار ، بريطانيا والجنوب العربى ، ص ٤١ .
 - (٣) تقع منطقة لأبوك في الجهة الشرقية من القارة الافريقية ، على ساحل المحيط
الهندي ، بالقرب من منطقة جيبوتي .
 - (٤) جان بيشون ، بواعث الحرب العالمية الاولى في الشرق الادنى ، ص ٧٣ - ٧٤ .
 - (٥) محمد عمر حبشى ، اليمن الجنوبي ، ص ١٣ .

تجار مارسيليا ، وعلى الرغم من احتجاج الباب العالي وضع الفرنسي يده على المكان الذى اشتراه وصار فى سنة ١٨٧٠ مستودع فحم للسفن الفرنسية ، وبعد فترة أراد بازين رابود بيع حقوقه فى الشيخ سعيد ، فعرض على الحكومة الفرنسية شراء حقوقه فيها ، غير أن الحكومة رفضت هذا العرض ، واغتتمت الدولة العثمانية هذه الفرصة فاشتريت الشيخ سعيد ، وبعد ذلك بذلت فرنسا جهودها فى بسط النفوذ فى لأبوك لتعويض الشيخ سعيد ، كما استولت على غوبا وتاجورا فى افريقيا بقيادة المسوولا غاور فى سنتى ١٨٨٤ و ١٨٨٥ م ، (١) وبذلك ظلّت السلطان الانجليزية والفرنسية تسيطران عاليا على حركة المواصلات عبر البحر الأحمر ، خاصة الانجليز الذين انصرفوا الى تأمين حماية عدن ضد الغزوات القبلية والقادمة من الداخل ، الأمر الذى أدى بهم الى توسيع نفوذهم (٢) .

كل ذلك حدث فى وقت كانت فيه الدولة العثمانية عاجزة عن اتخاذ اجراءات حاسمة ضد بريطانيا ان لم تكن القناة قد فتحت ، ونلاحظ أن نشاط الدولة العثمانية برز فى شراء الشيخ سعيد بعد فتح قناة السويس ، لذلك وقع عبء الدفاع على العرب ، ومن ذلك هاجم العرب فى ٢١ مايو سنة ١٨٤١ م برئاسة سلطان لهج عدن وكان عدد القوات مابين أربعة آلاف وخمسة آلاف رجل ، الا أنهم هزموا ، ومنوا بخسائر فادحة (٣) .

-
- (١) جان بيشوفن ، بواعث الحرب العالمية الاولى فى الشرق الادنى ، ص ٧٤ .
(٢) محمد عمر حبشى ، اليمن الجنوبي ، ص ١٣ .
(٣) جاد طه ، سياسة بريطانيا فى الجنوب العربى ، ص ١٣٧ .

وفي الخامس من يوليو سنة ١٨٣٩ قام سلطان العبدلى بالتعاون مع السلطان الفضلى بمحاولة ثالثة لاستعادة عدن ، فتوجه نحو خمسة آلاف من رجاله ناحية أسوار عدن ، إلا أن النيران الانجليزية الموجهة من سفينة حربية كانت راسية على شاطئ عدن بالإضافة الى نيران الحامية ، أدت الى انسحاب العرب بخسارة ثثمائة رجل ، فتجمع العرب في بير أحمد في مكان يمكنهم منه منع أى اتصال بين عدن والمناطق الداخلية ، وبنوا قلعة نوبة الشيخ مهدى وبدأوا سلسلة من الغارات فأحدثت أضرارا كبيرة للتجار ولحاصل المؤن ، ونتيجة لذلك تقدمت قوة انجليزية في ١١ أكتوبر سنة ١٨٤٠ تتكون من ٣٠٠ من الانجليز و ٢٠٠ وطنى وبطارية مدفعية تحت قيادة بينيكويك Penny Quick فتمكنت هذه القوة من تدوير نوبة الشيخ مهدى ، ثم دمرت قلعة الشيخ عثمان ، ثم قام الاسطول الهندى بضرب ساحل الفضلى ، وأدى ذلك الى فتور همة العرب (١) .

ويذكر الشيخ الواسمى " أنه في شهر رجب عام ١٢٦٢ هـ (سنة ١٨١٦ م) خرج شريف من أشرف مكة اسمه السيد اسطعيل وتوجه نحو اليمن ، ولم يزل يدعو الناس الى الجهاد واخراج الفرنجة من عدن فأجابه جماعة من الناس ، ثم وصل الى قرب عدن بنحو فرسخ ولم يزل محاصرا لعدن حتى سم هنالك وتوفى ، وتفرق من كان بمعيته من المجاهدين (٢) ، ولكن في رواية أخرى قصها أحد شهود العيان

(١) جاد طه ، سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٢) الواسمى ، تاريخ اليمن ، ص ١٦٩ .

ونشرها العبدلى ، ثم ان ذلك الشريف جاء معه جيش من عسير وانضم اليه
كثيرون من أهالى لحج وهجموا على الانجليز برغم نقى الطاعون فى الجيش ،
وهجموا على الانجليز فقابلوهم باطلاق المدافع فانهزموا وتفرقوا ، وأن الشريف
ومن بقى من أصحابه توجهوا الى " أبين " ووضح من الروايتين أن هذه الدعوة
لاخراج الانجليز وتحرير عدن من الاجانب غير المسلمين لم تأت الا من الشمال
أى من الحجاز . (١)

وفى ٢٣ يناير سنة ١٨٦٧م عقد الانجليز اتفاقا مع شيخ قبيلة المقرنى
الذى تعهد بالأبيع ولا يرهن ولا يسمح باحتلال أية قطعة من أراضى شبه
الجزيرة المعروفة باسم عدن الصغيرة الا للحكومة البريطانية فى مقابل ثلاثة
آلاف ريال تدفع فورا واثاوة شهرية قدرها ثلاثون ريالا .

وفى ٧ مارس سنة ١٨٦٧م وافق سلطان لحج الشيخ خليفة أحمد عبد الكريم
بالتصريح للانجليز بمد قناة مياه من الشيخ عثمان الى عدن ، وذلك على نفقة
الانجليز ، وأن تبقى القناة فى حماية السلطان . (٢)

لقد اتبع الانجليز سياسة مونة فى جنوب اليمن ، ذات مظاهر مختلفة ،
أولها المعاهدات الولائية والرواتب الشهرية أو السنوية المختلفة باختلاف مكانة
كل أمير ، ومدافع الترحيب والتوديع لمن يجرى الى عدن من السلاطين أو سفراء
منها ، ثم الألقاب والنياشين بالاضافة الى تخصيص الهدايا الموسمية للسلاطين

(١) لعبدلغنى ، اليمن طاضيها وحاضرها ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) جاد طه ، سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، ص ٣٥١ - ٣٥٢ .

والتدخل فى السياسة المحلية عند انتخاب أو تعيين أحد الحكام ، والتحزب
لبيت طامع فى الطك على بيت مالك أو عكس ذلك ، وأخيرا ان كان يصح الاخير
أولا ، المحافظة على استقلال كل سلطان وأمير تحقيقا لمصالحهم ولمصلحة
انجلترا ، وقد عقد الانجليز هذه المعاهدات الولائية مع غالبية السلاطين
والأمراء والشيوخ بعد احتلالها لعدن مباشرة (١) .

كما كان الانجليز يتدخلون فى بعض الاحايين فى شئون أصحاب
المشاهرات ليصلحوا مثلا بين صديقين متخاصمين من أصدقائهم فيورثهم التدخل
مسئولية توجب عليهم الاستمرار ، فيستمررون محكمين ومسيطرين (٢) .

وضح للانجليز أنه يجب للمحافظة على عدن قوة كافية ، وقد يمحزون
عن تأمين ذلك اذا لم يكن لعدن منطقة تشبه الدرع يصونها من هجمات
العرب الذين يحيطون بها من جهات الشرق والغرب والشمال ويحاربون بشراسة
ويعتصمون بالجهال فاتخذوا لذلك سياسة لين تكتنفها شدة ، وبدأت المفاوضات
وابتاع الانجليز من الاراضى ما لم يستطيعوا أخذه بالسياسة ، فتم بذلك للانجليز
الدرع الذى يحتاجون اليه والذى هو عبارة عن خط يمتد من الفندق على البحر
غربا الى دار الامير شمالا ، ومنها شرقا بشمال الى أم المعدة على البحر ،

(١) أمين الريحانى ، طوك العرب ، ص ٤١٨ .

(٢) محمود كامل المحامى ، اليمن شماله وجنوبه ، ص ٢٤١ .

ثم أقام الانجليز في هذه المنطقة الانجليزية الاستحالات العسكرية ونقلوا اليها

الجنود من الهند . (١)

وطى هذا النحو أخضعت انجلترا الامراء المحليين لسلطتها ، بعد أن ضمنت لهم المحافظة على الاستقلال الذاتى التقليدى ضمن حقوق السيادة لسلطات الحماية ، وقد تركت الحكومة الهند أمرا السهر على تلك القوى حيث كانت الرقابة غير المباشرة والفاضة تتم عن طريق سلطات عدن ، وهذه السلطات لم تسمح ولم تعمل على السيطرة على النزعات القبلية بل ذهبت الى اعطاء زعماء القبائل صفة الامارة والسلطنة والمشخة فى ظل السيطرة البريطانية ، (٢) وقد حرصت السلطات البريطانية على التركيب الاجتماعى والسياسى للتنظيم القبلى الموروث عن تفكك الممالك الكبرى التى سبقت الاسلام وذلك بحجة احترام النزعات الاستقلالية المحلية ، وهذا التركيب يحتفظ بأهميته دائما فى منظر الاستعمار طالما أنه يشكل حاجزا فى طريق أجزاء الجنوب العربى ، وأصبحت انجلترا مرتبطة بماهدة ثنائية مع كل من الكيانات السياسية المعترف بها رسميا واللائحة الرسمية فى عدن تشير الى أن عدد هاشانية عشر ولكنها فى الواقع أكثر عددا (٣) ، واتخذ الانجليز فرصة جهل وفقر السلاطين فى السيطرة عليهم وتشيت لكتهم فعقدوا معهم تلك الاتفاقيات ، بعد أن اتخذوا من عدن

مستعمرة فى اليمن

(١) جاد طه ، سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، ص ٣٥٣ .

(٢) محمد عمر الحيشى ، اليمن الجنوبي ، ص ١٧ .

(٣) جان جاك بيرى ، جزيرة العرب ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .

قاعدة للتوسع في جنوب اليمن . (١)

ومحمية عدن تمثل مجموعة من أراض متداخلة متباينة المساحة متشابهة النظم تقريبا والوجود البريطاني لم يمنع استمرار الانقسامات التي كان من نتائجها الصراع الداخلي المستمر (٢) الذي استغله الانجليز لصالحهم ، ولم تشهد عدن أى تحسين في أوضاعها ، سواء على الصعيد الإداري أو الاقتصادي أو الثقافي ، وتبعت عدن الحكومة الهندية في ادارتها مثل سنغافورة ومالاقا ، أما الإدارة في عدن فقد قامت على أساس مركزي ذي طابع استعماري ، وعهد بها الى رجال من حكومة الهند ممن عرفوا بخبرتهم في الإدارة السياسية وهم أوروبيون ومعظمهم عسكريون الى جانب قليل من أصل هندي ، وكان هؤلاء مجرد موظفين ثانويين . (٣)

أما بالنسبة لمعاملة السكان من قبل السلطات الانجليزية ، فقد نوقشت كل الطرق والاساليب الممكن اتباعها ، وكان أكثرها ملائمة للظروف في نظر الانجليز نظرية (فرق تسد) وذلك على اعتبار الامكانيات الحربية التي كانت محدودة ، ان شهر هينس في البداية بأنه ليس له الخيار ، فالامكانيات والامدادات العسكرية التي طلبها لحاقبة على سبيل المثال ، كانت تتأخر أو ترفض ، وقد دافع هينس

(١) أمين سعيد ، تاريخ اليمن ، ص ٢٥ .

(٢) جان جاك بيرى ، جزيرة العرب ، ص ١٨٠ .

(٣) محمد عمر الحبشى ، اليمن الجنوبي ، ص ١٧ - ١٨ .

عن سلوكه بقوله (" اننى أنظم الامور وأقوم باعداد الترتيبات وأجعل القبائل المعادية والمشاغبة تقاتل ضد قطاع الطرق بدون استدعاء الحراب البريطانية)^(١)

أما عن العلاقات التجارية مع البلاد العربية فلم تكن منتظمة ولم يكن فى موارد البلاد ما يغذيها بالنشاط والاستمرار أو يفضى عليها مزيدا من الاهتمام^(٢). وتكمن أهمية عدن بالنسبة لانبطأ فى الدرجة الأولى كسنا فورة ، وجبل طارق فى مركزها الاستراتيجى النابض على الشريان الحيوى للمواصلات بين الجزر البريطانية وامبراطوريتها ، فعند تقف كالحارس الذى يصون الثروة البريطانية الى جانب جبل طارق ، ومالطة ، وهونغ كونغ ، وسنا فورة وصخرة برهم ، فالقوافل والسفن لا تنقطع مامها ، وتعتبر عدن ميناء ومركز لتجارة العبور ، "الترانزيت" ، وتتم بواسطتها أيضا إعادة التصدير والمبادلات العائدة الى اليمن والمحمية وترتبط عدن بالخارج من أجل الموارد الغذائية التى تستورد ها نظرا لقلّة المزارعة ، ويعمل فى عدن أرباب حرف وصيادون وبناءة مراكب من أجل السوق المحلية ، وفى عدن ملاحات متعددة تنتج الطح وهو الانتاج الوحيد^(٣).

كما تستمد عدن أهميتها من وجود مرفئها الذى شهد خلال فترة من

(١) هارولد. ف. ف. عدن وجنوب اليمن فى طوك الحرب ، ص ٤٤ .

(٢) حسين فوزى النجار ، بريطانيا والجنوب العربى ، ص ١٩ .

(٣) جان جاك بيرى ، جزيرة العرب ، ص ١٨٣ .

الزمن مرحلة تثمقر بسبب التقدم الذى طرأ على التجارة البحرية عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وقد رافق الاحتلال الانجليزى قيام ظاهرتين وهى إعادة فتح البحر الأحمر للرحلات المتجهة الى الهند وأستراليا من جهة ، ومرحلة ازدهار التجارة الدولية من جهة ثانية (١) . وهذه الظاهرة سوف تتضاعف وتعطى للبحر الأحمر أهميته القديمة قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، فى أعقاب افتتاح قناة السويس مباشرة .

من هذا العرض نرى حالة غرب الجزيرة العربية قبل افتتاح قناة السويس بالنسبة للدولة العثمانية ، فالأشراف ذوو نفوذ قوى فى الحجاز ، والثورات فى عسير والمخلاف السليمانى ، والتنافس مشتعل بين الائمة الزيدية فى اليمن ، بالإضافة الى التواجد البريطانى فى عدن ، ومعنى ذلك وجود لين هشى للدولة العثمانية بسبب صعوبة ارسال الحملات والمواصلات ، من العاصمة الى غرب الجزيرة العربية قبل افتتاح قناة السويس ، وذلك الوضع الذى سنرى كيف يتغير بعد افتتاح القناة .

(١) محمد عمر الحبشى ، اليمن الجنوبي ، ص ١٣ .

الفصل الثاني

قناة السويس

أ- عودة طريق التجارة العالمية للبحر الأحمر.

ب- أهمية القناة للدولة العثمانية من حيث سياستها العربية.

كان جانب كبير من تجارة الشرق يأتى عن طريق الأراضى المصرية عبر البحر الاحمر وخليج السويس ثم تسير فى طريق برى الى النيل ، ومنها الى شفور مصر على البحر الابيض المتوسط ، ثم تنقل عبر ذلك البحر الى الجزر والمدن الإيطالية ، ومن أهمها البندقية وجنوه ، وكانت هذه المدن تقوم بتوزيع هذه التجارة الشرقية الى بقية أجزاء أوروبا الغربية والوسطى (١) ، ثم تحولت السفن التجارية العالمية ابان التوسع الاوربي الاستعماري الى طريق رأس الرجاء الصالح ، وبعد أن أصبح شق القناة أمرا محتملا لم يكن هناك أفضل من بناء الموانئ فى البحر المتوسط والبحر الاحمر ، لكن الانجليز كانوا يعارضون تنفيذ مشروع القناة وكتبوا كثيرا عن مصاعب هذا المشروع ، لأنهم خشوا من تحول التجارة الأوربية نتيجة شق القناة الى كل من مارسيليا وتاريسا ، ومن ثم تنافسان لندن وليفربول ، الا أن هذا الاحتمال كان بعيد الوقوع نظرا لأن إنجلترا كانت تملك سفنا ضخمة ومنتجات هائلة ، وهذا ما تفتقر اليه مارسيليا وتريستا ، وكان الانجليز يعرفون أن تجارة البحر الاحمر سوف تتضاعف بعد شق القناة ، مما أثار مخاوف إنجلترا ، وذلك لأن القناة سوف تسمح لكل الدول بالتوسع فى الشرق مما يهدد الهند ، وكان معنى عدم شق القناة هو أن الانجليز سيظلون محافظين على مركزهم الممتاز فى تلك الانحاء . (٢)

(١) محمد مصطفى صفوت ، إنجلترا وقناة السويس ، ص ٣ .

(٢) جاد طه ، سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، ص ٢٤١ .

لكن مع بداية القرن التاسع عشر تحدثت الصحف في أنحاء العالم ، عن
الصلة بين البحرين المتوسط والاحمر . وأشارت هذه الصحف الى أن البحر الاحمر
يمتد كقناة طبيعية واسعة نحو الشمال حتى تقابل تقريبا البحر المتوسط ، وأن
الطبيعة في علمها قد خلقت هذين البحرين لتسهيل الاتصال بين أوروبا وآسيا
وأفريقيا ، وتركت لمعقربة الانسان أن توجد الوسائل لاتعام الاستفادة من
تنظيماتها هذه (١) ولذلك بذلت عدة محاولات من شركات بريطانية لتذليل
العقبات التي تعترض وجود خط ملاحى منتظم بين الهند وانجلترا عبر البحرين
الاحمر والمتوسط ، وأثير هذا الموضوع في مجلس العموم البريطانى فى سنة
١٨٣٤م وانتهى النقاش والبحث فى المسألة الى القول بأنه وان كان انشاء خط
ملاحى تجارى عبر البحر الاحمر بين الهند وانجلترا يحل دافعى الضرائب
فى انجلترا عينا أكبر الا أن مثل هذه المواصلات السريعة مع الشرق ستحل كثيرا
من مشكلات الادارة وستخدم المصالح الانجليزية فى الهند ، ولذا قرر المجلس
أنه يجب أن يبتحالا فى مسألة اتصال تجارى منتظم مع الهند عبر البحر الاحمر .
(٢)
وفى فرنسا كانت مقالات ميشيل شيفاليه Chevalier فى جريدة Le GLOBE
فى فبراير تتحدث عن أهمية الطريق عبر البحر الاحمر الى المتوسط ، وتمت
دراسات بدأها فى سنة ١٨٣٤م فورنيل Fournel مهندس المناجم ولم تؤمن

1.Hoskins:British Routs to India p.41

(١)

2.Hoskins:British Routs to India p.125

(٣) بيير رنوفان ، تاريخ العلاقات الدولية ، ص ٣٨١ .

جهود اينفانتن Enjantin لدى محمد على باشا الى نتيجة ما ، لأن محمد على فهم أن هذه القناة ستثير اهتمام العالم بأجمعه ، وتكون بذلك فرصة للتدخل الأجنبي في مصر ، ولكن هذا الحذر لم يلبث ان تهدد حينما تولى محمد سعيد باشا ولاية مصر ، وكانت مصر تدرك أهمية البحر الأحمر كطريق ملاحى ، وأدركت فى الوقت نفسه حقيقة الصراع الذى سيدور حول النفوذ فى هذه المنطقة لو تم شق القناة ، لذلك كانت سياسة مصر منذ أوائل القرن التاسع عشر وفى النصف الثانى منه على وجه الخصوص قائمة على هذا الإدراك الكامل لحقيقة الاوضاع فى هذه المنطقة ، وعمدت مصر - بعد خروج الفرنسيين بحطتهم منها ، واضطرار الانجليز للانسحاب ، وبعد أن استقرت الأمور - الى تنشيط وتأمين الحركة التجارية عن طريق البحر الأحمر ، ان فى سنة ١٨٣٩م أنشئ خط تلغراف بين السويس والقاهرة وأصبح المسافر يستطيع البقاء فى القاهرة حتى تصل البرقية بموعد مفادرة السفينة لميناء السويس ، كما درس مشروع مد خط حديدى من الاسكندرية الى القاهرة ، ثم منها الى السويس لتسهيل أمر التجارة عبر مصر (١) .

(١) شوقى عطا الله الجمل ، البحر الأحمر فى سياسة مصر ، ص ٧ .

ضاعفت الدولة العثمانية جهودها منذ بسطت نفوذها على مصر والحجاز الى تجميد النشاط في البحر الاحمر قدر الامكان ، فحرمت دخول السفن الاوربية الى هذا البحر بحجة أنه يؤدى الى الاطكن المقدسة الاسلامية ، الا أن هذه المحاولة لم يقدر لها النجاح في تجميد الملاحة الدولية ، إذ لم يستمر الاعتماد على طريق رأس الرجاء الصالح على اعتبار أنه طريق طويل ، بينما طريق البحر الاحمر وهو الطريق القصير الذى يوفر من الوقت والجهد والمال ، القدر الكبير ، خاصة التوفير الذى طرأ على الملاحة في البحر الاحمر باستخدام السفن التجارية التى تمخرع باب هذا البحر مما جعل طريق رأس الرجاء الصالح يبدو عقيماً منذ بداية القرن التاسع عشر ، لأنه لم يساير الثورة الاقتصادية ، بالإضافة الى أن العلاقات التجارية والسياسية فى زيادة مستمرة وتستلزم الاتصال السريع كل ذلك وجه الانظار الى هذا الطريق القصير طريق البحر الاحمر ، وفى مقدمة الدول التى ركزت أنظارها على ذلك انجلترا وفرنسا (١) . واستطاع فرديناند دى ليسبس Ferdinand de Lesseps أن يقنع خديوى مصر سعيد باشا وحصل منه على عقد امتياز حفر قناة السويس ، وكان ذلك فى نوفمبر سنة ١٨٥٤م ، وإلى هذا الوقت كان المشروع يخص دى ليسبس دون أن يخطر به الحكومة الفرنسية ، الا أنه بعد ذلك دخل فى اطار السياسة لأن الخديوى احتاج الى تصريح من الباب العالي على اعتبار أن سعيد باشا كان تابعاً للسلطان ، وهنا تدخل

(١) شوقى عطا الله الجمل ، البحر الاحمر فى سياسة مصر ، ص ٣ .

المنافسة بين فرنسا وانجلترا في طور هام ، ففي يناير سنة ١٨٥٥م وافق نابليون الثالث على مشروع القناة ، الا أن هذه الموافقة كانت شخصية ، لأنه لا يربط السيد خول مع انجلترا في حرب ، ولكنه كان يرى أن هذا التحفظ مؤقت ، ان حينما تشترك رؤوس الاموال في المحطة فان المقاومة لابد وأن تختفي .

وفي نوفمبر سنة ١٨٥٨م طرحت الاسهم في الأسواق ، وذلك بطرح أربع مائة ألف سهم ، سلم منها للخدمة ٥٤ ألف سهم ، وحجز منها للمصريين ٢٢ ألفا والباقي طرح منه في الأسواق المالية ومقداره ٣١٤ ألف سهم ، استوعبت الأسواق الفرنسية منها ٢٠٧ ألف ، وزعت بين ٢١ ألف مشترك ، ولم تتقدم انجلترا ولا روسيا ولا النمسا لشراء بعض من هذه الاسهم ، وكان بلمرستون ، رئيس وزراء انجلترا قد نصح أصحاب الاموال الانجليزية بعدم المساهمة في بناء المشروع حتى لا تتمكن الشركة من تجميع الاموال اللازمة لتكلفة المشروع . (١)

وعند ما أثير موضوع القناة في مجلس العموم البريطاني في يونيو سنة ١٨٥٨م أعلن بلمرستون أن قناة السويس سوف تعمل في المستقبل على انحلال الدولة المشتانسية ، وأن السكة الحديدية بين القاهرة والاسكندرية كافية لخدمة مصالح انجلترا أكثر من القناة ، الا أن وزير الخارجية جلاستون بين في الجلسة نفسها عن ضعف هذه الفكرة ، وذكر أن القناة مجرى مائي ، اذا قدر لها أن تقع في يد أية دولة فستقع في يد أقوى الدول البحرية وهي انجلترا ، وطلب من الاعضاء أن ينظروا

(١) بيير رنوفان ، تاريخ العلاقات الدولية ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

الى مشروع القناة لا كمشروع سياسى ولكن كمشروع تجارى قبل كل شىء (١) ، ولمط كان دى لسبس يواجه صعوبات مالية ، فقد اقترح على الخديوى أن تباع القناة لدول أوروبا البحرية ، وكان يأمل من وراء ذلك انقاذ الموقف ، وأن يضمن بذلك أن تصبح القناة على الدوام محايدة ، لكن الباب العالى كان على حق حين أوضح أنه لا يمكن من جهة المبدأ ، اقرار بيع القناة ، أو تكوين ادارة دولية فى أراضى ملك له ، حتى مسيو دى لسبس نفسه لم يكن له الحق فى اشارة مسألة تلك حقيقتها ، فشركة قناة السويس شركة مصرية ، وهى بهذا الوصف خاضعة لقوانين الدولة العثمانية وعاداتها . (٢)

بدأت عمليات الحفر وتخفيف الموقف فى اكتوبر سنة ١٨٥٩م حين وعد نابليون الثالث دى لسبس بالتأييد الا ان انجلترا شجعت فى ديسمبر سنة ١٨٥٩م خطة صحفية تهدف الى زعزعة الثقة فى الشركة واستطاعت انجلترا أن تحصل على فرمان من الدولة العثمانية بوقف الاشغال ، بعد أن اوضحت للباب العالى أن مصر ستتخلى عن الروابط التى كانت لا تزال تربطها مع الدولة العثمانية الا أن دى لسبس استطاع ان يتغلب على هذه الصعاب ، وفى ١٩ مارس سنة ١٨٦٦م وافقت الحكومة الانجليزية على عقد الامتياز بشرط أن يكون الاشراف الذى تمارسه فرنسا على المشروع مجرد اشراف مالى ، وبعد أن انجبت الصعوبات

(١) محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٢٧ .

(٢) شونقليد . هيو . ج ، قناة السويس ، ص ٥٢ .

السياسية قامت الشركة باعطاء دفعة للاشغال بسرعة أكبر ، ووجدت بسهولة
السندات المالية (١) . وعند ما تقدمت عمليات الحفر ، قدرت انجلترا الاخطار
التي تحدث بمصالحها في الهند من جراء بقاء القناة في أيدي شركة في الغالب
أنها فرنسية ، فحاولت أن تدرك هذه الأخطار بسلسلتين من التدابير الفعالة
وبذلك أولا جهودا عظيمة لتقوية مركزها في مدخل البحر الأحمر وسواحل الجزيرة
العربية ، فوسعت منطقة الاحتلال في عدن ، وسيطت حمايتها على النواحي
المجاورة لها واحتلت زيلع وبربر على الساحل الغربي للبحر الأحمر ، وفرضت
معاهدات حماية انفرادية مع أمراء سواحل الجزيرة العربية وشطت هذه الحماية
جميع أقسام حضرموت ، وقطر وعمان والبحرين والكويت وأتبع ذلك بشراء أسهم
مصر سنة ١٨٧٥ م ثم باحتلال مصر سنة ١٨٨٢ م وبذلك كانت خطة بريطانيا
تضمن السيطرة التامة على طريق الهند (٢) ، وكان افتتاح قناة السويس في
١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ م في احتفال كبير يسوده الفخامة البالغة ، وأنفقت الحكومة
المصرية الاموال الطائلة واشترك في الاحتفال عدد كبير من ممثلي البلاد الأجنبية
وأقيمت القصور الفخمة والبيوت الفاخرة لاستقبال الوفود المشاركة ، وفي يوم
الافتتاح سارت ٦٧ سفينة في شكل استعراض بالقناة وفي مقدمتها اليخت
الفاخر الذي أطلق عليه اسم " أوجيني " تكريما لامرأة فرنسا التي كان يحطمها
ذلك اليخت ، واستمرت الاحتفالات عدة أسابيع (٣) ، وبمعنى آخر كان الافتتاح

(١) بيير رنوفان ، تاريخ العلاقات الدولية ، ص ٣٨٣ - ٣٨٤

(٢) ساطع الحصري ، يوم ميلون ، ص ٤٣ .

(٣) جالينيا نيكتينا ، قناة السويس ، ص ٢٢ .

عالميا وله أهميته الكبرى بالنسبة للعالم بدليل حضور غالبية مندوبي الدول الكبرى ، ويذكر شونفيلد . هيو. ج أن البحث الحديث أثبت أن اسماعيل كان يرمى الى هدف آخر من حفلات الافتتاح ، فلم يكن غرضه الرئيسى من اقامة هذه الزينات الا اعلان استقلال مصر استقلالاً تاماً ، وكان قد قضى سنين قبل ذلك وهو يحاول انتزاع استقلاله بمصر من الباب العالي ، ثم قدر أن يستطيع اعلان هذا الاستقلال فى حفلات الافتتاح ، وكان نابليون الثالث محور السياسة الاوربية ، لذلك فكر اسماعيل فى دعوته الى هذه الحفلات حتى يكون اعلان استقلال مصر أمام عاهل فرنسا وممثلى ملوك أوروبا ، وحاول اسماعيل أن يتصل بنابليون ليدعوه الى حفلة الافتتاح وأرسل رسولا ليتصل بالامبراطور ولكن الباب العالي أحس بنوايا اسماعيل فاتصل بنابليون الثالث من الناحية الأخرى ، وقدر نابليون حرج مركزه فلم يقابل شاهين باشا رسول اسماعيل ، وقابلته الامبراطورة يوجينى وقبلت الدعوة نيابة عن زوجها . (١)

وكانت هناك بعض الدول الاوربية ترغب فى مساعدة اسماعيل باشا فى تنفيذ رغبته فملك ايطاليا فكتور أمانييل أرسل سفنه تحت قيادة ولى عهدة الى الاسكندرية ، ونابليون أوعزل زوجته أوجينى عند سفرها بمساعدة الخديوى الا أن الدولة العثمانية وانجلترا اعترضت على تلك المحادثات العبرية ، وشددت

(١) شونفيلد . هيو. ج ، قناة السويس ، ص ٨٨ .

انجلترا على ذلك ، حتى التزمت ايطاليا بارجاع الأساطيل من ثغر الاسكندرية
ظلم تحضر الاحتفال بافتتاح قناة السويس ، وذلك تكون فكرة الاستقلال عن الدولة
المحطانية قد ضعفت لدى اسماعيل . (١)

وبافتتاح قناة السويس أصبحت هذه القناة جزءا من جغرافية العالم
الطبيعية والسياسية ، فقد وصلت بين قارتين وأصبحت من الشئون الدولية
الهامة (٢) ، واعتبرت من أهم المجارى المائية البحرية فى العالم ، إذ ربطت
بين الشرق والغرب ، وأحكمت الصلة بينهما ، وأصبحت أقصر وأقرب طريق للدول
الاوربية ومستعمراتها فى الشرق (٣) ، وأجمعت الدول الاوربية عند افتتاح
القناة على أن هذا العمل الذى نجح أخيرا سيكون عالميا فى الفوائد التى
سيمود بها على الناس ، وطلق مستر Brace قنصل انجلترا فى مصر أن شق القناة
قد أدى الى زيادة المواصلات التجارية بين أوروبا والبلاد الواقعة على البحر
الاحمر ، وأن مراكز الدول الاجنبية سوف يزداد فى هذه البلاد ، ومن المنتظر
أن تقع منازعات بينها وبين تلك الشعوب ، وحينئذ يمكن اتخاذ القناة للمتدخل
المسلح فى شئونها . وهذا التدخل يقضى على الاحتلال الدائم وأن هذا

(١) اسماعيل سرهينك ، حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٧١٨ - ٧١٩

(٢) شونفيلد هيو ج ، قناة السويس ، ص ٥١ .

(٣) محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٤٥ .

يتوقع في مصر ذاتها (١) ، وكتب إيرل كلارندن Eral Clarndan وزير الخارجية البريطاني الى دى لسبس خطابا قال فيه " ان الافتتاح الموفق الذى أصابته قناة السويس قد استقبله العالم أجمع بالرضى ، وانى ان يكون لى الشرف بأن أهنئكم وأهنئ الأمة والحكومة الفرنسية على اهتمامها بمشروعكم اهتماما عميقا لم يتزعزع فانى أعلم أننى أمثل عواطف أبناء بلدى تمثيلا صادقا ، وعلى الرغم من العقبات المتعددة الاشكال التى كان عليكم أن تجاهدوها ، فقد لقيتم أخيرا نجاحا عظيما جزاء وفاقا على عزمكم الصادق الذى لم يعرف الكلل وانى لأجدنى مخلصا فى سرورى ان أقوم بنقل تهنئات حكومة جلالة الملكة اليكم على انشاء طريق جديد للمواصلات بين الشرق والغرب وعلى الفوائد السياسية والتجارية التى تتطلع اليها بثقة نتيجة لجهوداتكم " . (٢) .

وفى الوقت الذى افتتحت فيه قناة السويس كان هناك ما يسمى بالانقلاب الصناعى ، نتيجة لهذا بدأ احتياج دول غرب أوروبا الى المواد الخام اللازمة للصناعة والمتوفرة فى مستعمرات الشرق ، كذلك رغبة دول غرب أوروبا فى ايجاد اسواق لتصريف منتجاتها الصناعية ، فضلا عن استثمار رؤوس الاموال فيها بجانب الرغبة فى الهجرة نتيجة لازدياد عدد السكان ، كما صاحب التطور الصناعى تطور فى صناعة

(١) احمد رشدى صالح ، قناة السويس ، ص ١٩ .

(٢) شونفيلد . هيو . ج ، قناة السويس ، ص ٤٩ .

السفن ، وكذلك وسائل المواصلات الاخرى ، كالسكك ، نتيجة لاستخدام البخار في تشغيل الآلة (١) . وترتب على ذلك كساد في الانتاج الصناعى لصعوبة تصريف ما يفيض عن الاستهلاك المحلى ، وفكرت الدبلوماسية الاوربية في البحث عن مستعمرات جديدة في آسيا وافريقيا لانتهاء تلك الازمة ، وفى هذا المجال كانت بريطانيا التى سبقت غيرها في استخدام الآلات ، وأمكنها فى سنة ١٨٧٠م أن تصرف نصف الناتج من الصلب فى العالم وثلاثة أضعاف ما أنتجته أية دولة أخرى ، ومثل هذه النسبة تفوقت فى المصنوعات القطنية ، وتجاوزت تجارتها الخارجية ضعف ما بلغت التجارة الخارجية لأى بلد آخر (٢) ، وتعرض عن كل ذلك اشتداد روح المنافسة بين دول غرب أوروبا ، واتسم هذا التنافس فى بادئ الأمر بالطابع الاقتصادى ، وسرعان ما تغلبت عليه النزعة الاستعمارية كما ذكرت نتيجة للتيارات السياسية التى كانت تموج بها القارة الاوربية فى ذلك الوقت (٣)

وان كان الهدف من شق قناة السويس هو تصريف البضائع والمصنوعات الاوربية فى أسواق الشرق واستيراد المواد الخام فان القناة تكون فى خدمة المصالح العالمية ، واذا رغبت فرنسا فى سوق لمنتجاتها فى شرق البحر المتوسط لتمهد بها التجارة الانجليزية فعليها - أى فرنسا - أن تنمى هذه السوق ،

(١) عبد الرؤوف احمد عمرو ، قناة السويس فى العلاقات الدولية ، ص ٣٢ .

(٢) د . مصطفى الحفناوى ، قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ، ص ١٧ .

(٣) عبد الرؤوف احمد عمرو ، قناة السويس فى العلاقات الدولية ، ص ٣٢ .

وذلك بأن تعيد لمصر رفاهيته وتجعلها بابا الى الشرق ومنقذا لضرب
بريطانيا في الهند ، وبذلك تكون مصر قد ربطت مصيرها بالتطور الاقتصادي
العالمي ، وبالتالي فان كيان مصر يتأثر بشدة ، وتلك تؤثر في العالم كله أكبر
الأثر وأعماقه ، وذلك هو الانقلاب الصناعي الذي مربنا آنفا . (١)

كانت أسواق الهند في السنوات الاولى من افتتاح القناة ، في المقام
الاول من حيث استغلال الدول الصناعية لها ان كانت الحمولة الذاهبة اليها
ومنها عبر القناة أكبر بنسبة ط من غيرها ، ثم تغيرت هذه النسبة ، ان تضاعفت
شيئا فشيئا وحلت محلها التجارة مع الصين واليابان ، ودول الشرق الاقصى ،
وهذا التطور يرجع الى تطور الاستعمار وانتشار حلقة ، وارتباطه بالسياسة
الدولية ونموها . (٢)

أما أهمية القناة بالنسبة لانجلترا فقد كانت أهمية كبيرة تزداد مع مر السنين
وجاء شق القناة بالنسبة لها ولا مبراطوريتها وتجارتها حدثا هائلا كأكبر دولة
بحرية استعمارية ظهرت في العالم ، ان يمتاز هذا الطريق بأن انجلترا تستطيع
ببحريتها المتفوقة حماية تجارتها وسفنها ، ومنذ الافتتاح أصبح الى حد كبير
تحت رحمة القوة البحرية الانجليزية ، خاصة بعد الكارثة السياسية والبحرية التي
منيت بها فرنسا في الحرب السبعينية وبذلك لم تعد أهمية القناة في نظر انجلترا

(١) احمد رشدي صالح ، قناة السويس ، ص ١٢ .

(٢) احمد رشدي صالح ، قناة السويس ، ص ٢٥ .

قاصرة على وقت السلم ، بل كذلك في وقت الحرب إذ أصبحت القناة الطريق الرئيسى لمرور السفن والقوات والمعدات الحربية الانجليزية الى شرق افريقيا والشرقين الاوسط والاقصى واستراليا ونيوزلندا ، كما أصبحت القناة الطريق الرئيسى لمد نفوذ بريطانيا وسلطانها في شرق العالم وفي آسيا . (١) وقامت على ذلك الاستراتيجية الدفاعية للإمبراطورية .

سعت إنجلترا بعد ذلك للحصول على أسهم القناة ، حتى حصلت على نصفها تقريبا ، مما أدى الى اند طال الجراح القديمة بين فرنسا وإنجلترا والتي كانت بسبب المسألة المصرية ، فأعلن كليمنصو في خطابه في المجلس النيابى الفرنسى المنعقد في يونيه سنة ١٨٨٢ م * ان بريطانيا وفرنسا تشتركان في مصلحتين (٢) رئيسيتين أولهما حرية قناة السويس ، وثانيهما ادارة الشؤون المصرية ادارة صالحة . بعد ذلك تطور الموقف فكان الاحتلال الانجليزى لمصر وسيطرتها على قناة السويس سنة ١٨٨٢ م ، وساعد استعمار السيطرة الانجليزية على قناة السويس ، بالرغم من اتفاقية القسطنطينية سنة ١٨٨٨ م ، بشأن حرية الملاحة فى القناة ، على جعل القناة من أهم عواطف المنازعات الاستعمارية ، وزاد حادى فاشود سنة ١٨٩٨ م من حدة النزاع بين المتنافسين الرئيسيين فى مصر ، إنجلترا وفرنسا ، حتى أصبحت

(١) أحمد مصطفى صفوت ، إنجلترا وقناة السويس ، ص ٤٢-٤٣ ، عبد الرؤوف

أحمد عمرو ، قناة السويس فى العلاقات الدولية ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(٢) شونفيلد . هيو . ج ، قناة السويس ، ص ٥٥ .

انجلترا على وشك الحرب مع فرنسا . واستمر هذا التنازع يتصاعد طوال السنوات التالية حتى تم توقيع الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا سنة ١٩٠٤ م (١) . ونتيجة لافتح قناة السويس فقد اهتمت الحكومة المصرية بانشاء خطوط بريدية لتربط بين الموانىء ، كما افتتحت مكاتب بريد فى كل ميناء على البحر الاحمر ، وأدركت الحكومة أهمية نظام البريد ، فكلفت الشركة العريضة بتخصيص سفينة تتحرك كل ثلاثاء من السويس الى جدة ، بينما تقوم أخرى من سواكن ومصوع حاطة البريد الى جدة ومنها الى مصر . (٢)

ونتيجة لعودة طريق التجارة العالمية الى البحر الاحمر ، نشطت الحركة فى ميناء السويس ، بعد أن أتم بناءه اسطغيل ، وكان سعيد قد بدأ بناءه ففى سنة ١٨٥٦ م ، وأصلح الطريق بين السويس والقاهرة ، وتم ايضاله بالخط الحديدى السويس - القاهرة - الاسكندرية ، وبعد مزاوله الشركة المجيدية نشاطها فى البحر الاحمر ، وأصبح ميناء السويس هاماً للخطوط الملاحية فى البحر الاحمر ، وكانت شركة ديبير الفرنسية قد قامت بتوسيع ميناء السويس واصلاحه ، واقامة حاجز حجرى لصد الامواج وتأمين السفن ، وانشىء حوض عائم لصلاح السفن بالميناء كما أنشئت عدة فنارات لهداية السفن ، وبعد افتتاح قناة السويس أصبح للميناء مركز خاص لأنه مدخل القناة التى تربط بين بحرين من أهم البحار ، وهما

(١) جالينا نيكتينا ، قناة السويس ، ص ٣٦ .

(٢) شوقى عطا الله الجبل ، البحر الاحمر فى سياسة مصر ، ص ١٩ .

الميناء حركة السفن فى القناة وأخذت الأهمية والمناية تزداد يوما بعد يوم بازدياد الملاحة فى القناة ، كما نشطت الحركة فى ميناء القصير على البحر الاحمر ، وهو يواجه قنا على النيل ، وتضيق المنطقة الصحراوية التى تفصل بينهما ويوصل بين القصير والنيل وديان معروفة ، ولهذا الميناء أهمية خاصة فى أوقات الحج ، ويقابل هذا الميناء على الساحل الشرقى للبحر الاحمر ميناء الوجه من ثفور جدة ، وفيه أقيم فئار لهداية السفن ، أما ميناء برنيس ، فيقع قرب رأس لباس على البحر الاحمر وتقابل على النيل تقريبا مدينة اسوان ، وقد اهتمت الحكومة بتعمير الطرق البحرية التى توصل بين قنا والقصير وبرنيس وسواكن ، وربطت بخطوط تلغرافية ، كما اهتمت الحكومة المصرية بميناء سواكن باعتباره ميناء السودان الرئيسى من جهة البحر وعن طريقه يمكن تنظيم اتصال مصر بالسودان . واهتمت الادارة المصرية باصلاح وترميم مرسى السفن بها ، كما اهتمت بربط سواكن باجزاء السودان الاخرى بخطوط تلغرافية ، ويحت مشروع مد خط حديدى من سواكن الى بربرة ومنها الى شقرى وعندما زادت الحركة فى ميناء سواكن عين ضابط بحرى لمراقبة السفن وحفظ الامن وتطبيق القوانين البحرية بالميناء ، وأنشئت المخازن لحفظ البضائع الواردة والصادرة وصيانتها حتى يتم التعرف عليها . كذلك ازداد هر ميناء طوكر وميناء عقيق اللذان يقمان جنوب سواكن ولما زادت أهمية طوكر كميناء بحرى عين لها مأمور خاص (١) . واهتمت الحكومة

(١) شوقى عطا الله الجبل ، البحر الاحمر فى سياسة مصر ، ص ٢٥-٢٧ .

اسماعيل باشا بميناء الاسكندرية ان قامت بتوسيعه واقامة حوض عائم من الحديد سنة ١٨٦٨ م ، وأقيم لها جز ضخمة لصيانة السفن والميناء من الامواج والعواصف كما انشئت عدة أرصفة للشحن والتفريغ ، وكان من الاعمال التي ساعدت في تسهيل حركة الملاحة للسفن في البحرين المتوسط والاحمر ، انشاء الفنارات على سواحل البحر الاحمر والبحر المتوسط وخليج عدن ، حتى بلغ عددها خمسة عشر فناراً ،^(١) أما الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية فقد استمر يحتل أهميته بمسألة افتتاح القناة ، وتحول الطريق الرئيس للملاحة اليها بسبب اشرافه على طريق الهند وسيطرته على المنفذ الجنوبي للبحر الاحمر ، مما جعل انجلترا تحرم على حماية نفوذها فيه ، وبسط حمايتها على جميع أجزائه (٢) فميناؤه عُد من ازادات أهميته مع استخدام السفن التجارية ومع افتتاح قناة السويس ، وكان موضوع حماية الميناء يعتبر من أهم المهام في نظر الانجليز ، ومن ثم عطلوا على تقوية منشآته وتزويد جزيرة بريم بالمدفعية . أما الحركة في قناة السويس فقد أخذت في الازدياد سنة بعد أخرى ، فمثلاً في شهر أغسطس سنة ١٨٧١ م عبرت ٦٠ سفينة تحمل ٦٥٣٧٠ طن ، بينما عبرت في نفس الشهر سنة ١٨٧٢ م ٨٢ سفينة تحمل ٩٥٢٣٢ طن وكانت السفن الانجليزية هي أكثر السفن العابرة ، ان بلغ عددها ٥٥ سفينة منها ٦ سفن بخارية ، وسفينة واحدة فرنسية عادية ، و ٦ سفن ايطالية

(١) سيد رجب حراز ، المدخل الى تاريخ مصر الحديث ، ص ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٢) حسين فوزى النجار ، بريطانيا والجنوب العربى ، ص ٣٧ .

منها ٣ سفن بخارية ، و١ سفن عثمانية ، و ٣ سفن برتغالية ، وسفينتان ألمانيتان ، وسفينة أسبانية ، وسفينة سويدية وأخرى مصرية ، ومن ذلك يتبين أن القناة أصبحت ممرًا عالميًا وأن أكثر السفن تحمل الجنسية الانجليزية على اعتبار أنها دولة استعمارية وصاحبة أكبر أسطول بحري ، لذلك كان يهمها أمر القناة أكثر من أية دولة أخرى ، أما السفن العثمانية الأربعة ، فكان منها ثلاث تابعة للحكومة ، واتجاهاتها من بيروت إلى القنفذة ، وأخرى من جدة - إسطنبول ، والثالثة من البصرة - إسطنبول . (١)

وهكذا بعودة طريق التجارة العالمية للبحر الأحمر دبت الحياة من جديد في هذا البحر ، وبعودة التجارة العالمية ازدهر هذا البحر وقامت الموانئ في الجديدة على شاطئيه الشرقي والغربي ، وازدهرت الموانئ القديمة وازدادت أهميتها كميناء جدة وعدن والمخا والسويس ، واهتمت الدول الأوروبية بهذا البحر وأخذت تبحث عن نقاط استراتيجية لتتمركز فيها ، وأصبحت منطقة البحر الأحمر منطقة صراع عالمي ، كما أن عودة التجارة للبحر الأحمر كان له الأثر الطيب في أوروبا إذ أخذت السلع تنخفض قيمتها الشرائية كما كانت هناك أيضا حركة انتعاشية في موانئ البحر الأبيض المتوسط .

أما أهمية القناة للدولة العثمانية من حيث سياستها البحرية ، فينبغي أن نشير هنا بإيجاز الى أن عمرو بن العاص كان قد استأذن الخليفة عمر بن الخطاب في عام قحط الحجاز والمسي عام الرمادة ، في توصيل البحرين الأحمر والأبيض المتوسط ، فأذن له بإعادة شق التربة القديمة وسطها خليج أمير المؤمنين ، وجرت فيها سفن الميرة الى الحجاز وظل الحال على ذلك حتى عهد أبي جعفر المنصور العبّاسي الذي أمر بربدها سنة ١٤٥ هـ الموافق سنة ٧٧٠ م حتى لا تنقل الميرة الى محمد بن عبد الله بن الحسن الخارج عليه في الحجاز (١) ، توقف بعد ذلك نقل السلع عبر هذه القناة ، وأصبحت التجارة تنقل بالبر الى البحر المتوسط ، وذلك بعد قدومها من الشرق الاقصى عن طريق البحر الأحمر ، واستمر الحال على ذلك حتى تحولت التجارة الى طريق رأس الرجاء الصالح وأقفل طريق البحر الأحمر ، مما أدى الى كساد التجارة في هذه المنطقة ، بالإضافة الى ركود الحياة فيها ، وقلة النشاط البحري كما أشرنا من قبل وضعف سلطان الدولة العثمانية على الجزيرة العربية وعلى الاخص الطرف الغربي منها ولذلك يعتبر انشاء قناة السويس سنة ١٨٦٩ م بالنسبة للدولة العثمانية ، حدثا هاما بالنسبة لأهمية شبه الجزيرة ولا سيما الحجاز ، (٢) ، وكان غرب الجزيرة العربية والحجاز لها أهمية بالغة بالنسبة للدولة العثمانية على اعتبار الموقع الممتاز خاصة بعد عودة

(١) عمر الاسكندري ، وسليم حسن ، تاريخ مصر من الفتح العثماني ، ص ٢٠٩ .

(٢) هارولد ف ، عدن وجنوب اليمن في طوك الحرب ، ص ٧٤ .

التجارة العالمية اليه ، فوجود اليمن فى جنوب غربى شبه الجزيرة العربية جعله منطقة دفاع هامة عن حدود الدولة العثمانية من الجنوب ، وقد أدى هذا الى اقتناع العثمانيين بأن سيطررتهم على اليمن تجعلهم يضمنون سلامة الاماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز ، وقد تضاغت أهمية موقع اليمن وخطورته بتحول التجارة العالمية الى طريق البحر الأحمر عبر القناة ، أما الحجاز فأهميته تكمن للدولة العثمانية أنه يضم الاراضى المقدسة ، لذلك كان السلطان العثمانى ألام أعين المسلمين حاميا للأراضى المقدسة ، ويرون فيه الحاكم المسلم الذى يجب أن يطيع أو امره كل مسلم على وجه البسيطة ، من ذلك تظهر الدولة العثمانية ذات أهمية كبرى تخشاها بقية القوى الكبرى فى العالم ، هذا ومن جهة أخرى أرادت الدولة العثمانية أن يكون لها مناطق نفوذ على البحر الأحمر ، الذى أخذت الدول الاستعمارية تزاخم فى اقتناء مناطق نفوذ لها فى هذه المنطقة الحيوية من العالم ، أعنى البحر الأحمر .

وكان افتتاح القناة وازدهار الحياة الاقتصادية فى موانيه ، وخصوصا الموانىء الغربية سببا فى أن الدولة العثمانية أخذت تستفيد من الرسوم التى كانت عائدة من وقوف السفن فى تلك الموانىء ، ثم وجهت الدولة العثمانية بعد ذلك اهتمامها للبحر الأحمر ، الذى أصبح أهم طريق للمواصلات بين الشرق والغرب وإلى مناطق الجزيرة العربية المطلة على هذا البحر ، وخاصة اليمن التى تشرف على مضيق باب المندب فى جنوبه ، وقد أكدت قناة السويس للعثمانيين ضرورة إعادة فرض

سيطرتهم الفعلية على اليمن بعد أن تضاعفت أهمية موقعها وخطورتها اثر تحول التجارة العالمية الى طريق القناة ، بل ان هذا البحر الأحمر الجديد يسرر للأسطول العثماني العبور الى البحر الأحمر والخليج العربي ، ووصل ميناء الاستانة بموانئ الجزيرة العربية مباشرة ، وبذلك سهلت عطيات توصيل القوات والامدادات العسكرية في أقصر وقت ممكن الى بلدان الجزيرة العربية (١) ، كما ساعدت قناة السويس العثمانيين على تدبير الشؤون العربية عن كثب ، وذلك انطلاقاً من قاعدتهم بالحجاز ، حيث رتبوا خططهم للتغلب على اليمن وعسير (٢) ، كما كان فتح القناة عاملاً هاماً ، أعان الدولة العثمانية على تشديد قبضتها على شؤون الحجاز والتدخل المستمر في شؤون الشرافة ، إذ ان الافتتاح كما أوضحنا أوجد طريقاً مائياً مباشراً بين الاستانة وكل من الحجاز واليمن ، وهما من الولايات العثمانية الواقعة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر ، كما زادت قدرة الدولة من بسط وتأكيد سيطرتها على الاجزاء الغربية من شبه الجزيرة العربية ، وكان الموقف العسكري قبل فتح القناة صعباً ، لأن الدولة العثمانية كانت تستخدم الطريق البري لتسلح قواتها المسلحة عبر الصحراء الى الحجاز وعسير ، وكانت هذه القوات تصل في حالة اعياء شديد ، بعد أن تكون قد فقدت الكثير من الضحايا بسبب الاهوال التي تلاقىها أثناء السير عبر الصحاري والفيافي الطويلة ، وكانت في بعض

(١) فاروق اباظه ، الحكم العثماني في اليمن ، ص ٨٣ .

(٢) هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن في طوك العرب ، ص ١٦ .

الاحيان تصل متأخرة وبعد فوات الأوان ، لكن بافتتاح القناة تبدل الامر وأصبح
فى وسع الدولة أن ترسل بحرا ومباشرة حاميات عسكرية جديدة الى الحجاز وموئنا
وامدادات عسكرية الى جيوشها باليمن ، وعلى ذلك فان فتح القناة أدى الى دعم
سيطرة الدولة على إقليم الحجاز (١) ، وقد رأينا فيما سبق كيف كان السلطان
العثمانى يستعين بالوالى المصرى فى ارسال القوات الى اليمن التى كان يمدّها
فى ميناء السويس ، وكانت الدولة العثمانية قد لجأت الى والى مصر اسطعينا
للاستعانة به فى اخضاع ثورة الحسريين ضد العثمانيين فى اليمن ، حتى لا تخرج
عسيرانها عن حظيرة الدولة العثمانية ، وأعد والى العثمانى فى مصر حملة
قوامها ٤٤٤٤ ، وأبحرت هذه القوة من ميناء السويس فى ٣ يونيه سنة ١٨٦٤ ،
من ميناء السويس متجهة الى جدة ومنها الى شمال اليمن وتشبه هذه الحركة
استعانة السلطان العثمانى بمحمد على للتصدى لدعوة التوحيد والاصلاح (٢)

ولكن بعد افتتاح القناة يستطيع السلطان العثمانى ارسال قواته من
العاصمة الاستانة دون الاستعانة بالوالى المصرى أو غيره ، كما حدث فى الفتح
العثمانى الثانى لليمن سنة ١٨٧٢ م وبعبارة أخرى فقد كان فتح القناة للملاحمة
العالمية عاملا هاما فى سهولة وسرعة الاتصال بين الاستانة والحجاز واليمن وهما

(١) فائق بگر صواف ، العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز ، ص ٩٤ .

(٢) فاروق اباطه ، الحكم العثمانى فى اليمن ، ص ٧٠ .

من الممتلكات العثمانية ، ولأول مرة تتصل الحكومة اتصالاً بحرياً مباشراً بهاتين
الولايتين العربيتين وهما الحجاز واليمن ، وأصبح في مقدور حجاج تركيا
استخدام السفن في السفر من الموانئ التركية إلى موانئ الحجاز مباشرة (١) ،
هذا وقد أثر افتتاح قناة السويس على الدولة من ناحية أخرى ، إذ أنه عند ما
استوى السلطان عبد العزيز على عرش السلطنة (١٨٦١ - ١٨٧٦ م) زاد الاهتمام
بالبحرية ، فأصلح دار صناعة السفن ، وأنشأ لها حوضاً عائماً ، وفتح مدرسة
للفنون البحرية ، كما تعاقد مع عدد من معاطل أوروبا على صناعة مجموعة من السفن
البحرية الحديثة بالإضافة إلى ما كانت تصنعه دار الصناعة في الأستانة ، على أن
هذا الاهتمام لم يستمر في عهد السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ - ١٩٠٨ م) ،
ويقال أنه تأثر حين شاهد أن هذه القوات شاركت في الخروج على عمه عبد العزيز
يوم خلعه ، وحاصرت قصره من ناحية البحر ، لذلك أهمل الأسطول ، وجعل مقره
بعيدا عن البحر في بلديز ، كما حظر على هذه السفن الخروج للمناورات ، ولم
يسمح بإنشاء غير طرادين وعدد من النسابات ، كلفت الخزينة الكثير (٢) .

وقد أدرك السلطان عبد العزيز أهمية القناة وذلك أثناء الحفر وقبل
الافتتاح ، فزار مصر ليؤكد مجدداً سلطة الدولة العثمانية على هذا الإقليم ،

(١) فائق بكر صواف ، العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز ، ص ١٠٥ .

(٢) محمد جميل بيهم ، فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٤٦ .

وكانت الزيارة في شهر ابريل سنة ١٨٦٣ م (شوال سنة ١٢٧٩ هـ) ، ونزل
بالاسكندرية ، ثم ذهب الى القاهرة ، ونزل في ضيافة الخديوى اسماعيل عشرة
أيام لقي فيها الحفاوة البالغة مما جعل لاسماعيل منزلة كبيرة عنده . وكان
السلطان عبد العزيز هو السلطان العثماني الذي جاء مصر زائرا بعد السلطان
سليم الذي دخلها فاتحا ، ولذلك كانت هذه الزيارة تكريما وتعظيما لشأن اسماعيل
الذي اغتتم الفرصة واستغل المنزلة التي نالها ليكسب من الدولة العثمانية
حقوقا ومزايا جديدة واستخدم المال وبذله بسخاء ، ففخر السلطان وحاشيته
بالهدايا والتحف الفاخرة وملأ سفينة بأكلها وقدم الهدايا الى الأعظم فؤاد باشا
ليتخذ منه عوناً له في مساعيه لدى الحكومة العثمانية ، وعاد السلطان عبد العزيز
من زيارته مفتبطاً مما لقيه من الاكرام ، ومهدت الزيارة الطريق أمام اسماعيل لنيل
رغباته (١) ، وكان السلطان عبد العزيز يريد ارضاء اسماعيل وذلك من خلال
الامتيازات الممنوحة له بموجب فرمانات ، خوفاً من انسلاخ هذا الاقليم من الدولة ،
والذي سيصبح في المستقبل طريقاً هاماً للولايات العثمانية في الجزيرة العربية .

على أن سلطة الدولة العثمانية في شبه الجزيرة العربية لم تقو الا في سنة
١٨٧٠ م ، وقد مهدت لذلك عوامل مختلفة لأن فتح قناة السويس سهّل للأسطول
العثماني الالتفاف حول شبه الجزيرة العربية للوصول الى الخليج العربي (٢) .

(١) عبد الرحمن الرافعي بك ، عصر اسماعيل ، ج ١ ، ص ٧٨ - ٧٩ .

(٢) د . صلاح الصفا ، التيارات السياسية في الخليج ، ص ١٨٣ .

ومفضل التسهيلات التي أتاحتها قناة السويس ، تمكنت الدولة العثمانية كما ذكرت سابقا من ارسال قوات كبيرة الى اليمن لاستعادة نفوذها فيه واقامة حكم عثماني فعال ، وإذا قارنا بين الحملة التي أرسلت في سنة ١٨٤٩م أى قبل افتتاح القناة وبين الحملات التي تلت افتتاح القناة فاننا نجد الفارق الهائل الذي يوضح أهمية القناة فحملة سنة ١٨٧٢م كان عددها أكبر من سابقتها (١) وكان على رأسها القائد أحمد مختار ، الذي جهز بجيش كامل يعرف بالفيلق السابع لاعادة السيطرة على اليمن (٢) ، لأن الدولة العثمانية كانت مقسمة الى سبع مناطق عسكرية ، وكان في كل منطقة منها جيش يسمى بالاوردي أو الفيلق ، ويتكون الفيلق من أربع فرق ، وثمانى لواءات ، و ١٦ ألفا ، ٦٤ اورطة ، ٢٥٦ بلوكا وكل فيلق من هذه الفيلقات ما عدا السابع يتكون من جنود منتظمة يتمركزون زمن الحرب ، وذلك مثله مثل الجيش الاحتياطي الاستراتيجي ، ويشتمل كل فيلق على جيش نظامي وآخرين من الرديف ورابع من المستحفظين ، وفي زمن السلم يكون بكل جهة من جهات الفيلقات المذكورة جيش من النظاميين " أى الجند المنتظمة " وأربع فرق من بيادة الرديف ، وما عدا هذه الاورديات - الفيلقات - السبعة ، فان بلاد كريت وطرابلس الغرب ، والحجاز ، تحتلها جنود عديدة ليست داخلية ضمن الفيلقات السبعة ، وكل فيلق يشتمل أيضا على فرقتين من المرتجلين بكل واحدة أورطة ، وأربعة الايات من الرجال ، وفرقة من السوارى بها ستة الايات ، وفرقة من الطوبجية

(١) جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، ص ١٣٣ .

(٢) محمد يحيى الحداد ، تاريخ اليمن السياسي ، ص ٣٥٠ .

وتشتمل على عدة بطاريات راکبة ، وستة الايات مكونة لثلاث لواءات ^١ وورطة
مهندسين حربية وبلوك للبرقيات . (١)

وقد سبق أن أشرنا الى أن الحملات العسكرية التي أرسلت لاختصاص
عسير واليمن قبل افتتاح القناة كان يستعان فيها بالخدوي في مصر وأبالشريف
بحكة في اعدادها وتوطينها ، وقد مر بنا ذلك في الفصل الاول على أنه منذ
سنة ١٨٧٠م فصاعدا ، أصبح في وسع الدولة العثمانية أن ترسل على عجل الموءن
والامفادات العسكرية الى جيوشها باليمن عبر قناة السويس ، وبوكد صحة
ذلك أنه في سنة ١٨٧٢م استطاع العثمانيون أن يغزوا اليمن من جديد دون
مساعدة شريف مكة ، ودون الاعتماد كلية على الوالى في مصر ، كذلك ساعدت قناة
السويس الدولة العثمانية في محاولاتها على القضاء على مساوىء الادارة العثمانية
في اليمن وتطبيق القانون الصادر في سنة ١٨٦٤م بشأن تنظيم حكم الولايات
كما قربت قناة السويس المسافة بين الساحل الغربى لشبه الجزيرة وبين الاستانة
فشجعهم ذلك على محاولة تشديد قبضتهم على الحجاز واليمن (٢) ، كذلك
جهزت الدولة العثمانية حملة عسكرية قوامها عشرون الف جندي ، تحطها السفن
الحربية بقيادة محمد رديف باشا ، وأحمد مختار باشا ، وذلك عندما غار الأمير
المسيري محمد بن عائض على الحامية العثمانية بالحديدة ، كما قامت قواته بأعمال

(١) اسماعيل سرهنك ، حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٧٦٧ - ٧٦٨ .

(٢) سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية ، ص ١١٤ ، ٨٥ .

وحشية ضد الاهالى فى تهامة اليمن ، ووصل رديف باشا القنفذة أحد الموانىء
فى غرب شبه الجزيرة العربية ، وأخذ فى الاستعداد للوثوب على الاهلين فى
عسير ، ثم باشر عطفه فى عسير ، حتى أقر الامن فيها وقمع الفتنة ، (١) ويلاحظ
هنا مدى استفادة الدولة العثمانية من قناة السويس فى سرعة اخماد الفتنة
والاضطرابات ، التى تقوم فى أجزاء الدولة وقامت هذه الحملة سنة ١٨٧٢ م ،
ووصلت القنفذة فى شوال سنة ١٢٨٨ هـ .

الا أنه يلاحظ منذ بداية التدخل العثماني فى منطقة جنوب الجزيرة
فى سبعينات القرن التاسع عشر أن أصبح النفوذ الانجليزى مهددا تهديدا
خطيرا ، مما جعل انجلترا تعمل على تغيير المعاهدات الولائية الى حمايات
فرضتها على الرؤساء العرب لابعاد النفوذ العثماني عن عدن (٢) .

مما عن اهتمام الحكومة المصرية بشئون البحرية على اثر بناء قناة السويس
فقد كان سعيد باشا عازما على اصلاح البحرية ، الا أن انجلترا كان يهملها ألا
تنهض قوات مصر البحرية ، فسعت لدى الدولة العثمانية لتمنع تجديد الاسطول
المصرى ، وأوهمت السلطان أن تقوية الاسطول المصرى فيه تهديد للعثمانيين
وسياذتهم على مصر ، فأصدر السلطان أمره لسعيد بألا يقوم باصلاح سفن الاسطول

(١) هاشم سعيد ، تاريخ عسير ، ص ٢٠٩ .

(٢) جاد طه ، سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، ص ٣٥٤ - ٣٥٥ .

وَألا ينشئ ولا يشتري سفنا جديدة إلا بأمره ، وكانت إنجلترا تهدف من وراء ذلك أن لا يكون هناك منافس لسيادتها البحرية في البحر المتوسط والبحر الأحمر ، لذلك سمحت الى وقف نشاط مصر البحرية . (١) إلا أن الخديوى اسماعيل قام بتزويد البحرية المصرية بسفن حربية مدرعة ، عن طريق تعاقد ه مع شركة فرنسية على ثلاث سفن ، وتعاقد ه مع النمسا على سفينتين لكن إنجلترا كما رأينا كان من سياستها اضعاف قوة مصر البحرية والحرية وذلك لضمان السيادة في البحرين الأحمر والمتوسط ولتتفد سياستها الاستعمارية المرسومة في هذه المناطق ، فلم تظهر لهذه الجهود المبذولة لاهياء البحرية المصرية بعين الارتياح ، فبدأت للطريقة التقليدية في اثاره مخاوف الدولة العثمانية من جهود اسماعيل هذه ، واهزت الى السلطان بأن يقف في وجه هذه الجهود والحد منها ، وتذرت الدولة لذلك بأن الفرمانات لا تبيح لمصر انشاء سفن حربية مدرعة بدون اذن سابق من السلطان وقامت أزمة بين السلطان والخديوى إلا أن هذه الازمة حلت ، وذلك بأن ابتاعت الدولة العثمانية لنفسها هذه السفن المدرعة .

وقام الاسطول المصرى برحلات منتظمة في البحر الأحمر ، فساد الا من والسلام ميا هه ، بعد أن كانت الاخطار تسود فيه ، كما دب الحمران وانتشرت مظاهر الرخاء والتطور في موانئ افريقيا الشرقية التي أصبحت متصلة ببلدان العالم بعد أن كانت تكاد تكون في عزلة تامة ، وأدى هذا الى ازدهار التجارة ، ونشاط الزراعة وغيرها من

(١) شوقى عطا الله الجمل ، سياسة مصر في البحر الأحمر ، ص ٥٥ .

مواد الثروة في هذه الجهات (١) ، وفي أواسط ندى الحجة سنة ١٢٨١ هـ مايو سنة ١٨٦٥ م أصدر السلطان عبد العزيز فرمانا باحالة ميناء سواكن وميناء مصوع للادارة المصرية على أن تورد مصر لخزينة جدة ٢٥٠٠ جنيه عثمانى سنوياً الا أن هذا الفرمان عدل فيما بعد ضمن فرمان تغيير الوراثة الصادر في محرم سنة ١٢٨٣ هـ الموافق سنة ١٨٦٨ م فجعلت الاحالة وراثية ونص على أن تنتقل ولاية مصر مع ما هو تابع لها من الاراضى ، وكامل ملحقاتها ، وقائمة سواكن ومصوع الى أكبر أولاد الخديوى بطريقة التوارث ، وبالصورة نفسها الى أكبر أولاد ذريته ، وبعد أن استقرت الامور لمصر في مصوع وسواكن ، شكلت منها ومن الاقاليم السودانية المطلة على البحر الاحمر بالاضافة الى مديرية التاكة ، محافظة جديدة عرفت باسم محافظة سواحل البحر الاحمر ، وعين أحمد مختار باشا مديراً لشرقى السودان ومحافظة البحر الاحمر ، الا ادارة هذه الاقاليم لم تستقر على وتيرة واحدة ، ففي رجب سنة ١٢٨٨ هـ ألغيت حكمادارية السودان ومحافظة سواحل البحر الاحمر ، ثم تقسيم السودان الى مديريات ومحافظة مستقلة ، على أنه أعيد توحيد ادارة محافظتى مصوع وسواكن في محرم سنة ١٢٨٩ هـ (٢) نظراً لازدياد أهميتها بعد افتتاح قناة السويس .

وبعد الافتتاح رأت الدولة العثمانية فائدة قناة السويس وخشيت من انسلاخ

(١) شوقى عطا الله الجمل ، سياسة مصر في البحر الاحمر ، ص ٢٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢ .

مصر ، هذا الاقليم الحيوى من جسم الدولة ، فأصدرت فرمانا فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ م ، " وهو الذى أكد حقوق السيادة العثمانية على الخديوية المصرية وبالصورة التى رسمتها ١٨٤٠ - ١٨٤١ م ، وأعاد فيه السلطان ذكر المسائل التى قبلها اسماعيل بشأن تحديد عدد السفن الحربية والعلاقات الخارجية وأكد عليه ضرورة استخدام موارد البلاد لخدمة مصالحها الحقيقية ، ومعاملة الرعايا المصريين بالعدل والانصاف ، وألا تجبى ضرائب جديدة من غير حاجة شرعية تامة ، وألا يحقد قرض الا بعد موافقة السلطان (١) ولعلنا نذكر تلك الاحتفالات التى أقامها الخديوى اسماعيل بمناسبة افتتاح القناة ليكسب لنفسه استقلالاً ذاتياً عن الدولة وهنا شعرت الدولة العثمانية بهذه الحركة فأصدرت هذا الفرمان حتى يقف عند حده وألا يتكرر منه ذلك فى المستقبل ، كل هذا بدافع حرص الدولة العثمانية على سيادتها كاملة ، ليحقق لها السيادة الكاملة على القناة ، وكان فردينا ند ^م ليسيس عند فكر فى أن تناع الشركة للدول البحرية الأوروبية عند ما وقفت أمامه الصعوبات المادية والخسارة التى واجهتها الشركة فى السنوات الاولى ليضمن دولية وحيادة القناة لم توافق الحكومة العثمانية على ذلك ، وما كانت لتصمت أبداً لمثل هذه المشاريع التى تتعارض بطبيعتها الحال مع حقوق سيادتها فشركة القناة شركة مصرية خاضعة للقوانين العثمانية (٢)

(١) د . سيد رجب حراز ، المدخل الى تاريخ مصر الحديث ، ص ٣٦٥ .

(٢) محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٤٥ .

وفى الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ م ، أرسلت بريطانيا الى روسيا
فى ٦ مايو سنة ١٨٧٧ م تليفها أن " كل محاولة لحصر القناة أو النواحي
المجاورة لها أو تعطيلها بأى شكل فان الحكومة البريطانية تعتبر ذلك
تهديدا للمهند واضراراً جسيماً بتجارة العالم ، وأن كل عطل من هذا القبيل
يتعارض مع احتفاظها بموقف الحياد السلبي ، وقد استجابت روسيا لذلك ، كما
أرسلت بريطانيا مذكرة مطابقة الى كل من الباب العالي والخدمى وشركة القناة
وقد أجابت الدولة العثمانية بأنها تؤيد حرية المرور بقناة السويس لجميع سفن
الدول المحايدة ، ولكنهما فى الوقت نفسه تعتبر القناة جزءاً من ممتلكاتها لا يوضع
بأى شكل تحت نظام الحياد ، واستناداً لهذا لن تسمح للسفن المعادية بدخولها
واحتفظت السلطات العثمانية بحقوقها الكامل فى القبض على السفن الروسية التى
تدخل القناة (١) ، وأكدت الدولة العثمانية بعد ذلك أحقية استعمال القناة
فى أوقات الحرب وأنها جزء لا يتجزأ من ممتلكات الدولة العثمانية ، وكان ذلك
على الصعيد الدولى فى اتفاقية ٢٩ اكتوبر سنة ١٨٨٨ م والخاصة بحرية الملاحة
فى قناة السويس ، ومن أهم البنود التى عنت بهذا الحق المادة الرابعة من
الاتفاقية التى جاء فيها : بما أن القناة البحرية تظل فى زمن الحرب طريقاً حراً
ولو كان ذلك لمرور السفن الحربية التابعة للدول المتحاربة عملاً بالمادة الأولى
من هذه الاتفاقية ، فقد اتفقت الدول المتعاقدة على عدم استعمال أى حق من

(١) الدراسات الثقافية ، قناة السويس ، ماضيها وحاضرها ، ص ٢٣ .

حقوق الحرب ، وأوتيلن أى فعل عدائى أو أى عمل من شأنه لتعطيل حرية الملاحة فى القناة ، وأوفى الموانىء الموصلة اليها ، وأوفى دائرة نصف قطرها ثلاثة أميال بحرية من هذه الموانىء حتى لو كانت الدولة العثمانية احدى الدول المتحاربة ، ويمتنع على البوارج الحربية للدول المتحاربة أن تباشر داخل القناة أوفى الموانىء المؤدية اليها عطيات التموين أو التخزين الا بالقدر الضرورى جدا ، ويتم مرور السفن المذكورة فى أقصر وقت ممكن وفقا للأنظمة المعمول بها ، ولا يجوز لها الوقوف الا لضرورة قضت بها مصلحة العمل ، ولا يجوز أن تزيد مدة بقائها فى بورسعيد أو فى خليج السويس على ٢٤ ساعة فقط فى حالة التوقف الجبرى ، وفى الحال عليها الرحيل فى أقرب فرصة ممكنة ، ويجب أن تمضى ٢٤ ساعة بين خروج سفينة متحاربة من أحد موانىء الدخول وبين قيام سفينة أخرى تابعة للدول المعادية (١) ، ومن خلال هذه المادة يتبين أن الدولة العثمانية وبقية الدول المشاركة فى هذه الاتفاقية ، قد حافظت على سلامة الموانىء المؤدية اليها عطيات التموين ، كما حافظت على أملاك الدولة العثمانية ، بضمانات مختلفة من حيث الزمن والمكان ، فمن ناحية الزمن حدد ٢٤ ساعة مدة توقف السفن المتحاربة فى موانىء بورسعيد والسويس التابعة للدولة العثمانية وذلك فى حالة الضرورة ، ومسافة قدرها ثلاثة أميال بحرية يضمن سلامة أمن الموانىء .

ونصت المادة الثامنة * . . . وعلى كل حال يجتمع المندوبون مرة فى السنة

(١) بطرس بطرس غالى ، يوسف شلاله ، قناة السويس ومشكلاتها ، ص ١٣ .

للتثبت من تنفيذ المعاهدة تنفيذاً حسناً ، وتعقد هذه الاجتماعات الأخيرة
برئاسة مندوب خاص تعينه حكومة السلطنة العثمانية لهذا الغرض . ويجوز
أيضاً للمندوب الحضرة الخديوية حضور الاجتماع كذلك ، وتكون له الرئاسة في حالة
غياب المندوب العثماني ، ويحق للمندوبين المذكورين المطالبة بنوع خاص بإزالة
كل عطل أو فسخ كل اجتماع على ضفتي القناة من شأنه أن يمس حرية الملاحة
وضمان سلامتها ، (١) وهنا أيضاً كسبت الدولة العثمانية بموجب هذا البند
امتيازاً خاصاً وذلك في ترأس الاجتماعات السنوية للتثبت من تنفيذ الاتفاقية
ويأتى بعده في الأفضلية الخديوى ، على اعتبار أن القناة جزء من الدولة
لضمان سلامة الاراضى العثمانية ، كما نصت المادة التاسعة ، " تتخذ الحكومة
المصرية في حدود سلطتها المستمدة من الفرمانات والشروط المقررة في المعاهدة
الحالية ، التدابير الضرورية لتنفيذ المعاهدة ، وفي حالة عدم توفر الوسائل
الكافية لدى الحكومة المصرية . يجب عليها أن تستعين بحكومة الدولة العثمانية
التي يكون عليها اتخاذ التدابير اللازمة لإجابة هذا النداء " . (٢) ، وبموجب
هذه المادة ، اعتبرت الدول مصر تابعة للدولة العثمانية التي بموجبها توضع
التدابير الضرورية في تنفيذ هذه المعاهدة من وسائل دفاعية للقناة ، ومما
لا شك فيما أن الدولة هنا لديها مكاسب مادية وأخرى معنوية ، فبعد استعانة
حكومة مصر بالدولة العثمانية في وضع التدابير للتنفيذ دون أية دولة أخرى ،
معناه الارتباط الكامل لمصر التي تجري القناة في أرضها بالدولة العثمانية

(١) عبد العزيز الشناوى وجلال يحيى ، وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر ص ٦٦٢

(٢) بطرس بطرس غالى ويوسف شلاله ، قناة السويس ومشكلاتها ، ص ١٤ .

فهو بذلك يعد مكسبا معنويا ، يؤكّد سيادة الدولة العثمانية على هذا الاقليم
أما من الناحية المادية فهو استفادة الدولة من الرسوم الحائدة من مرور السفن
وتأكيد ذلك جاء بموجب قرارات هذه المعاهدة ، كما نصت المادة العاشرة من
اتفاقية سنة ١٨٨٨م الخاصة بحرية مرور السفن في قناة السويس " . . لا تتعارض
في أحكام المواد ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٨ مع التدابير التي قد يرى عظمة السلطان
وسمو الخديوى اتخاذها في حدود الفرمانات المخولة ، ليضمنا بواسطة قواتهما
في حدود الفرمانات الممنوحة ، الدفاع عن مصر وصيانة الامن العام ، وإذا رأى
صاحب العظمة السلطان أو سمو الخديوى ضرورة استعمال الحقوق الاستثنائية
بهذه المادة ، فإنه يجب على حكومة الدولة العثمانية أن تخطر بمثل ذلك الدول
الموقعة على تصريح لندن .

ومن المتيقن عليه أيضا أن أحكام المواد الأربعة المذكورة لا تتعارض
اطلاقا مع التدابير التي ترى حكومة الدولة العثمانية ضرورة اتخاذها لكي تضمن
بواسطة قواتها الخاصة الدفاع عن ممتلكاتها الواقعة على الشرقى للبحر
الاحمر " (١) ، وكان مندوب الدولة العثمانية قد اقترح قبل اقرار هذه المادة
النص الآتى " للباب العالى مطلق الحق في اتخاذ كل الوسائل الضرورية للدفاع
عن الاقليم " ثم عاد فاقترح النص الآتى " لا تعطل مواد المعاهدة حقوق الباب

(١) عبد العزيز الشناوى و جلال يحيى ، وثائق ونصوص التاريخ الحديث

العالي في اتخاذ الوسائل والاعتراف التي يراها ضرورية للدفاع عن مصر ،
والنصان في عمومها يشملان الحصر البحري والزراعة والثغيش ، ولم تعترف الدول
على اطلاق النص على الحق في اتخاذ كافة الاعتراف الضرورية للدفاع عن مصر
- ومنها الحصر البحري - وان كان بعضها كإيطاليا ، قد لاحظ أن المياغة
الأخيرة تعلق حق مصر في الدفاع عن نفسها على ادارة الحكومة العثمانية ،
واقترح الخلاف في ذلك أن يقرر الحق لحكومة مصر ذاتها (١) ، وأعطت المادة العاشرة
الدولة العثمانية من قيود عسكرية خاصة بهذه الاتفاقية ، وذلك عندما يكون الامر
متعلقا بقيام قواتها المسلحة بالدفاع عن الحجاز وأليمن وهما من ولايات الدولة
وكانت هذه القيود قد وضعت أصلا لتلتزم بها الدول المتحاربة ، ضمانا لحرية
الملاحة في قناة السويس ، هذا وملكية مصر للقناة وسيادتها عليها هي المبرر الشرعي
للاستثناءات التي تقررت لمصلحتها والتي تبيح لها توقيف بعض مواد الاتفاقية ،
كما أن هناك استثناءات للدولة ذاتها تحققت في المادة الثانية عشرة التي جاء
فيها " . . . قد اتفقت على أن لا يجوز لاحداها الحصول على مزايا اقليمية أو تجارية
أو امتيازات في الاتفاقات الدولية التي تبرم مستقبلا فيما يتعلق بالقناة ، ويحتفظ
في جميع الأحوال بحقوق تركيا كدولة ذات سيادة اقليمية " (٢)

(١) الدراسات الثقافية ، قناة السويس ، ماضيها وحاضرها ، ص ٣٣ .

(٢) بطرس بطرس غالي ، ويوسف شلاله ، قناة السويس ومشكلاتها ، ص ١٥ .

وهكذا كان اهتمام الدولة العثمانية بالقناة كما رأينا ادراكا منها أن القناة
هي أهم العوامل من حيث تحقيق سياستها العربية ، ولأن هذا الممر البحري
الجديد من شأنه تيسير عبور الأساطيل العثمانية ، ووصل ميناء الاستانة بموانئ
الجزيرة العربية مباشرة وبذلك تسهل عملية توصيل القوات والامدادات العسكرية
في أقصر وقت ممكن ، كما يسر هذا الممر للدولة الوقوف عن كثب على أمور هذا
الجزء ، وسوف نرى أن الدولة استطاعت بعد افتتاح قناة السويس أن تقيم حكما
على هذه المناطق وأقصد بها غرب الجزيرة كان أكثر فاعلية عن ذي قبل .

الفصل الثالث

جهود الدولة العثمانية لتأمين الحجاز بعد اقتراح الفناء

أ- إخماد الفلافل في عسير ١٢٨٩ هـ - ١٨٧٢ م

ب- الفتح الثاني لليمن ١٢٨٩ هـ - ١٨٧٢ م

ج- محاولة استعادة نفوذ الدولة العثمانية
في عدن .

كان الأمير محمد بن عائض في مطلع سنة ١٢٨٨ هـ الموافق سنة ١٨٧١ م في أوج عزه ، ان كان الامن يروج في جميع بلاد هـ ، وأخذت هيئته تدب فسي قلوب أهل ا ولايته ، فقد مواله فروض الطاعة ، الا أن تهامة اليمن التي كانت تحت النفوذ العثماني المباشر بما في ذلك المخلاف السليماني صارت على عكس بلاد عسير ، ان ضاق الاهالي من الحكم العثماني المباشر ، مما ادى الى تشد هور حالة الامن وترديه ، وانتشار الفساد ، مما جعل بعض أعيان البلاد يتجهون الى أمير عسير طالبين منالته خل لانقاذ بلاد هم من العثمانيين فاستجاب لذلك حاكم عسير ، ورأى في ذلك الفرصة لتحقيق رغباته التوسعية بضم تهامة اليمن والمخلاف السليماني وطرد العثمانيين منها ، (١) وفي سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) توجه الأمير محمد بن عائض على رأس جيش كبير واستولى أولا على المخلاف السليماني واستطاع أن يطرد الحاميات العثمانية ويجبرها على الرحيل بحرا الى الحديدة التي كانت مركزا لتجمع القوات العثمانية في اليمن ، ثم تقدم بمد ذلك الى تهامة اليمن ، وأخذ يبحث في أرجائها سلبا ونهبيا وقتلا ، واستولى على مدينة الحديدة ، ويقال أن طلائعه وصلت الى مخا ، وارتكب جنده الكثير من الفظائع الا أن العثمانيين استطاعوا أن يجمعوا شطهم من جديد فكروا على محمد بن عائض وهزموه ، فارتد بمد ذلك منهزما ، وارتكب أثناء عملية التراجع الفظائع والمنكرات الى أن وصل مدينة أبي عريش ، وأقام عليها لاحق الزيداني على رأس حامية عسكرية (٢)

(١) النعيمي ، تاريخ عسير ، ص ٢٠٨ .

(٢) العقيلي ، تاريخ المخلاف السليماني ، ص ٥٦٥ .

وكان محمد بن عائض قد استولى قبل ذلك على بلاد بنى شهر وغامد وزهران
وهذه البلاد تابعة للأشراف في مكة ، وبذلك يكون ابن عائض قد نقض العهد
والصلح الذي عقده مع الدولة العثمانية (١) ، وهكذا يخرج ابن عائض للصرة
الثانية عن طاعة الدولة ، واشتكى من أعماله كثير من مشايخ تلك النواحي ، لذلك
رأت الدولة لزوم ارسال الجنود لتمكين دعائم الحكومة العثمانية بما ان وصلت
أخبار غارة الجيش المصري على تهامة الى الأستانة حتى أرسلت الجيوش لقتاله
في نفس السنة ، وذلك لابقاء اليمن تابعة للدولة العثمانية ، وسيرت الدولة فرقتين
احداهما من الأستانة الى بلاد اليمن لحرب عسير ، والثانية من بغداد عن طريق
نجد (٢) ، وكانت فرقة الأستانة تحت قيادة الفريق محمد رديف باشا ومعه احمد
مختار باشا رئيسا لأركان الحرب (٣) ، وكانت هذه الفرقة العسكرية يزيد عدد ها
على ستة آلاف مزودين بالمدافع (٤) ، وقيل ان هذه الحملة كان تعداد ها
عشرين ألف جندي ، وكانت هذه الفرقة على تمام الاستعداد (٥) ، وجد يهر
بالذكر أن مصر - بناء على تكليف من الباب العالي - تكفلت بارسال المؤن اللازمة
من أرز وسمن وسكر للقوات العثمانية ، وقد ثبت ذلك من الخطاب الذي أرسله

(١) ابن دحلان ، خلاصة الكلام عن أمراء بيت الله الحرام ، ص ٣٢ .

(٢) لم تذكر المراجع عن الفرقة الثانية والقادمة عن طريق نجد من بغداد ، بل

انفرد بذكرها اسماعيل سرهينك ، (٣) اسماعيل سرهينك ، حقائق الاخبار

عن دول البحار ، ص ٧١٣ . (٤) فاروق أباطه ، الحكم العثماني لليمن ص ٧٧ .

(٥) الشعيبي ، تاريخ عسير ، ص ٢٠٩ .

خديوى مصر الى الباب العالى فى ١٨ سدى القعدة سنة ١٢٨٧ هـ يخبره
بوصول مكاتبه التى يطلب فيها بارسال خمسمائة ألف أقة سكر لأجل الفرقة
المسكزية الشاهانية التى أرسلت الى الحجاز واليمن ، ويرد عليه بأنه أصدر
الأوامر الموكدة المشددة للمختصين باعداد وتجهيز الكميات المذكورة وبارسال
نصفها الى ميناء الحديدة ، والنصف الآخر الى الأمكة التى خصصها سعادة
رديف باشا . وأضاف فى الختام : أما أثمان هذه الأشياء ومصاريفها فسيُرسل
بها كشف فيما بعد ، ثم يعرض استعدادة لتلبية أى طلب (١) ، أما عن الدور
الذى قامت به حملة رديف باشا الذى وصل الى ميناء القنفذة مباشرة فهنا يتضح
أثر القناة ان أصبح باستطاعة الدولة أن ترسل قواتها فى أى وقت دون مساعدة
مصر أو الاشراف فى الحجاز ، وذلك على عكس ما كان عليه الامر قبل ذلك ، وأخذ
رديف باشا يستعمل للمهجوم على الثوار ، وفى نفس الوقت وجه نداءات للأهالى
والثوار جاء فيه أن الله ليس بظلام للمبيد فالقبائل والعشائر والاهالى المنقادون
لطاعة أولى الامر يلزم عليهم أن يثبتوا على قدم الطاعة والانقياد ، وأن يحلنوا
ذلك لكل حاد ويد لتشطبهم الرأفة والرحمة والشفقة ، وانا نقول لكم هموما انه حيث
القصص من مأوريتنا وسفرنا من دار الخلافة العلية الى هذه الاماكن انما هو من
أجل تأمين البلاد ، وترفيه العباد ، ورفع الظلم والتعدي عنهم ، وجمع ثرويع أهل
الاعتساف والفساد ، فمن كان منكم مطيعا لأوامر الله التى من أهمها طاعة

(١) سجل ٢٤ عابدين ، الوثيقة رقم ١٢٧٢ ، شوقى عطا الله الجمل ، الوثائق
التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر ، ص ٤٣١ .

ولى الأمر فسيجرى فى حقه اللطف والصيانة ، ويعامل بكامل العدل . . . ، ولكن لم يجد رديف باشا لندائه جواباً من قبل الأهالى أو الامير محمد بن عائض ، وفى أعقاب ذلك المنشور عقد العسيريون برئاسة الامير محمد بن عائض اجتماعاً تقرر فيه : رفض ما جاء فى الانذار المذكور ، وعلان النفير العام لمقاومة الجيش الزاحف ويكون مقر قيادة الامير عقبه شعار المطلة على وادى تيه ، بالإضافة الى مرابطة رجال ألمع وقبائل تهامة بمضيق دالج المطل على ماء الاحابيش من شمالى ألمع مطلى محائل (١) ، واحتل بعد ذلك رديف باشا منطقة حلى يحقوب وهى أول مركز للحدود الحاضضية ، ثم والى زحفه الى محائل فاحتلها فى . . . (٢)

سنة ١٢٨٨ هـ وهنا أخذ القائد العثمانى ينسق خطته الهجومية ، وذلك لعلمه باستمالة الأهالى فى الدفاع بالإضافة الى ما كانت عليه المواقع العسيرية من قوة ومثانة (٣) . عند ذلك رابط محمد بن عائض بحشوده من رجال القبائل فى باحة شعار ، وأخذ فى اقامة التحصينات والاستحكامات وتهيئة خط للدفاع طناً منه أن العثمانيين سيتقدمون من تلك الجهة ، وكان ابن عائض قد استتمض قبائل ألمع فربطوا فى وادى حلى الا أنهم لم يتمكنوا من صد الزحف وطوا منهزمين (٤) ،

(١) النعمى ، تاريخ عسير ، ص ٢١٢ .

(٢) الحقيقى ، تاريخ المخلاف السليمانى ، ص ٥٨٤ .

(٣) النعمى ، تاريخ عسير ، ص ٢١٢ .

(٤) الحقيقى ، تاريخ المخلاف السليمانى ، ص ٥٨٤ .

وبعد فشل علي بن محيى المفيدى عن الدفاع ، وانسحابه من مضيق دالح أخذ
يفطى هزيمته بمحاولة يائسة ، اند اعتمد بقمة جبل مطل على مركز الشعبين ومعه
ثلاثمائة مقاتل لصد القوات العثمانية ، ولكن بدون فائدة ، فما كان الجيش العثماني
يصل ماء الطحة من موارد على يعقوب حتى اكتشف مواقع على بن محمد وجماعته
ونذلك بالمكر ، فأرسل عليه القائد سرية من جنوده مجهزة بقوة نارية صارسة ،
فاكتشف جبل قوره ، واستطاعت احتلال قمة الجبل ودمر على بن يحيى المذكور
وقرته ، فاعتصم بجبل الشرافة المطل على الشعبين من الجنوب ، (١) أما رديف
باشا فبعد أن هزم رجال ألمع زحف حتى وصل وادى الحوص ومنه تسلقت قواته
الحقبة الصعبة ، ونصبت خيامها فى سطح تهلل ، وهنا ارتبكت خطة دفاع محمد
ابن عائض ، واختل توازنه ، فاضطر الى الانسحاب من خطوطه ، محاولا القيام
بحركة سريعة ومبادرة العثمانيين بالهجوم ، الا أن هجومه لم يسفر عن نجاح ،
وظل القتال سجالا حتى أرغم على الانسحاب من ذلك الميدان الى الحفير بالقرب
من قرية السقا ، بينما تقدم القائد العثماني واحتل السقا وضيق على الامير
محمد بن عائض ، فالتجأ الى قرية ريده وتحصن بها ، ونظرا لحصانة ريده ومناعتها
الطبيعية ، بالاضافة الى ما أعده محمد بن عائض من وسائل الدفاع فان العثمانيين
لم يظفروا من هجماتهم المتكررة عليها بطائل (٢) ، وعقد بعد ذلك القائدان رديف

(١) النعمي ، تاريخ عسير ، ص ٢١٣ .

(٢) العقيلس ، تاريخ المخلاف السليطاني ، ص ٥٨٥ .

باشا وأحمد مختار، اجتماعا بحثا فيه الحالة ، وتقرر أن يبحر الجيش الاحتياطي
المربط في القنفذة الى ميناء الشقيق ومنه الى ريدة عن طريق تهامة بقيادة
أحمد مختار باشا (١) ، وذلك من ناحية الغرب ، ثم تقدم أحمد مختار من ميناء
الشقيق ووالى زحفه الى أن عسكر غرب ريدة ، وبذلك أصبحت بين شقى رها ، وهكذا
شدد العثمانيون الهجوم على قرية ريدة من الشرق بقيادة محمد رديف ، ومن
الغرب بقيادة أحمد مختار ، واستمر الهجوم خمسة أيام متوالية ، ضعفت بمداهلة
مقاومة المسييريين فدب اليأس في قلوبهم ، وأخذت الخيانة تلعب دورها بين
أقارب الأمير ، فخرج منهم من كان في حصن شهران ، ثم استسلم آل مفرح ولم يبق
الا القصر الذي تحصن به الأمير ، فضعفت معنوية حرسه الخاص ورجاله المقربين ،
وأحاط العثمانيون بالقصر من كل جانب فطلب أكثرهم الأمان والاستسلام ، واضطر
أخيرا الأمير محمد بن عائض الى طلب الأمان لنفسه وأهله فتعهد له بذلك ، وبموافقة
أحمد مختار وتعهده بقبول شروط التسليم ، وسلم الأمير نفسه ودخل العثمانيون
القصر (٢) ، وبذكر الواسع أن السلطان عبد العزيز أرسل جيشا لأخذ
بلاد عسير ، وقد اتصل شريف مكة محمد بن عون - الذي نصب من قبل العثمانيين
سنة ١٨٥٦ م - مع أمير عسير محمد بن عائض ، وذلك بأن يسلم العسيري بلاد
للدولة العلية ، وأن أملاكه وخیوله وحصونه تحفظ ، وتخصص مرتبات له ولعائلته ،
ولبعض الرؤساء المستحقين ، ويستخدم جميع من يستحق الخدمة في الوظائف

(١) النعمان ، تاريخ عسير ، ص ٢٠٥ .

(٢) العقيلي ، تاريخ المخلاف السلياني ، ص ٥٨٥ - ٥٨٦ .

العالية ولا يفضل عليه أحد ، فقبل الأمير محمد بن عائض ذلك ، وبعد السخابة
من الشريف الى السلطان بذلك ، وصل شريف مكة الى عسير والجنود محاصرة
لعسير ، فقدم الرسول ويده فرمان السلطان خطابا للأمير محمد بن عائض جاء
فيه " انك آمن بأمان الله ورسوله ، واني قد قبلت جميع مطلبك الذي عرضت علينا
بواسطة الشريف محمد بن عون ، وما عليك الا تسليم البلاد لرديف باشا ، وأموالك
وخيلك وجميع أملاكك مع الحصن لا تمسها عساكرنا بسوء ، الا اذا لم يتبع أمرنا
هذا السلطاني ، فلما اطلع محمد بن عائض على منطوق الفرمان كتب مختار باشا
وكان محاصرا للقصر يقول في مكتوبه : اننى دخلت تحت طاعة السلطان حسب
الفرمان فقبل أحمد مختار باشا وتوجهها الى رديف ليطلع على الفرمان ، وبينهما
وبين رديف باشا ثلاث ساعات ، فلما وصلا اليه فى خيمته أمر فى الحال بقتل محمد
ابن عائض (١) .

تفرغ بعد ذلك رديف باشا لتنظيم عسير ، فأخذ فى قتل السيريين وتشريد هم
ونفى كبارهم كوسيلة لتوطيد أركان الحكم العثماني فى البلاد ، وأخذ فى القضاء
على الحراقيل التى تقف أمامه ، وكان قد نفى الى تركية فوق ستمائة رجل ممن
رؤساء عسير ، وكان على رأسهم الشيخ العلامة رئيس قضاة عسيران محمد بن عبد الخالق
الحفظى ، وقام رديف باشا بتنسيق الادارة فى عسير ، متخذ من مدينة أبها مقرا

للمتصرفية ، وجعل من مركز الشعبين مقرا لولاية رجال ألمع ، واتخذ من السقل
وريدة قاعدة عسكرية لقواته ومن محائل نقطة انطلاق لجيشمالا احتياطي ، واتخذ من
النطاص ولاية لبنى شهر اما رعدان فجعلها ولاية لسراة غامد وزهران . وجعل
ثغر القنفذة مرقاً لاظيم عسير ، واتخذ من الشقيق نقطة اتصال للسواحل اليمنية ،
وأخيرا جعل صبيا مركزا للمخلاف السليمانى . (١)

وهكذا استطاع العثمانيون أن يسيطروا على عسير والمخلاف السليمانى ،
وضموها الى المنطقة الخاضعة لنفوذهم فى تهامة ، واستولوا على كل مايطلكه أمير
عسير من خيل ونقود وأسلحة ومدافع وغير ذلك من الاحجار النفيسة . (٢)

وبعد أن فتح أحمد مختار باشا اليمن كما سنعرضه بعد فى الفقرة التالية
توجه الى عسير سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٣ م) وتسلم دفة الحكم وظل مدة سنتين
ثم وصل عثمان بك سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٥ م) فاخذت الثورات القبلية تتدلى ،
وكان اشد ها ثورة قبيلة قيس من رجال ألمع الذين امتنعوا عن دفع الضرائب ،
فوقعت بين الطرفين مناوشات ، ازاها جرد حملة عسكرية مجهزة بوسائل الحرب ،
فوقع قتال بينهم ، وفى أواخر سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٦ م) تسلم حيدريك متصرفية
عسير لمدة ثلاثة أعوام وكانت الحالة هادئة نسبيا ، سوى أن هناك مناوشات من قبل

(١) النعمى ، تاريخ عسير ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٢) الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ١٠٧ .

الامير على بن محمد بن عائض في بعض المراكز الواقعة في تهامة ، الا أن
الوالي العثماني استطاع أن يخمدها ، وبعد ذلك تولى دفة الامارة احمد فيض
باشا سنة ١٢٩٥ هـ (١٨٧٩ م) الذي اهتم بجمع الضرائب الباهظة للدولة ،
فأثار ذلك المعسرين ، الذين التفوا حول الامير على بن محمد بن عائض ، وكان
المحرك للثورة رجال ألمع الذين أشعلوا نار الثورة في قرية شرمة ، وعلم الوالي
فأسرع اليهم على رأس حملة عسكرية مجهزة بالمدافع والرشاشات ، فقابلوا الثوار
في سفوح الجبال ، وكانت المعارك دامية ، وأخيرا تمهقر الثوار الى قرية شرمة
فتعقبهم الجيش في هجوم خاطف فأخذ يقذف القرية بنيران مدافعه فلان الثوار
بالفرار ، ودخل الجيش العثماني قرية شرمة ، وأخذ يتمقب الثوار حتى شتت
شطمهم ، وبعد ذلك وصل تحسين باشا الى الولاية سنة ١٢٩٨ هـ (١٨٨٢ م)
وباشر سلطته ، وكان عهده مثل عهد سلفه ان كانت الفارات والاضطرابات
قائمة ، واستمر في الولاية حتى سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٤ م) فتولى الامارة رفعت
باشا ، وهدأت الاحوال في عهده ، وبقي في الحكم حتى سنة ١٣٠٥ هـ (١٨٨٩ م)
ثم تولى الامارة محمد أمين باشا الذي عرف بالحنكة والفراسة ، وقد انحصرت
جهوده في صد هجمات المغيرين على المراكز العثمانية من القبائل المغيرة
وفي سنة ١٣١٠ هـ (١٨٩٣ م) وصل يوسف باشا ، فأعاد للولاية هيبتها ، وأخذ
في اختطاط وانشاء الدور للدوائر الحكومية ، ثم توجه أحمد أمين باشا سنة ١٣١٦
على رأس حملة عسكرية لاختضاع القبائل الثائرة في اليمن على حكم الدولة في أثناء
ولاية احمد فيض باشا بزعامة الامام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين ،

عاد بعد ذلك محمد أمين الى عسير وبقى حتى سنة ١٣١٧ هـ (١٩٠٠ م) ، وفى
سنة ١٣١٨ هـ (١٩٠١ م) وصل موسى كاظم باشا ، وياشر سلطته ، الا أن الفوضى
استمرت قائمة ، فاستبدل موسى باسماعيل حقى باشا سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠٢ م)
وهذا بدوره قضى على دواعى الفوضى ، فهدأت الحالة اهان ولايته ، وكان
اسماعيل يتصف بالعدل والانصاف ، وفى سنة ١٣٢٢ هـ (١٩٠٥ م) أخذ الامير
على بن محمد بن عائش فى الاستعداد لشن هجوم على الحامية العثمانية واتصل
بزعماء القبائل التابعة للواء عسير محرضاً على القيام بالثورة ، الا أن الحامية
تمكنت من قطع خط الرجعة على من فى محلة مناظر ، فاستسلموا حيث وقعوا ففى
أيدي رجال الحامية ، وفشل هذا الهجوم من قبل الثوار ، واستمر حقى باشا
حتى سنة ١٣٢٤ هـ (١٩٠٧ م) ، فوصل الى امارة عسير سليمان شفيق وياشر
سلطته فى عسير ، وكان المخلاف السليمانى تابعا لمتصرفية عسير والأمن ان ذاك
مضطرب فى هذه الجهات بل فى لواء عسير بوجه عام ، فواجه الوالى العثمانى
ظروفا عصيبة ، لاسيما عند اعلان الادريسى ثورته سنة ١٣٢٧ هـ (١٩١٠ م) (١) ،
وكانت الحروب قائمة حتى بين القبائل ، ان أشتملت الحروب القبلية ونشب القتال
بين أهل أبى عريش وأهل ضمد واستمرت حتى سنة ١٣١٠ هـ (١٨٩٣ م) ، ثم
بين المسارحة وأهل أبى عريش ، ومن الجانب الشرقى بين الحرث والمسارحة ،
وفى الجنوب بين بنى شبيل والمسارحة ، وفى الجنوب الغربى بين الحكامية والحزم

وفي الشمال بين أهل صيبا والجعافرة وظلت الفتن والحروب في طول المخلاف وعرضه بين كل قبيلة والقبيلة المعاقبة لها ، وزاد الفتن والحروب ضراوة وقسوة ترخيص فرنسا ببيع الأسلحة في مستعمراتها ، ومن ميناء جيوتو ، فنشطت تجارة الأسلحة في تهامة وزادت مقاومتهم للمعتمانيين ، وفي سنة ١٢١٩ هـ (١٩٠٢ م) ضرب الأسطول الإيطالي موانئ البحر الأحمر العربية واستمرت الفوضى والفتن حتى سنة ١٢٢٧ هـ (١٩١٠ م) وقيام الادريس (١) ، وكانت القوات العثمانية المرابطة في هذه الفترة في منطقة عسير ، ستة عشر طابورا في محایل وثلاثة طوابير في قوز أموالعير وفي القنفذة ثلاثة طوابير وفي أبها عاصمة اللواء عشرة طوابير (٢) .

وهكذا يؤخذ من العرض السابق أن الدولة العثمانية استطاعت أن تفرض سلطتها على منطقة عسير والمخلاف السليماني وساعدتهم على ذلك افتتاح القناة ، كما تمكنت الحكومة العثمانية من أن تقف على مجريات الحوادث في تلك المنطقة ، وقد قد منا في عرضنا هذا سرعة تغيير الولاية والمتصرفين على عكس الفترة السابقة ، وهذا يعود للحالة الجديدة التي أوجدتها قناة السويس بالنسبة لمنطقته شبه الجزيرة العربية .

(١) العقيلي ، تاريخ المخلاف السليماني ، ص ٥٦٥ - ٥٦٦ .

(٢) البركاتي ، الرحلة اليمنية ، ص ١٠٨ .

واستمرارا لسياسة الدولة من حيث بذل الجهد لتأمين الحجاز بعد افتتاح قناة السويس فقد رأت الدولة العثمانية أن تعود للسيطرة على اليمن خصوصا بعد أن رأت انجلترا قد وضعت قدميها في عدن ، وأرسلت الدولة حملة سنة ١٨٤٩ هـ احتلت الحديدة وبعض مناطق تهامة ، وقد مر بنا ذكر ذلك في الفصل الاول ، وهذه الحملة كانت مرسله عن طريق الوالى المصرى ، ووصلنا حتى تولى الامام على بن المهدي الامة ، وكيف أنه أخرج العثمانيين من صنعاء ونعود الآن لتكملة الحالة التى كان عليها اليمن ، ففي سنة ١٢٧١ هـ تكاثفت قبيلة أرحب مع قبيلة بنى الحارث وهاجموا صنعاء ، ولما طال الحرب والقتل بين صنعاء والقبائل الذين حول صنعاء ، اجتمع أعيان صنعاء ورؤساء بعض القبائل واتفقوا على خلع الامامين المتعارضين المتوكل على بن المهدي ، والمنصور محمد بن عبد الله الوزير ، وتنصيب السيد محسن بن أحمد الشهارى ولقبوه بالمتوكل الذى اتخذ من منطقة حدة مقرا له (١) ، واجتمع بعد ذلك الائمة المخلوعون وهم غالب بن محمد بن يحيى ، والعباس بن المتوكل ، وأحمد بن عبد الله أبو طالب فى منطقة الروضة وأجمعوا رأيهم على تنصيب السيد غالب بن محمد ، ولقبوه بالهادى ، وتعهدوا بمساعدته ، وقام بالأمر غالب بن محمد ، وكان الأمر فى صنعاء للحاج أحمد الحيمى ، وقامت الحرب بين الوزيرين الحيمى المفكور ، ووزير المتوكل الشهارى دامت شهرين ، وانتهت بالصلح ثم حدث اختلاف بين الامام الهادى

(١) الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ٩١ - ٩٢ .

غالب بن محمد مع وزيره الحيمي ، مما حمل الحيمي على مراسلة الامام المفلوج
على بن المهدي الى دار سلم من سنجان ، احدى نواحي صنعاء ، وطلب وصوله
الى صنعاء فقبلي المهدي دعوته ، وعند ما علم الهادي غالب بن محمد بذلك
زحف بقبائله نحو صنعاء ، فأطلق الوزير الحيمي أبواب المدينة وتعذر على الامام
الهادي الاستيلاء عليها ، ولكنه فرض الحصار واتجه الهادي الى خولان لجمع عدد
آخر من القبائل ، الا أن المهدي خرج من صنعاء ، وأجمعت القبائل على خلع
مرة أخرى وحسم الخلاف بين الامام الهادي ونائبه الحيمي ودخل صنعاء ، وفي
سنة ١٢٧٥ هـ ، قام السيد حسين بن أحمد وتلقب بالهادي وذلك في بلاد
الطويلة ، ودخل صنعاء سنة ١٢٧٥ هـ الا أن أهالي صنعاء حاصروه في قصر
الامارة ثم أخرجوه من صنعاء ، ونصبوا الشيخ محسن بن علي معيض شيخا على
صنعاء ، وأعلن معيض ولائه للمتوكل محسن بن أحمد الشهاري الذي كان ما يزال
مقيما في منزله سنجان ، وبايعه ووصل اليه واعتقل معه الى حصن ذي مرز من
بنى حشيش ، وأتاب المتوكل عنه في صنعاء السيد محمد بن قاسم الحوشي ، الا
أن الشيخ محسن معيض لم يلبث أن خرج عن طاعة الامام المتوكل الشهاري ،
واستدعى الى صنعاء الامام الهادي حسين بن أحمد ، في حين تقدم الامام المتوكل
محسن بقواته من القبائل ، وحاصر صنعاء ، واضطر الامام الهادي الى الخروج
منها ، ثم تصالح مع الشيخ محسن معيض ، وكان من بنود الصلح أن تكون الخطبة
له في صنعاء ، وأن يكون شيخ صنعاء وقاضيهام منهم وصار الامام المتوكل يتنقل بين

صناع وحزير وهما لا يبعدان عن صنعا دون أن يدخلا (١) ، ومن خلال ذلك يتبين أن اليمن وصنعا بالذات كانت تعيش فترة قلقة مشحونة بالاضطرابات والمنازعات بين الائمة المتنازعين فيما بينهم وبين القبائل الذين ظلوا يلعبون دورا ايجابيا في زيادة البلبله ، وعدم الاستقرار ، ثم لما عظمت الفتنة في صنعا وخارجها من فساد القبائل وعتوها ، كتب الامام علي بن المهدي والامام غالب ابن محمد بن يحيى والسيد حسين بن المتوكل ومن العلماء والروءساء الى السلطان عبد العزيز بواسطة شريف مكة ، حيث أن القبائل حول صنعا قد شقوا عنها الطاعة واستبدوا بالبلاد وعاثوا فيها فسادا ، ورجوه أن يمد لهم ببعض من العساكر (٢) وكانت قناة السهيس قد شجعت الدولة العثمانية على اعادة النظر في سياستها العربية بقصد تقوية نفوذها في الجزيرة العربية فأرسل الباب العالي رؤوف باشا على رأس قوة حربية لضم اليمن الى الدولة ، وقد تمكنت القوات من النزول على الحديدية ، الا أن رؤوف باشا مرض ، (٣) وكانت عسير كما مر بنا قد سقطت في يد الدولة ، فزحفت القوات العثمانية بعد ذلك الى صنعا حسب أوامر من الباب العالي وكانت بقيادة القائد احمد مختار الذي جهز بجيش كامل يعرف بالفيلق السابع ، (٤) ثم توجهت قوات احمد مختار من الحديدية الى صنعا

(١) الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ٩٢-١٠٦ .

(٢) الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ١٠٨ .

(٣) جاد طه ، سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، ص ٢٥٩ ، ومصطفى سالم ، تكوين

اليمن الحديث ، ص ٣٢ .

(٤) محمد يحيى الحداد ، تاريخ اليمن السياسي ، ص ٣٥٠ .

حتى وصل الى عسقلانة الواقعة في بلاد حراز في الجسائب الفريسي من مناخة ،
حيث اصطدمت قواته مع أتباع الدعوة الباطنية ، الذين اتخذوا من قلعة مركزا
لتجمعهم ، وقد منى أتباع الباطنية بالهزيمة أمام القوات العثمانية واستسلم
زعيمهم (١) ، ثم التقى وفد الامام على بن المهدي بالقائد العثماني أحمد مختار
في مناخة ودعوه الى دخول صنعاء " حسب أمر السلطان ليربي الحصاة والمتمردين
ويحد تربيتهم يرجع من حيث أتى فهزلهم رأسه ، وتكلم بكلمات تركية لا يفهمونها
فظنوا أن الامر كما يريدون ، فلما وصلوا الى تقيل عصر غربي صنعاء بمسافة نصف
ساعة خرج الامام على بن المهدي والامام غالب بن محمد ، وحسين بن المتوكل
وغيرهم من الأشراف والعلماء والرؤساء ، ثم طلب أحمد مختار باشا من الامام
على بن المهدي وسائر الأشراف والعلماء بواسطة رئيس صنعاء الشيخ محسن
معيض المعامل المحيطة بصنعاء خصوصا القصر المسعى غمدان فسلموها وقللوا
عنها (٢) وكان وصول العثمانيين في السادس عشر من شهر صفر سنة ١٢٨٩ هـ
الموافق ٢٦ ابريل سنة ١٨٧٢ م ثم انقسم الجنود قسمين قسم بقى في مكان يقال له
وهب جنوب صنعاء ، وقسم استولى على بقية المعامل نحو قصر غمدان وأبواب
صنعاء والتي كان عددها عشرة ، (٣) وكان من العوامل التي ساعدت الحطة
العثمانية على دخول صنعاء ذلك أن أهلها ضاقوا ذرعا من المنازعات التي لا
تنقضي بين الائمة الزيدية ، وبين منافسيهم على الامة وكانوا في الوقت نفسه

(١) فاروق اباظه ، الحكم العثماني لليمن ، ص ٨٨ . (٢) الواسعي ، تاريخ

اليمن ، ص ١٠٩ . (٣) المصدر السابق ص ١١٠ .

يرغبون في العيش في سلام (١) ، ثم لما تمكن أحمد مختار باشا من قبض المعاقل ووضع العسكر فيها طلب الدفاتر من الامام علي بن المهدي ثم استشار الامام وزراءه وكتابه وسائر الاشراف ، فأشاروا اليه بعدم تسليم ذلك ، لأنه بعد تسليم الدفاتر وقبض المعاقل يحصل اختلال البلاد ، ان باطلاع الوالي على الدفاتر يعرف ادارة البلاد ومصادرها وايرادها ، ومعرفة ذلك يكون سببا لطلب البلاد بعد قبض المعاقل ، وهذا خلاف ما كتبوا للسلطان ، وأن طلب الامام والاشراف والمشايخ للأتراك انما هو لقمع النافرين العصاة وقبض المعاقل والدفاتر خلاف المواد ، ويفهم من هذا الفرض الاستيلاء على البلاد ، ثم ان الشيخ محسن معيض أشار على الوالي قبل الاطلاع على الدفاتر أن يضرب الرجل الشقي المسمى المدفعى ، وكان هذا يقيم في شعوب شمال صنعاء بعشر دقائق ، وقد لقي الناس من هذا الشقي أنواعا من العذاب نهبا وقتلا وفي ذمته نفوس كثيرة من الأشراف أو غيرهم ، وأن الوالى العثماني اذا أخذ هذا الشقي استجلب قلوب العامة والخاصة وتسلم اليه الدفاتر وبعد ذلك تكون البلاد جميعها تحت يديه ويشكل حكومة حسب رغبته ، وكتب أحمد مختار للمدفعى ، يدخل تحت الطاعة وظن ان تحصنه في بيته يدفع عنه قوة الجنود والمدافع ، ولم ينظروا ما حصل لأمر عسير ، ولم ينفعه جمعه الكثير وما كان له من القوة ، فلما عرف الوالى العثماني تمنعه وعصيانه أخرج له شرذمة من العساكر ، وأخذ المدفعى مع ماله فحصل للناس السرور ، وبعد هلاك هذا الشقي رجفت القلوب هيبة للجنود السلطانية ، وسار الامن في جميع الربوع اليمنية ، ثم بعد ذلك طلب الوالى الدفاتر لمعرفة العشور اليمنية وأن ليس له طمع في ولاية اليمن ، بل

(١) سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية ، ص ٨٥ .

(١)

لتربية العصاة المحمدين ، ثم تسلم الوالى الدفاتر وبعد تسلمها شكل حكومة ،
فى مدينة صنعاء لتسيير دفة الحكم فى ولاية اليمن التى أصبح مختار باشا واليا
عليها من قبل السلطان العثمانى عبدالعزيز سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢ م) وحاول
أحمد مختار أن يجذب اليه قلوب العامة من اليمنيين دون الخاصة حتى يحبيهم
فى النظام العثمانى الجديد ، وقام بطرد الموظفين اليمنيين ، وعين فى وظائفهم
مأمرين من الأتراك حتى يكونوا أداة طيعة فى يده لتدعم الحكم العثمانى فى
البلاط ، أما بالنسبة للإمام فقد عرف العثمانيون مكانته الروحية بين أتباعه —
الزيديين ، ورأوا أن يسمحوا له بالإقامة فى صنعاء مع منحه معاشا شهريا بشرط
أن يقتصر نشاطه على ممارسة نفوذه الروحى بين أتباعه بما لا يتعارض مع مصالح
الحكومة العثمانية فى الولاية ، (٢) ثم أخذ أحمد مختار فى توطيد الامن
والقضاء على الخلافات وبعد انقضاء أربعة أشهر توجه من صنعاء موسى كاظم
باشا وفضل باشا على رأس قوة عسكرية عثمانية للسيطرة على كوكبان الواقعة
فى شمال غرب صنعاء ، وكان يحكمها الامام الزيدى أحمد بن محمد شرف الدين
كما كان يحكم المنطقة الممتدة غرب كوكبان حتى حدود تهامة وقد أخذ الامير
يدعم الحصون التابعة له فى جبل كوكبان ، وذلك عندما سمع بهجوم العثمانيين
الذين حاصروه سبعة أشهر وتمكنوا من السيطرة على المنطقة بأكملها بعد أن نشب

(١) الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ١١٠ - ١١١ .

(٢) فاروق أباطه ، الحكم العثمانى لليمن ، ص ٩٥ .

بين الجانبين معارك دامية استسلم في نهايتها أمير كوكبان ، وقتل فيها أخوه وقائد جنده ، (١) وهكذا تمكن الحكم العثماني من الوصول الى صنعاء والقضاء على الخلافات الناشبة فيها ومحولها ، ولكن أخفق الحكم العثماني في بسط نفوذه على الجهة الشمالية التي ظلت تحت حكم المتوكل المحسن بن أحمد الى أن توفي سنة ١٢٩٥ هـ (١٨٧٨ م) فخلفه الالم الهادي شرف الدين بن محمد (٢) كما أن السيطرة العثمانية لم تصل الى شرق اليمن الأعلى ولا جنوب اليمن الأسفل حتى أن مأرب ، وصعدة ونجران وشهارة ، وقفلة عذر ، وما حولها من القبائل شديدة البأس مثل حاشد ويكيل وأرحب وذر حسين وأمثالها ظلت تحت الائمة والمشايع المحليين (٣) ، ولقد تتابع الولاة العثمانيون على اليمن بعد أحمد مختار على النحو الآتي : أحمد أيوب ١٢٩٠ - ١٢٩٣ هـ (١٨٧٣ - ١٨٧٦ م) وفي عهده ثارت قبيلة خولان فخرجت من صنعاء فرقة استطاعت أن تخمد الثورة وتدخل القبيلة تحت الطاعة (٤) ، ثم يأتي مصطفى عاصم ١٢٩٣ - ١٢٩٥ هـ ، ١٨٧٦ - ١٨٧٨ م الذي اتخذ سياسة جديدة اتسمت بمروءة من الشدة والقسوة ومن ذلك أمر باعتقال عدد من كبار علماء صنعاء وسجنهم في الحديدة ، ومن ضمنهم رئيس العلماء ، أحمد محمد الكيسي ، ومحمد بن قاسم الحوثي ، ومحمد

(١) الواسعي ، تاريخ اليمن ، ص ١١٢ .

(٢) احمد حسين شرف الدين ، اليمن عبر التاريخ ، ص ٢٦٥ .

(٣) فاروق أباطة ، الحكم العثماني لليمن ، ص ٩٥ .

(٤) الواسعي ، تاريخ اليمن ، ص ١١٧ .

ابن اسماعيل ، وطلح الجديري ، ومحمد المطاع ، ومحمد بن يحيى حميد الدين
الذى مهد لثورة عارمة (١) ، والذي لقب بالالام المنصور ، وذلك بسبب ولائهم
لالام المتوكل محسن بن أحمد الشهاري ، ثم يأتي حافظ اسماعيل حتى ١٢٩٥ -
١٢٩٩ هـ (١٨٧٨ - ١٨٨٢ م) الذي اتصف بالعدل والاستقامة ، ومن أهم
أعماله انشاء أربعة طوابير أو ألوية في الجيش من اليمنيين ودرهمهم أحسن تدريب
عسكري ، ولكن الحكومة العثمانية ألغت هذه الطوابير ، وعزلت والي لأن ذلك
في اعتقادها يساعد على تقوية مركز اليمنيين (٢) . أما سعيد عزه باشا -
١٢٩٩ - ١٣٠٢ هـ (١٨٨٢ - ١٨٨٥ م) فقد سعى الى التقريب بين الاتراك
واليمنيين ، الا أنه لم يستطع أن يضع حدا لنشاط اليمنيين ضد العثمانيين
وتوفي بعد ذلك فتولى الولاية أحمد فيضى باشا ، ولكنه لم يستمر في الولاية سوى سنة
واحدة ان استعمل القسوة في معاملته للناس ، وكان قبل ذلك متصرفا في عسير ،
وبذا كرا الواسعى أنه أرسل الجنود الى همدان وأمرهم بالهجوم على كل بيت فيه
حبوب ، وذلك بسبب المجاعة التي مرت ببلاد اليمن ، وأخيرا أرسل أحمد فيضى
الى مكة قومندان (٣) ، وعين عزيز باشا ١٣٠٣ - ١٣٠٥ هـ (١٨٨٦ - ١٨٨٨ م)
الذى أزال الجور عن الناس ومنع الرشوة بين الموظفين العثمانيين وحارب الالام

(١) أحمد حسين شرف الدين ، اليمن عبر التاريخ ، ص ٢٦٥ .

(٢) محمد يحيى الحداد ، تاريخ اليمن السياسي ، ص ٣٥١ .

(٣) الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ١٢١ .

المهادى شرف الدين بن محمد فى معركة قامت بينهم فى جبال عيال يزيد ، واستطاع اليمينيون أن يسجلوا انتصارا ، وقد أرجع العثمانيون أسباب الهزيمة الى عدم اخلاص عبد الله بن أحمد الضلعى الذى يعرف بعبد الله باشا ، وكان عضوا فى المجلس الحاكم فى اليمن ، ثم يأتى عثمان باشا ١٣٠٥ - ١٣٠٧ هـ (١٨٨٨ - ١٨٩٠ م) الذى انتهج سياسة الارهاب وأشاع أخذ الرشوة ، واعتقل عبد الله الضلعى الآنف الذكر وأرسله الى مدينة عكا فى فلسطين ، كما اعتقل القاضى يحيى بن أحمد المجاهد صاحب تعز ، إلا أن هناك أوامر سلطانية صدرت بالافراج عنه ، ثم يأتى عثمان نوري باشا سنة ١٣٠٧ هـ (١٨٩٠ م) الذى وصف بالاستقامة والتواضع ولقب بالفقيه ، ولكن كبار موظفى العثمانيين فى اليمن عطوا ضده فعزل من منصبه فى نفس العام (١) ، وسوف نكمل ذكر الولاة الذين فى عهدهم قامت الثورة اليمنية ضد الحكم العثمانى فى فصل لاحق .

وهكذا وبصفة عامة فإن الائمة فى صنعاء لم يشعروا قط بالهدوء والسكينة منذ أن أعيد تثبيت الحكم العثمانى لليمن سنة ١٨٧٢ م ، إذ وجد الائمة الزيدية فى فترة من الفترات أنه من السياسة والحكمة احترام السلطان الخليفة على الرغم من الاختلافات المذهبية فيما بينهم ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا تملأ معاشره الموظفين العثمانيين الذين يرسلون الى بلادهم أو شاركهم (٢) ، كما

(١) محمد يحيى الحداد ، تاريخ اليمن السياسى ، ص ٣٥٢ .

(٢) هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن فى طوك العرب ، ص ١٢٠ .

نلاحظ أن الولاة العثمانيين لم يسيروا في حكمهم على وثيرة واحدة ، بل نجدهم يديرون البلاد على حسب الحالة الموجودة ، لذلك نلاحظ اختلاف المعاملة بين الولاة واليمنيين ، كما نلاحظ أيضا سرعة تغيير الولاة في بعض الأحيان ، كل ذلك التحكم يعود لأثر قناة السويس التي ساعدت الدولة في فرض السيطرة على هذا الاقليم ، وانصرف العثمانيون الى تنظيم شئون اليمن ، فقسموها الى أربعة ألوية وهي صنعاء والحديدة وعسير وتمز ويمثل الجدول الآتي عدد الأقضية والقرى التابعة لكل ولاية من الولايات السابقة :-

الدواء	قرى	نواح	قبائل	عزب	قرى
صنعاء	٨	٢٦	-	١٠٣	٢٦٧٢
الحديدة	٨	١٦	٣٨	١٧٣	-
تمز	٥	-	-	-	٢٦٦٧
عسير	٦	-	٣٤٣	-	-
المجموع	٢٧	٥٤	٣٨١	٢٧٦	٦٣٣٩

(١)

واتخذ العثمانيون من مدينة صنعاء مقرا للوالي العثماني (٢) ، ويصدر

(١) ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٢) سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، ص ٨٦ .

بتعيينه فرمان من الباب العالي الذى لا يحدد مدة ولايته، ويتبع هذا الوالى
ألوية اليمن الأربعة، والمتصرف يمثل الوالى فى حدود اللواء الذى يحكمه
ويرجع اليه فى مختلف الأمور وكان يتبع المتصرفين قائمقامون للأقضية التى كانت
تنقسم اليها الألوية، وولى هؤلاء المديرين الذين يسيطرون نفوذهم على مناطق
محدودة داخل الأقضية ولم يكن النفوذ العثماني ممثلاً فى المناطق اليمنية
التي لا يمكن فيها حماية ممثلي العثمانيين، حتى أن كثيراً من الأتراك المكلفين
بمهام إدارية أو دبلوماسية فى المناطق النائية داخل الولاية كانوا يتعرضون
لصعاب جمة، وقد اشتمل كل لواء من ألوية اليمن الأربعة على عدد من المدن
الهامة، قلواء صنعاء كان يضم حراز، وحجة وذمار، وبريم، ورداع، وعمران، بينما
يضم لواء الحديدة زبيد، واللحية، والزيدية، وريمة، وسبت الفقيه، وباجل
وأبى عريش، واشتمل لواء عسير على أبها والقنفذة، وكان لواء تمز يضم أب،
والحجرية، ومخا، وقعطبة، (١) ومن ذلك يتضح أن الدولة العثمانية حاولت
تطبيق نظام الولايات الصادر سنة ١٨٦٤م فى اليمن، إلا أنها لم تطبقه بالكامل
لأن لليمن ظروف خاصة اتضحت من عرضنا حتى الآن، وأرادت الدولة العثمانية
أن تدخل كثيراً من وجوه الإصلاح ولكن نفوذ الامام وعناصر المحافظين كانت تقف
حجرة عثرة أمامهم، وزاد ذلك من سوء الموقف الداخلى، إذ أخذ الأئمة يشيرون
القبائل على حكم العثمانيين، حتى اتصف حكمهم بالحروب وقمع الثورات، واستخدام
القوة فى كثير من الأحيان، وزاد الحالة سوءاً أن كثيراً من الولاة العثمانيين كانوا

(١) فاروق أباطه، الحكم العثماني لليمن، ص ١٠٥.

يعتبرون تعيينهم في اليمن نفيا لهم ، فكانوا لا يأبهون لصالح البلاد ، كما كان بعضهم يقضى وقته في جمع المال أو في الانصراف الى الطذات ، ومع ذلك فهناك ولاية قاموا بأعمال جليلة ، واتصفوا بالعدل والحب للشعب اليمني واهتموا بشأنه ، ومع ذلك لا يستطيع أحد أن ينكر أن الدولة حرصت على ادخال الاصلاحات الحديثة بانشاء المدارس والمستشفيات وأقاموا المساجد كما أدخلوا نظام الطغراف (١) ، وأقاموا بعض الشكاات العسكرية ، ثم بدأوا ببناء سكة حديد من شطال الحديدية في اتجاه صنعاء ، ولكنهم أوقفوا العمل فيه عند باجل . وعلى بعد بضعة كيلومترات (٢) كان بعض أولئك المصلحين يريدون دفع البلاد الى الامم لتسير مع الزمن ، ولكنهم كانوا اذا فعلوا ذلك وجدوا من يتهمهم من أهل اليمن بخروجهم عن الدين . (٣)

وهكذا يتضح من العرض السابق للحالة التي كان عليها اليمن بعد افتتاح قناة السويس ، ان أعيد تثبيت الحكم العثماني وعاد لليمن الهدوء والسكينة ، وأصبحت الدولة على اطلاع دائم بأحوال اليمن الداخلية ، واستطاعت أن تعين الولاية على حسب الحالة التي كانت عليها البلاد ، وحاولت كذلك أن تطبق نوعا

(١) احمد فخري ، اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٢) محمد يحيى الحداد ، تاريخ اليمن السياسي ، ص ٣٦٤ .

(٣) احمد فخري ، اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ١٦٠ .

من نظام الولايات ، وهذا يعود لقناة السويس التي سهلت الاتصال السريع
بتلك المناطق ، بالإضافة الى خطوط الطرقات ، وجاءت تثبيت نفوذ الدولة
في عسير ثم في اليمن بمطابقة خطوط تأمين للحجاز ، أو بمعنى آخر تأمين
لمركز الدولة في الأماكن المقدسة الإسلامية .

بعد استيلاء القوات العثمانية بقيادة احمد مختار باشا على صنعاء وعمران وكوكبان ، بالإضافة الى منطقة الجنوب ريمة وتعز ، اتبع احمد مختار القسوة في معاملة اليمنيين ، وذلك بقصد القضاء على المقاومة ودعم النفوذ العثماني ، واستتب الامر بالفعل للعثمانيين في اليمن فترة من الزمن ، وأراد العثمانيون أن يستغلوا فترة الهدوء السائدة في اليمن في ذلك الوقت ، وأن يتجهوا نحو الجنوب ، إذ طمعوا في جفاف الهضبة الجميلة التي تكثرت فيها المحاصيل ، ويوجد بها نحو ٣٦٠ بئرا ، وارتفاعها عن سطح البحر يقارب ثمانية آلاف قدم ، وتطل على نجد الضالع من جهة الشرق ، وفي المدى المقابل تظهر في الأفق مرتفعات جبل حرير الشاعقة والممالة ، بينما يطل الشمال على أصقاع حصبة ، ومن خلفها تقف سلاسل جبال صفا وراء صف ، وإلى الجهة اليسرى من الناحية الامامية تداعب الرياح سطح المياه القضية التي تعكس ضوء الشمس من نهري تيان الخصيب الذي وصل ذات يوم الى البحر مارا بالشيخ عثمان (١) ، ومن أجل ذلك رأت الدولة ضرورة احتلال تلك المناطق بالإضافة الى انهيار الوجود البريطاني في تلك المنطقة ، ومع بداية يناير طفق التدخل العثماني في جنوب الجزيرة العربية يزداد تلهورا ، وقلق سلطان لحج من احتمال هجوم كبير يجرى على أراضيه ، واعتبرت الحكومة البريطانية أن هذا الاجراء اذا ما حدث

(١) هارولد ف . عدن وجنوب اليمن في ملوك العرب ، ص ٩٣ .

فسوف تعتبره خطرا على مصالحها في عدن (١) ، وكان إيرال جرانفيل Granville وزير الخارجية البريطاني يعتقد أن الباب العالي لن يقوم بأية إجراءات عدوانية ضد سلطان لحج الا بعد الاتصال بالحكومة البريطانية ، وطلب جرانفيل من السير اليوت Elliot السفير البريطاني في الاستانة أن يبلغ الباب العالي " أنه من الخطورة بمكان حدوث أى تدخل من جانب السلطات التركية في هذه المنطقة ضد حكام أصدقاء بريطانيا العظمى وحكومة صاحبة الجلالة تتركه أى حدث يزعج المنطقة . (٢) وهنا على تلك التعليمات اجتمع السير اليوت Elliot بخليل باشا وزير خارجية الدولة العثمانية الذى أكد له بأنه لن تحدث أى عملية توسعية بجوار عدن دون تعليمات من الباب العالي الذى لن يعطى مثل هذه التعليمات دون الرجوع الى الحكومة البريطانية ، وأشار خليل باشا من ناحية أخرى الى أن الباب العالي يعتبر لحج جزءا من الاراضى اليمنية التى كانت في ذلك الوقت خاضعة تماما لسيادة السلطان وأضاف خليل باشا أن التفاصيل سوف تبلغ بها حكومة جلالة الملكة التى على أية حال يجب أن تلاحظ مراعاة الدولة العثمانية للادعاءات البريطانية (٣) ، ويلاحظ أن لهجة الباشا كانت

-
1. C.R.T.P. No:1 Earl Granville to Sir Elliot Jan 1, 1873.
 2. C.R.T.P. No:2 Earl Granville to Sir Elliot Jan 23, 1873.
 3. C.R.T.P. No:3 H.Elliot to Earl Granville Jan 3, 1873.

حازمة ، وشطت التعهد بعدم القيام بأية عطيات توسعية في منطقة جنوب الجزيرة العربية دون الاتصال السابق بالحكومة البريطانية ، وليس من الحكمة افتراض ادعاء الباشا أحقية الباب العالي في استدعاء رؤساء المنطقة لتقديم ولائهم له ، لأن أرض اليمن تابعة لسلطة الباب العالي ، ثم أكد جرانفيل للسير اليوت Elliot بأن يوضح للباب العالي بأن الحكومة البريطانية سوف تنظر بعدم الارتياح لأية عطيات تقوم بها السلطات التركية في اليمن من شأنها ازعاج المناطق المجاورة لعدن .

وكان نتيجة للهجة خليل باشا ضرورة اخطار الحكومة التركية بأن المشكلة ليست مشكلة تلك الاراضى التى تحتلها الحكومة البريطانية فى عدن ، وأن ليست هذه الحكومة فى حاجة الى تأكيد احترامها من جانب الباب العالي ، بل ان المسألة هى وجوب منع السلطات التركية فى اليمن من التدخل فى شئون سلطان لحج والرؤساء العرب الآخرين فى المنطقة الذين بينهم وبين الحكومة البريطانية علاقات ودية بزعم أن اليمن تابعة للباب العالي ، وأن هؤلاء الرؤساء يعيشون فى أرض تابعة لولاية اليمن ، وهم بذلك يعتبرون رعايا الباب العالي ، واستمر جرانفيل Granville يوضح وجهة نظر الحكومة البريطانية فى التعليمات المرسلة للسير اليوت Elliot " وأيا كانت حقوق الباب العالي فى السيادة على اليمن فإنه من المعروف أن اليمن منذ سنة ١٦٣٣م كانت تحت حكم رؤساء عرب مستقلين عن الباب العالي وحكومة جلالة الطكة لا ترغب فى مناقشة هذه

المسألة بصفة عامة ولكنها تود أن يحاط الباب العالي علم بأن حكومة جلالة
الملكة ترغب في احترام استقلال الرؤساء الوطنيين القيمين بجوار عدوم وأن
حكومة جلالة الملكة لن تقف مكتوفة الأيدي إذا ما حدثت أية محاولة للانتقاص
من سيادتهم * (١) . ونفذ السيراليوت Elliot التعليمات الصادرة إليه
من وزراء الخارجية البريطانية وأعد مذكرة للاتصال بالباب العالي ومناقشته
بخصوص العلاقات بين سلطان لحج وحكومة عدن (٢) ، وقد جاء في تلك
المذكرة أن لحج التي تقع داخل خمسة عشر ميلا من نطاق نقط الحسيب ود
العسكرية لعدن وهي المدينة الرئيسية التي تسيطر على البلد كلها ومنها
تأخذ عدن جميع امداداتها من الحبوب والملف والماء وغير ذلك ، وأن سلطانها
يتقاضى راتباً شهرياً من الحكومة البريطانية نظير قيامه هو وشعبه بامداد عدن
وجعل الطريق مفتوحة بين سلطنته والمناطق المجاورة لها وأن سلطان لحج
هذا لم يكن أبدًا تحت سلطة الباب العالي ، وقد حدث منذ عدة شهور ، وبعد
أن ترأس المشير أحمد مختار حكم مدينة صنعاء التي تبعد مالا يقل عن ١٥٠
ميلا ، دعا سلطان لحج ليحضر إليه ، ثم أعد بعد ذلك العدة ليهاجم هنتاش
التي تقع أسفل عدن ولقد أجاب سلطان لحج حاكم صنعاء بأن ولائه للحكومة
البريطانية حيث يتقاضى منها راتباً شهرياً ، هذا ولم تكن هناك اجابة أو اهتمام

1. C.R.T.P. No.4 Earl Granville to Sir H.Elliot Jan 30, 1873.

2. C.R.T.P. No.5 Sir H.Elliot to Earl Granville Jan 24, 1873.

من الباشا حاكم صنعاء ، كتمقيب على رد سلطان لحج ، ولكي يكون واضحا
فانه لم يكن هناك أى ظل للسلطة على أى من هذه الجهات للدولة العثمانية
ومن ثم فانه لم يكن يوجد أى مهرب لمحاولة الباشا اعادة السيطرة على المناطق
التي تحيط بمعدن (١) ، ولكنه يبدو أن سياسة الدولة بعد افتتاح القنصة
هى محاولة للقضاء على النفوذ البريطانى ، وقد وافق جرانفيل Granville
على مذكرة أعدها السير اليوت Elliot لتقدمها للباب العالى (٢) ، وفى
٣ فبراير أبلغ السير اليوت Elliot الصدر الاعظم بامتنانه لتأكيدات خليل باشا
بعدم القيام بأية اجراءات ضد سلطان لحج قبل الرجوع والتفاهم فى ذلك مع
الحكومة البريطانية ، فأجاب الصدر الاعظم بأنه قد فوض وزير الخارجية التركية
تفويضا كاملا بالنسبة لهذا الموضوع ، ولكي يزيد الامر تأكيدا اتخذ مجلس
الوزراء التركى قرارا بذلك ووضع تحت تصرف السلطان وقد أبدى السير
اليوت Elliot عند مقابلته لخليل باشا شكره الجزيل لما قاله الصدر الاعظم
الا أن خليل باشا طلق على ذلك بأن مجلس الوزراء قد فوضه فعلا بالنسبة لهذا
الموضوع ، الا أن مجلس الوزراء قرر فى نفس الوقت أن يبذل وزير الخارجية جهده
للحصول على موافقة الحكومة البريطانية بأن يقدم سلطان لحج خضوعه الاسمى

1. C.R.T.P., Enclosure 5. Memorandum Jan 24, 1873.

2. C.R.T.P. No.6 Earl Granville to Sir H.Elliott Feb.15, 1873.

للسلطان دون أن يلتزم بدفع أية ضريبة لخزانة الدولة العثمانية أو تقديم أية خدمة لها ، وأجاب الميوت على ذلك بأنه يأمل ان لا يقدم هذا الاقتراح للحكومة البريطانية لأنه متأكد تماما بأنه ليس هناك احتمال لقبوله ، كما أشار الميوت Elliot الى أن مشكلة الارض المتنازع عليها ليست أمرا جديدا ، فمنذ سنة ١٨٣٩م عندما كان والى مصر مسيطرا على اليمن فانه اعترف بأن الجبال الواقعة شمالى سهل لحج تشكل حدود اليمن ، وأضاف الميوت Elliot أن " حكومة جلالة الملكة لن تقف مكتوفة الايدي أمام أى ضغط على القبائل المستقلة والتي تقطن المنطقة الواقعة قرب برزخ باب المندب " ويبدو أن الباب العالي لم يكن يود أن تسود العلاقات بينه وبين الحكومة البريطانية ، وفى نفس الوقت كان راغبا فى اختيار أفضل وسيلة للتراجع بعد الموقف الذى وضعته فيه الاجراءات التهديدية لوالى صنعاء " . ولا ريب أن هناك خوف من أن أى تنازل من جانب السلطان قد يكون مظهرا من مظاهر الضعف وانتقاص سلطته على الاقاليم المعترف له فيها بالسلطة (١) ، ويبدو أن هذه الاجراءات كان لها أثرها ان وضع الباب العالي سياسة على أساس عدم القيام بأية عملية عدائية ضد الرؤساء العرب فى المنطقة المجاورة لعدن (٢) ، كما أبلغ الصدر الاعظم السير الميوت Elliot أنه أصدر أمرا للحاكم العام لليمن بأن يكف عن التدخل

1. C.R.T.P. No.4 Sir H.Elliot to Earl Granville Feb.12,1873.

2. C.R.T.P. No8 Sir H.Elliot to Earl Granville Feb.12,1873.

فى شئون حاكم لحج أو مضايقتة ، وأن يترك الأمور تسير فى المنطقة المجاورة
لعدن كما كانت فى السابق (١) ، وكان الباب قد تدرع للسيير اليوت
Elliot بأن سلطان لحج هو الذى حاول الاتصال بحكومة السلطان دون
أن يطلب منه ذلك . (٢)

تطورت الأمور تطورا جديدا مع بداية شهر مايو سنة ١٨٧٣م ان وصلت
أبناء الحاكم الهند العام بأن الوالى العثمانى فى تعز أرسل الى الوكيل
التركى فى عدن بأن المشير فى صنعاء أمر بمنح سلطان الحوشى راتبا شهريا
قدره ٥٠ ريالاً ، كما أصدر تعليماته بأن تتقدم قوة عثمانية الى بلاد سلطان
الحوشى لحماية بلاده ، وإذا كان ذلك قد حدث فعلا فانه يكون معارضا
لتأكيدات خليل باشا . (٣) وقد تساءل الحاكم العام للهند عن أحقية الحكومة
البريطانية فى وضع تلك الاقاليم التى هى تحت حمايتها ، وما يجب أن تقوم به
حكومتها بالنسبة لادعاء الحكومة العثمانية ، وكذلك بالنسبة للاقاليم نفسها .
وكان الحاكم العام للهند يرى أن الحكومة البريطانية تبنى أحقيتها فى وضع
رؤساء هذه الاقاليم على أنها مستقلة عن السيطرة والنفوذ التركى منذ القرن
الماضى ، وأن الحكومة البريطانية قد دخلت فى علاقات وطيدة مع هذه الاقاليم

-
1. C.R.T.P.No.10 Sir H. Elliot to Earl Granville Feb.14, 1873.
 2. C.R.T.P.No.12 Sir H. Elliot to Earl Granville Feb.14, 1873.
 3. C.R.T.P. Enclosure in No.13, The Victory to the Duck, May 19, 1873.

بدون الرجوع الى الدولة العثمانية أو أية قوة أجنبية أخرى ويمكن القول أن هناك ارتباطات حديثة يمكن أن تتخذ ذريعة لتسوية ذلك ، ومن ناحية أخرى فقد كان الحاكم العام للهند يرى الاجراءات الحالية التي يتخذها المسئولون الاتراك تعتبر ضارة للمصالح البريطانية ولهذا يمكن أن تكون هناك أرضية جيدة لمثل هذه الارتباطات من قبل الحكومة البريطانية مع حكام هذه الاقاليم ، وتمسكنا بهذه الارتباطات هو لصالح الامن والسلام ، ولن يكون هناك بعد ذلك أى اعتراضات يمكن أن تقدم تجاه احتلالنا لتلك المناطق " ومما يذكر أن المبدلى حاكم أهم وأكبر اقليم فى هذه المنطقة قد طلب المساعدة والحماية البريطانية .

ومع أن حكام تلك الاقاليم قد حققوا أنواعا من الاستقلال ، فانهم ليسوا تحت سيطرة الحكومة البريطانية ولكن الحكومة البريطانية منحهم منذ بضعة سنين رواتب ، وكانت تتدخل فى فض النزاع الداخلى بين تلك الاقاليم ، ولقد كانوا ينظرون لحاكم عدن على أنه صديق وناصح أمين فى جميع قضاياهم ، ومشاكلهم أما بالنسبة للظاهرة الثانية والتي تتمثل فى حق الحكومة البريطانية فى تلك الاقاليم تجاه حكام الاقاليم أنفسهم يمكن أن يلاحظ أنه بينما نعتبر أنفسنا أحرارا فى عدم فرض اجراءات نحو هؤلاء الحكام العرب ، فاننا نرى أنه من الضرورى ، ولصالح ممتلكاتنا فى عدن أن نكون بعينين تامل من فرض أية اجراءات قهرية ، ويمكننا أن نقول أن حماية مصالحنا وأهدافنا تتطابق مع وجهة نظرنا مع مصالحنا وأهداف حكام الاقاليم العرب وأشار الحاكم العام للهند الى أنه يجب مد الحماية

البريطانية لتشمل مناطق المبدلى والفضلى والمقربى ، والحوشى والحدوى
والاميرى والصبيحى واليافعى والمولقى التى عقدت معها معاهدات فى اوقات
مختلفة (١) ، وقد اعتمد وزير الخارجية البريطانى جرانفيل Granville
على مذكرة حاكم الهند الاخيرة عند ارساله تعليماته للسير اليوت Elliot ففى
١٥ مايو سنة ١٨٧٣م فقد طلب جرانفيل Granville بأن يكرر اليوت Elliot
تأكيداته بخصوص تمسك حكومة جلالة الملكة فيثا بيمين وأشار الى أنه
يجب التمسك بهذه الآراء وذلك بالنسبة للتدخل العثمانى فى شؤون القبائل
العربية التى حدودها الحاكم العام للهند عند المناقشات مع الباب العالى (٢) .
الا أن الأمور تطورت بسرعة ، فقد وردت تقارير من عدن تفيد بأن مجموعات من
الجنود العثمانيين وموئتهم تتمركز فى أراضي الحوشى فى لحج (٣) وبدأت
بالفعل تحركات للجنود العثمانيين بالقرب من المنطاطق المجاورة لعدن ،
وهذا لا يتطابق مع التأكيدات التى سبق أن أعطاها الباب العالى ، ثم طلب
جرانفيل من السير اليوت أن لا يضيع الوقت فى ابلاغ ذلك الأمر الى الحكومة
العثمانية ، وأن يطلب اصدار تعليمات سريعة لسلطاتها فى اليمن لسحب القوات
العثمانية الموجودة فى المنطقة ، والكف عن القيام بأية أعمال مقلقة للقبائل التى

-
1. C.R.T.P. Enclosure 2 in No.13. The Governer Gennd of India in counsil to the Duck of Argilly, April 11, 1873.
 2. C.R.T.P. No.13 Earl Granville to Sir Elliot May 15, 1873.
 3. C.R.T.P. No.14 Earl Granville to Sir Elliot May 23, 1873.

التي بينها وبين عدن علاقات ودية، ولا بد من احترام التأكيدات التي أعطيت لحكومة جلالة الملكة بهذا المبدأ (١)، وقد اتصل السير البيوت بالباب العالي وطالبهم بإصدار أوامر في الحال بانسحاب القوات العثمانية التي دخلت في أراضي سلطان الحوشى، كما أوضح وجهات النظر البريطانية، مع اتخاذ لهجة يشوبها التهديد حين قال: "... ان الاجراءات التي اتخذتها السلطات العثمانية مست المصالح البريطانية في عدن، وان حكومة جلالة الملكة تضع في اعتبارها اتخاذ ترتيبات قد تراها ضرورية للمحافظة على سمعتها وأمن المستعمرة البريطانية، وان مسئولية اتخاذ هذه الاجراءات تقع على أولئك الذين فضلوا إثارة القلاقل في منطقة ظلت مستعمرة مدة طويلة .

وأجاب رشيد باشا أنه على الرغم من عدم ادراكه صدق ما ادعاه من تأثير المصالح البريطانية في حالة اعتراف الرؤساء العرب في المنطقة بسلطة الباب العالي، فإنه - أى رشيد باشا - يؤكّد بأنه لن يتخذ بعد ذلك أية اجراءات من شأنها أن تدهور العلاقات مع الحكومة البريطانية (٢) . وصدرت بعد ذلك أوامر من الباب العالي للوالى باليمن تقضى بسحب المجموعات العسكرية التي دخلت أراضي الحوشى (٣) ثم بدأ التدخل واضحا في بلاد الاممى،

-
- 1.C.R.T.P. No.15 Earl Granville to Sir Elliot June 5,1873.
 - 2.C.R.T.P. No.16 Earl Granville to Sir Elliot May 30,1873.
 3. C.R.T.P.No.17 Earl Granville to Sir Elliot June 1,1873.

واضطرب الموقف على الحدود الجنوبية لليمن ، ان كان الشيوخ المتحالفين مع بريطانيا بموجب معاهدات وارتباطات يواجهون مصاعب وتهديدات ضخمة من خلال تصرفات العثمانيين ، ولا ح أن موقف البريطانيين سوف يستمر مزعزعا في عدن الى أن تصدر التعليمات الى السلطات العثمانية بالاقلاع عن التدخل في شئون هؤلاء الرؤساء (١) ، وفي الخامس من يونيو سنة ١٨٧٣م توجه أحمد أيوب باشا الوالي الجديد لليمن ومعه تعليمات مشددة بسحب القوات العسكرية التي عسكت في قصر الحوشى ، وأن يظل بعيدا عن التدخل بأي طريقة في شئون الاقاليم التي تربطها علاقات صداقة مع حكومة جلالة الملكة (٢) ، وفي ٢٧ يونيو سنة ١٨٧٣م وصلت قوة مكونة من مائتين من الجنود العثمانيين وفيلق قوامه مائتين من الجنود العرب غير النظاميين من قطيفة الى الراحة عاصمة الحوشى ، وهناك خمسمائة من الجنود العثمانيين وصلوا الى مرساد الصبهي ، وسوف تتقابل المجموعات التي في الراحة ومرساد في منطقة زائدة ، ويبدو أن تعليمات الباب العالي القاضية بسحب القوات الموجودة في أرض الحوشى لم تصل بعد الى صنعاء ، (٣) ، واستفسر السير اليوت عن هدف

-
- 1.C.R.T.P Enclosure -2 in No.19 regadier General Schneider to Mr. Gonne May 12, 1873.
 - 2.C.R.T.P No.20 Sir H.Elliot to Earl Granville June 10, 1873.
 - 3.C.R.T.P No.21 Schneider to Duck of Argyll June 27, 1873.

الحوادث الأخيرة بالإضافة الى الاجراءات التي اتخذتها السلطات العثمانية ضد القبائل الواقعة بجوار عدن في الشحر والمكلا ، فأجاب رشيد باشا بأنه قد صدرت تعليمات بالفعل تقضى بانسحاب العثمانيين من أراضي سلطنة الحوشى ، وقد اتصفت الاجابة بالتهرم بسبب اصدار هذا الامر ، واسترسل رشيد باشا فى اجابته للسير اليوت " . . . ليس فى الوقت الحاضر هو المناسب لمناقشة استقلال الولايات التسع لمقاطع الحج ، والذي تنادى به الحكومة البريطانية وكذلك بالنسبة لاقليم حضرموت ، ولا نريد مناقشة شرعية المعاهدات التى أبرمتها الحكومة البريطانية مع الاقاليم السابقة الذكر " . واستمر رشيد باشا يوضح وجهة النظر العثمانية للسير اليوت بالنسبة لوجود قوات عثمانية على أراضي الحوشى " . . . وهى الحادثة الوحيدة التى يمكن للحكومة البريطانية التحدث عنها ، ولا تعتبر كافية لكى يوصف بها الموقف ككل ، وعلاوة على ذلك فان الحكومة العثمانية بدأت تعطى أوامرها بسحب قواتها من أراضي الحوشى فوراً ، أما بالنسبة لوجود كسطين عثمانيين فى شكا والمكلا وكذلك الاقاليم التسع التى يربطها تحالف مع الحكومة البريطانية فلم يجد تفسيراً لذلك الا أنه أشار الى السفن التى تحمل العلم العثمانى والتى تتردد على حضرموت فانهم لا تمر بفرض ازدحام التجارة وسد حاجيات السكان المتزايدة كنتيجة حتمية للتطور والحضارة ، وذلك يبرهن على ازدياد التجارة وتقدم الحضارة ، الشىء الذى ترضى عنه بريطانيا ، وأضاف رشيد باشا أن السياسة العثمانية فى اليمن تهدف الى المحافظة على حسن الجوار ، والعمل على التقدم التجارى مع الاحترام الكامل

لعادات وتقاليد السكان في المناطق المجاورة وأضاف قائلاً " . . . ونحن نلاحظ بكل سرور أن تلك الاقاليم المجاورة لعدن تحتفظ بعلاقات ودية مع السلطات البريطانية ، ونحن مسرورين أيضا من أن هؤلاء السكان يستفيدون من وجود سوق رابحة لمنتجاتهم في أسواق عدن ، وأن ليس من هدفنا تخيير مثل هذه الاوضاع . . . " واختتم رشيد باشا كلماته باعرابه عن ألمه واعتقاده بأن تكون هذه التفسيرات الصريحة نهاية للاجراءات التي تقوم بها بريطانيا وتزيل الشك للمحادث المؤسف له والخاص بأراضي الحوشبي (١) ، وعلى الرغم من كل التأكيدات فان والي الجديد لليمن أحمد أيوب باشا والذي قيل بأن معه تعليمات تقضى بسحب الجنود العثمانيين من أراضي الحوشبي لم يقيم بسحب الجنود العثمانيين من شكا ، بل وصلت ثلاثين فرقة من الجنود غير النظاميين لدعم القوة الموجودة هناك ، وكان ذلك في ٢٦ يوليو سنة ١٨٧٣ م (٢) ، وفسر رشيد الاحداث الأخيرة بقوله " . . . انه يجب على حكومة جلالة الملكة أن تتأكد من التعليمات الواضحة التي أعطيت للوالي العثماني الجديد لليمن كي يبتعد عن التدخل في شئون الاقاليم المجاورة لليمن ، والتي يربطها تحالف مع الحكومة البريطانية (٣) وأبرق رشيد باشا لتأكيد ذلك عن طريق والي مصر الى والي الجديد لليمن

1.C.R.T.P Enclosure No.23 Raschid Pasha to Sir H. Elliot
July 15, 1873.

2.C.R.T.P Enclosure in No.24 General Schneider to the
Duck of Argyll July 30, 1873.

3.C.R.T.P Enclosure in No.25 Sir H.Elliot to Earl Granville
August 5, 1873.

بأن يسحب القوات العسكرية في المناطق التي جاءت في التعليمات المرسلّة
أخيرا (١) ، وأرسل أحمد أيوب باشا خطابا على الرغم من تعليمات حكومته
بسحب قواته من أراضى الحوشى الى سلطان لحج باسم الشيخ فضل بن محسن
وجاء في هذا الخطاب أن الاجابة التي سبق أن أرسلها سلطان لحج الى الوالى
السابق لليمن أحمد مختار بتاريخ يوليو قد وصلت وأنه استخلص منها أن السلطان
فضل قد سلم خطاب أحمد مختار باشا الى الجنرال شنيدر Chneider المقيم
السامى فى عدن ، وأضاف أحمد أيوب أنه : " . . . يجب أن يكون مفهوما
أن الحكومة العثمانية لن تتخطى عن حقها فى سيادتها التي يجب أن تحرسها
وتحميها ، ومن تسول له نفسه أن لا يقدم ولاه ، فان الحكومة العثمانية سوف
تعاقب أولئك فى طريق الضلال (٢) ، " واعتبرت الحكومة البريطانية هذا
الخطاب مخالفة صريحة للتأكيدات التي سبق أن قدمها الباب العالي للحكومة
البريطانية (٣) ، واقترح بعد ذلك الجنرال شنيدر Chneider المقيم السياسى
فى عدن ارسال خطاب الى أحمد أيوب باشا لكى يعلم أن المقيم يعلم بالتعليمات
والأوامر المعطاة له من الحكومة العثمانية ، وجاء فى خطابه قوله : " . . . اننا
نضع أمام فخامتكم أن الكتاب العثمانى سواء النظامية أوغير النظامية ، والتي

-
- 1.C.R.T.P No.26 Sir H.Elliot to Earl Granville Sep.8,1873.
 - 2.C.R.T.P Enclosure 3 in No.27 Ahmed Ayot to Fadhl Bin Mohsin July 27, 1873.
 - 3.C.R.T.P Enclosure 3 in No.27 General Chneider to Gonne August 21,1873.

أرسلت بواسطة سلفك أحمد مختار باشا الى شكافى اقليم الحوشى لـم
تنسحب حتى الآن ، ولقد تلقينا منذ فترة من الحكومة البريطانية أن فحاشمكم
قد أرسلت من استانبول بتعليمات من حكومة الباب العالى بسحب القوات
السابق ذكرها من أراضى الحوشى ، ونحن نشق فى سعادكم بأنك سوف
تتخذ ما جاء فى التعليمات ، وأن تسمحوا بعودة الأمور الى ما كانت عليه فى
حالتها الطبيعية ، وذلك بعدم التدخل فى شئون الرؤساء الذين تربطهم
معاهدات مع الحكومة البريطانية أو يتقاضون رواتب منها* (١) الا أن الجنود
العثمانيين ظلوا مرابطين فى شكافى ورفضوا الانسحاب منها ، (٢) كما أن والى
اليمين أحمد أيوب باشا اجاب على خطاب المقيم السياسى شنيدر Chneider
السابق والخاص بسحب القوات العثمانية من شكافى طبقا للتعليمات الموجهة له
من الباب العالى ، وتجاهل هذه الاوامر والتعليمات ، وأوضح أن اقليم
الحوشى ألحق بتمز (٣) ، ونقلت هذه المعلومات الى وزارة الخارجية
البريطانية ، واتصل جرانفيل بالسير اليوت ، وأبلغه بضرورة الاتصال برشيد باشا
كى يصدر تعليمات وأوامر أكثر صرامة لوالى اليمين أحمد أيوب باشا (٤) ، وقد

-
- 1.C.R.T.P Enclosure 2 in No.27 General Chneider to Gonne August 21,1873.
 - 2.C.R.T.P No.28 John Koye to Lord Tenteden Oct.10,1873.
 - 3.C.R.T.P Enclosure in No.28 Chneider to the Duck of Argyll October 10,1873.
 - 4.C.R.T.P Granville to Sir H.Elliot October 17,1873.

وضح أحمد أيوب باشا وجهة نظره في تقرير جاء فيه " . . . يوجد بين هذه
الاقليم اقليم يسمى الصبيحي ، وبعض الاماكن على الساحل والتي تعتمد على
البن ، وهم في حالة هدوء ، وهؤلاء رغبة منهم ، وتتوجيه من شيوخهم قرروا أن
يكونوا تحت ظلال الباب العالي ، لذلك ليس من الضروري ارسال قوة عسكرية
... " أما بالنسبة لسكان الحوشى فقد وافقوا بمحض رغبتهم أن يكونوا خاضعين
للباب العالي ، وأن الوالى عين لحكمهم المشير على مانى أفندى ، وهم في حالة
هدوء وطاعة ، ولا يستلزم الأمر ارسال قوات عسكرية ، ولرغبة هؤلاء السكان الطمحة
في أن يصبحوا رعايا عثمانيين ، فان فضل محسن شيخ لحج أصبح عدوا لهم ، لذلك
أخذ يضطهدهم ، ويتعدى على حقوقهم وتبعا لذلك فانهم طلبوا الحماية ،
وتمشيا مع هدف المحافظة على حقوق الباب العالي والهدوء في تلك المناطق فانه
يجب ارسال قوة عسكرية اذا دعت الضرورة لذلك ، كما أشار أحمد أيوب الى أن
السلطان فضل بن محسن أخذ يتدخل في شئون سكان المناطق المجاورة ، والتي
هى تحت حكم المشير على مانى ، وهى مقر الحكومة المحلية ، كما ازدادت شكاوى
وهمسات الناس تجاه هذه الافعال ، وأمر الوالى بأن يخبر السلطان فضل بأنه
اذا كانت له ممتلكات في هذه المنطقة فسوف يسمح له بالمحافظة عليها شريطة
أن لا يتعدى على حقوق الآخرين ، وأن يخضع لتعليمات الحكومة العثمانية
والا فسوف تضطره السلطات العثمانية الى ترك تلك المنطقة . (١)

1.C.R.T.P Enclosure 3 in No.35 the Governor General of
the Yemen to the Grand Vizier August 6, 1873.

واتخذ التدخل العثماني شكلا آخر بالنسبة لسلطنة لحج ففي ٢٥
أغسطس زار السلطان فضل سلطان لحج المقيم السياسي البريطاني في عدن ،
وقدم شكوى في تصرف اخوانه عبد الله وعبد الكريم ، وابنه فضل بن عبد الكريم
الذي أرسل الى تعز ، وصنعا بدون اذن من السلطان ، وذلك بفرض تقديم
فروض الولاء والطاعة للسلطات العثمانية نيابة عن أشقاء السلطان عبد الله
وعبد الكريم ، وحمل فضل بن عبد الكريم عند عودته رسائل من الباشا كان
القصدها منها اضعاف موقف السلطان في سلطنته لحج ، والذي كان يخشى من
محاسبة سوء تصرف اخوانه الذين يعيشون في منزل حصين ، وأي تصرف منه
يؤدي الى حدوث صدام د موى ، واقترح السلطان فضل على المقيم السياسي
في عدن بايقاف مرتبات أخويه ، ومنع أى شخص يريد أن يزرع في الاراضى التابعة
له ، وذلك عقابا لأخويه ، الا أن المقيم السياسي وافق على ايقاف المرتبات ولم
يوافق على منح الزراعة فى أراضيهم ، واعتبر ذلك عقابا ضمنا للزراع ، كما أرسل
المقيم السياسي في عدن تحذيرا باسم الحكومة البريطانية للاخوان عبد الله
وعبد الكريم بأنهم اذا استمروا فى أعمالهم المعارضة لرغبات وتعليمات السلطة
الحاكمة فى لحج ، فان الحكومة البريطانية لن تتردد فى طردهم من البلد (١)
وتطورت الامور بعد ذلك ان هاجم أتباع عبد الله أخ السلطان فضل فى ٢٠ أكتوبر

1.C.R.T.P Enclosure 2 in No.34 General Chneider to
Mr. Gonne August 26, 1873.

سنة ١٨٧٣م سوتا في لحج ، الا أن السلطان فضل استطاع القضاء على هذه الحركة بعد أن قتل اثنان وجرح عشرة من الجانبين ، وتوسط الشيوخ بيسن السلطان فضل وشقيقه عبد الله الذي أعطى للسلطان ولده وولد عبد الكريم كرهائن دليلا على حسن النية ، الا أنه بعد ذلك قامت مجموعة مسلحة من الجنود العثمانيين وعددها ٢٥ جندي مجأت من شكا واحتلت منزل عبد الله المحصن في لحج ، وطلب قائدها من السلطان اعطاء الرهائن لأن عبد الله وأخاه عبد الكريم قاموا بمهمتهم ، وأصبحوا رعايا عثمانيين ولكن السلطان رفض تسليم الرهائن ، واتصل من الناحية الاخرى المقيم السياسي بقائد المجموعة ، وطلب منهم مغادرة لحج والا فسوف يصبح مسئولون عن النتائج كما أوصى المقيم البريطاني سلطان لحج بعدم الاحتكاك بالجنود العثمانيين الذين نزلوا في منزل أخيه عبد الله ، لأن ذلك سيمقد الامور ، وكانت وجهة نظر البريطانيين في حالة عدم انسحاب القوات العثمانية من لحج أنه يجب ارسال مجموعة عسكرية الى هناك (١) ، الا أن قائد المجموعة العثمانية نكأ في الانسحاب بقواته من لحج ، وذكر أنه في لحج بموجب تعليقات من قائده ، وأنه يمثل حاكم تعز ، وذكر أنه مسئول تماما عن حماية عبد الله على اعتبار أنه من رعايا العثمانيين (٢)

1.C.R.T.P Enclosure 1 No.31 General Schneider to Duck of Argyll October 20, 1873.

2.C.R.T.P Enclosure 5 No.36 General Schneider to Duck of Argyll October 27, 1873.

وبذلك يكون العثمانيون قد استفلوا الصراع الناشب بين أفراد الأسرة الحاكمة
فى لحج وكانوا على استعداد لمواصلة خطتهم فى استرجاع عدن وتأكيد
سيادتهم عليها ، واتخذ الموقف بعد ذلك طابعا خطيرا ، وأمر نائب الملك
فى الهند المقيم السياسى فى عدن بإرسال قوات بريطانية لحماية سلطان لحج
على أن لا يهاجم القوات العثمانية (١) ، واتصل جرانفيل بالسيراليوت لمناقشة
الوضع مع الباب العالي وقام اليوت Elliot باتصالات جديدة حددت بموجبها
الحكومة العثمانية تعليقاتها لوالى اليمن بعدم التدخل فى شئون القبائل
المستقلة ، وحذر السيراليوت رشيد باشا بأنه " اذا لم تحترم الحكومة
العثمانية الوعد الذى أعطته لحكومة جلالة الملك بخصوص هذا الصدد ، فان
ذلك سيؤدى الى عواقب وخيمة ، وأجابه رشيد باشا " بأن الأوامر التى صدرت
للوالى كافية ، وأنه لا يتوقع عدم احترامها ، ومقتنع بأن تكرار هذه الأوامر سوف
يكون لها تأثير " (٢) ، ودعمت الحكومة البريطانية نتيجة للتدخل العثماني
فى الاراضى المجاورة لعدن قاعدتها فى لحج بمجموعة عسكرية مكونة من
مدفعية ومشاة من البريطانيين ومهندسين عسكريين ورجال من العرب المواليين
للبريطانيين ، وذلك تحت قيادة الكولونيل ماكزى Mackenzie ، وذلك

1.C.R.T.P Enclosure 3 No.31 the Victory of India to the
Duck of Argyll October 22, 1873.

2.C.R.T.P No.33 Sir H.Elliot to Earl Granville Oct.14, 1873.

لمعاونة سلطان لحج ، كما أن هناك مجموعة أخرى مكونة من ٥٠ رجلا ممن
حاملو السيوف بقيادة هنتر Hanter توجهوا الى لحج ، وكان الفرض من هذه
القوات مواجهة التدخل العثماني المتزايد في المنطقة بدليل أنه عندما قام
سلطان لحج بزيارة المقيم السياسي للمرة الثانية وطلب مساعدته في القبض
على أخويه فأجاب شنيدر Chneider بأن السلطان هو الحاكم لبلادهم ويجب عليه
أن يكون قادرا على أداء واجبه الأمني * وأن تدخل الحكومة في مثل هذه
الحالة سوف يضعف سلطته بين الناس ، وانفى متأكد أن الحكومة لا توافق على
الاشتراك في اتخاذ أية إجراءات ضد أشقائه * (١)

وفي ٧ نوفمبر سنة ١٨٧٣م تقابل السير اليوت Elliot مع رشيد باشا
موضحا خطورة السياسة التي رسمتها السلطات العثمانية في اليمن بالنسبة
للأراضي العربية والتي تربطها بحكومة جلاله الطلحة معاهدات ، وأن إجراءاتهم
تتعارض كثيرا مع التأكيدات التي سبق أن قدمها الباب العالي للحكومة البريطانية
في مناسبات كثيرة ، وتماطل رشيد باشا في اجابته وتساءل هل تحدث
السير اليوت مع الصدر الأعظم بخصوص هذا الموضوع ، فأجابه اليوت بأنه أبلغه
بها وكذلك حثه على اتخاذ إجراءات سريعة لتدارك الموقف ، ثم أبلغه رشيد باشا

1.C.R.T.P Enclosure 5 in No136 Schneider to Mr. Gonne
October 20, 1873.

بأنه قرر ارسال كالم باشا الحاكم العام للقدس الى اليمن بوصفه مندوب عن الحكومة لتقصي الحقائق ، لتكون الحكومة على علم بالموقف السياسي ، ووعده بان الأوامر الى الحاكم العام لن تطلق القبائل ، وأجابه السير اليوت على ذلك بأنه " مما يدعو للسرور اعطاء هذا الوعد ، الا أنه مما يبطل قيمته أنه قد أعطى قبل ذلك أكثر من مرة دون أية نتيجة " (١) ، وفي ١٦ نوفمبر وصل عزل باشا ومعه بعض المستوطنين العثمانيين لحج ، حاملين خطابا من والى اليمن يطلب فيه المساعدة في احلال السلام بين السلطان وأخيه عبد الله ، الا أن المقيم البريطاني أخبر الباشا أن الحكومة البريطانية تنتظر انسحاب القوات العثمانية من لحج والحوشى طبقا للأوامر والتأكيدات التي أعطيت من قبل الحكومة العثمانية ، كذلك ان سلطان لحج لا يرغب في أن يتدخل العثمانيون في حل المسألة بينه وبين أخيه عبد الله وبجانب أن يكون خضوع عبد الله بلا قيد ولا شرط للسلطان فضل ، وأجاب عزل باشا بأن عبد الله تحت حماية العثمانيين لهذا فان القوات العثمانية جاءت لكي تحميه من السلطان - سلطان لحج - وذكر عزل بأنه لم يتسلم أوامر بخصوص الحوشى أو بقية الرؤساء الذين تربطهم معاهدات بالحكومة البريطانية (٢) ، وتسلم سلطان لحج خطابا من قائد

القوات فى تمز قال فيه " أن شهرا يقترب وأن القوات العثمانية فى شكاً تعاني من الازدحام لذلك يطلب السماح له بايواء بعض منهم فى زائدة حيث يطلبك سلطان لحج قلعة صغيرة وحامية عسكرية ، وأشار المقيم السياسى على السلطان أن يرفض السماح بذلك وإن يذكر سلطان لحج فى اجابته على القائد بأنه قد علم أن الحكومة العثمانية قد أصدرت أوامراً بانسحاب القوات العسكرية من مقاطعة الحوشى ، كما أشار المقيم أيضاً بعدم ارجاع الرهائن ، وأن يتجنب السلطان أى هجوم ضد القوات العثمانية ، كما أرسل المقيم السياسى خطابين إلى المتصرف العثمانى فى تمز ، وإلى قائد الكتيبة العثمانية التى فى منزل عبد الله بخصوص اتخاذهم اجراءات تخالف تماماً للأوامر والتعليمات التى صدرت من قبل الحكومة العثمانية ، كما أن الكابتن هنتر Hunter أرسل الى لحج ليساعد السلطان ، ويشرح للقائد العثمانى سخط الموقف الذى اتخذه من قبل المسئولين وذلك فى حالة عدم انسحاب القوات العثمانية . (١)

لم تتسحب القوات العثمانية من لحج والحوشى وتعمدت الأمور ، وازدادت حدة النزاع بين السلطان واخوته ، وذلك بسبب وجود القوات العثمانية ، لأن سلطان لحج لا يرغب فى تدخل العثمانيين الموجودين للدفاع عن عبد الله الذى كان تحت الحماية العثمانية ، (٢) وانتقلت المحادثات مرة أخرى الى استانبول ،

1.C.R.T.P Enclosure 3 in No.42 Schneider to Mr. Gonne
October 22, 1873.

2.C.R.T.P No.43 Earl Granville to Sir H.Elliott Nov.19, 1873.

حيث اجتمع السفير البريطاني السيمير اليوت بالباب العالي ورشيد باشا ،
وتحدث معهما بشأن استمرار احتلال اقليم الحوشى من قبل القوات العثمانية
مبينا اهتمام حكومة جلالة الملكة بهذه المسألة ، وفى ١٤ نوفمبر أخبر رشيد
باشا السير اليوت بأنه يجب ارسال برقية فى الحال الى والى اليمن وتساءل
اليوت عن الضمان الذى يمكن تقديمه لحكومة جلالة الملكة ، فأجاب أن القرار
قد اتخذ من مجلس الوزراء العثمانى ولا يمكن اهماله (١) ، وأرسل الصدر
الأعظم برقية الى والى اليمن فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٣ م " . . . اننى فهمت
من خطابك الاخير بأن لحج ليست لها علاقة مع اقليم الحوشى ، وبناءً على
طلب بعض شيوخ الاقليم أرسلت اليها بعض القوات العسكرية ، وفى رأى أنك
فعلت هذا الحمل تحت تأثير سوء الفهم عندما أرسلت القوات الى تلك المنطقة
لذلك يجب عليك سحب تلك القوات والضباط فى الحال ، كذلك أية قوات تكون
قد أرسلتها الى أى مكان آخر فى لحج ، ويجب عليك أن ترسل لى تقريراً عما تم
عطه طبقاً لهذه الأوامر ، الا أن العثمانيين قلقوا من وجود قوات بريطانية فى
لحج فاتصل موسورس باشا Musures السفير العثمانى فى لندن ، وزير
الخارجية البريطانى جرانفيل Granville وسلمه خطاباً من رشيد باشا جاء
فيه " ان ارسال فرقة من خمسمائة جندي من عدن لمنع احتلال لحج بواسطة

القوات العثمانية بعد اجراء ١٤ راجعا الى سوء الفهم الناتج عن حادثة شيخ لحج ومن المحتمل أن وجود بعض الجنود العثمانيين في أراضي لحج جذب أنظار السلطات البريطانية التي أثارتها التقارير المبالغ ، ولكن السير اليوت قد تأكد سابقا بأن الحكومة العثمانية ليست لديها نوايا للاحتلال ، وهذه الحقيقة لأن حكومة الباب العالي لم تدخر جهدا عندما وصلت اليها التفسيرات غير المتفقة مع ما يعنيه حادث سلطان لحج ، فأرسلت تعليمات سريعة للذين يمثلون السلطات العثمانية ، كذلك على القوات العثمانية أن تتجنب أى عمل ممكن أن يظهر للواقع هذه التفسيرات التي وضعت من قبل الحكومة البريطانية لحادث سلطان لحج ، واعتقد انه كان كافيا اخبار لورد جرانفيل بما جاز سابقا واعطاء تأكيدات رسمية بحسن نوايانا ، والبرهنة بأن المقياس الذى اتخذ كذريعة من قبل الحكومة البريطانية لا يمثل الحقيقة (١) . وعلق وزير الخارجية البريطاني Granville للسفير العثماني في لندن عن موقف بريطانيا بعد سحب القوات العثمانية من لحج والحيصوشى " . . . انه بعد حل المسألة تماما ، فأنا لا أتصور ان هناك أى غرض لوجود القوات البريطانية " ، (٢) ولا زالة الشكوك ، ولتجنب سوء الفهم في المستقبل ، فقد اتصل السير اليوت برشيد باشا للتأكد من أن التعليمات الحالية تكون قد فهمت بحيث تطبق على كل الاقاليم التي تربطها

1.C.R.T.P No.46 Rachid Pasha to Musures Pacha Nov.27,1873.

2.C.R.T.P No.50 Sir H.Elliot to Earl Granville Nov.21,1873.

معاهدات مع الحكومة ، والذي وعد الباب العالي بعدم ازواجها ، فأجاب
رشيد باشا بأن ذلك لا تعنيه التعليمات التي أصدرها* (١) ، ويبدو من خلال
ذلك نجاح الدبلوماسية البريطانية ، وعدم رغبة الدولة العثمانية الدخول في
صدام مكشوف مع القوات البريطانية ، لذلك انسحب الاتراك في السادس من ديسمبر
سنة ١٨٧٣م من لحج وشكا ، كما خلت المنطقة بين لحج وتعز من القوات العثمانية
وأن شقيقى سلطان لحج استسلما للمندوب الساسى فى عدن ، الذى أرسلهم الى
سجن الدولة فى عدن وكانت الحكومة البريطانية غير واثقة من تأكيدات الباب
العالي ، لذلك أرسل السير اليوت السفير البريطانى فى استانبول مذكرة الى
رشيد باشا أشار فيها أن لغة التعليمات المرسلة لوالى اليمن لم تكن واضحة
بحيث يمكن تطبيقها على جميع أنحاء البلاد التى بينها وبين بريطانيا معاهدات
والذى تعهد الباب العالي فى يولييه الماضى بعدم ازواجها ، واسترسل اليوت
فى مذكرته " . . . وعلى الرغم من توضيحي لفخامتكم ما جاء فى البرقية ، فأنك
أكدت لى أن الاوامر سوف تفهم بحيث تطبق على جميع أنحاء البلاد التى ارتبط
حكما مع بريطانيا بمعاهدات ، لذلك فليس من الضرورى العودة لعدم الفهم ،
والذى يمكن أن تقوله فخامتكم مستقبلا ، وانى آتمنى ارسال تعليمات اضافية
لوالى اليمن لقطع الشك عنه ، وتوضيح الامور بخصوص الموضوع . . . " (٣)

-
- 1.C.R.T.P No.47 Earl Granville to Sir Elliot Nov.27,1873.
 - 2.C.R.T.P No.53 Earl Granville to Sir Elliot Dec.9,1873.
 - 3.C.R.T.P Enclosure in No.56 Sir H. Elliot to Raschid Pasha Nov.13,1873.

ووعده رشيد باشا بأن التعليمات سوف ترسل حالا لوالى اليمن ، كما كرر القول بأن الباب العالي ملتزم بالحل الذى أعلنه بخصوص الاقاليم التى جاءت فى الموضوع ويأمل أن تسحب حكومة جلالة الطلقة القوات التى أرسلت الى عدن وأجاب السير اليوت على ذلك بأنه لا يملك أية معلومات بخصوص تلك القوات لكن حذره بأنه فى حالة عدم تنفيذ القادة العثمانيين للموعود التى أصدرها الباب العالي ، فان حكومة جلالة الطلقة ربما تفكر أنه من الضرورى اتخاذ بعض الاعمال لحماية المقاطعات التى شطبها التهديد من قبل القوات العثمانية (١) وهكذا انتهت المفاوضات الدبلوماسية بين الحكومتين البريطانية والعثمانية بأن استخلص السفير البريطانى فى استنبول تأكيداً خاصاً من الحكومة العثمانية فى اليمن تنص على عدم التدخل فى شئون الرؤساء المرتبطين بعلاقات مع حكومة جلالة الطلقة ، وكان هذا هو الموقف العام الذى ساد المنطقة سنة ١٨٧٣ م .

وبعد انسحاب العثمانيين من أراضى الحوشى والعبدلى ، لم ينسحبوا من إمارة وثينة التى تقع فى أراضى الاميرى ، شمال أراضى الحوشى ، وكان من الطبيعى أن يستولى العثمانيون على هذه الإمارة عند تقدمهم الى أراضى الحوشى ولحق ، كذلك فانه من وجهة النظر البريطانية يجب أن يتبع انسحابهم

من أراضي الحوشى والمبدلى انسحابهم من أراضي الاميرى ، وفى يونيو سنة ١٨٧٥م أرسل السفير البريطانى فى الاستانة مذكرة الى الباب العالي أشار فيها الى استمرار والى اليمن العثمانى فى عدم اطاعة تعليمات الحكومة العثمانية بشأن سحب قواتها ، وطالب بارسال أوامر سريعة تقضى بسحب أية قوة عثمانية قد تكون فى أراضي القبائل التسع ، وخصوصا ~~التيهية~~ ، وأجابته الحكومة العثمانية أنها أمرت بالفعل بسحب قواتها ، ونتيجة لضغط الحكومة البريطانية على الباب العالي انسحبت القوات العثمانية النظامية من دثينة وقيت بعض القوات غير النظامية وموظفون عثمانيون ، الا أن المقيم السياسى البريطانى عبر عن تخوفه من استمرار التدخل العثمانى فى دثينة وذلك فى مذكرة بعث بها الى الحكومة البريطانية ، ونتيجة لهذه المذكرة بعث السير اليوت Elliot بمذكرة شديدة اللهجة فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٧٦م الى وزير الخارجية العثمانى أشار فيها الى أن تأكيدات حكومة الدولة العثمانية لم تفقد وأن هناك محاولات لضم جزء من أراضي الاميرى الى الممتلكات العثمانية ، وأن الحكومة البريطانية لا يمكنها الاستمرار الى أجل غير محدود ، وتجددت الاحتجاجات التى لا يلتفت اليها ، وأن حكومته كانت تتوقع ارسال تعليمات محددة بسحب كل المسئولين العثمانيين ، وأن يمتنع المسؤولون العثمانيون عن التدخل فى أراضي الاميرى ، وفى غضون ذلك الوقت كان للاحتجاجات البريطانية بعض الأثر ، فانسحب العثمانيون من بعض مناطق دثينة ، الا أنهم

لم ينسحبوا من كل الاقاليم (١) ، ولكن الخلاف ظل قائما بين الحكومتين العثمانية والبريطانية بشأن دثينة ، وهل هى واقعة داخل منطقة النفوذ العثمانية أم البريطانية ، وفى محاولة لازالة ذلك القموض صدرت تعليمات الى المقيم السياسى فى عدن فى مارس سنة ١٨٧٧ بأن يتفاوض مع والى اليمن لتنظيم الحدود بين الممتلكات العثمانية والقبائل التسع المتعاقدة مع الحكومة البريطانية ، وظل الامر معلقا حتى سنة ١٨٨٠م حينما أرسل الكولونيل ستيفنس Stevens بقرض تحديد الحدود الفعلية لأراضى الاميرى التى تقع فيها امارة دثينة (٢) ، وكانت بريطانيا قد أرسلت قوات من الهند لتهديد الثائرين والعثمانيين المجاورين للمحميات ، واستمر هذا النضال السياسى حتى سنة ١٨٧٨م عندما تم للبريطانيين شراء الاراضى المشرفة على خليج عدن ، المعروفة باسم أراضى الشيخ عثمان ، وذلك لتأمين منطقة عدن ضد أى هجوم قد يقوم به العثمانيون أوالشيخ الآخرون ، (٣) أما بالنسبة لروءساء القبائل المعترف بهم من السلطات البريطانية ، فقد كانوا يواجهون صعوبات متفاوتة الدرجات فى فرض سيطرتهم على القبائل المتمردة أحيانا ، والناقمون ، والمغامرون ، والمعادون لبريطانيا ، والذين يجدون لهم فى اليمن دائما عونا وطبعا ، وأسلحة وذخائر فى

-
- (١) جاد طه ، سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، ص ٢٨٧ - ٢٩١ .
 - (٢) جاد طه ، سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، ص ٣٠٠ .
 - (٣) محمد الشرقاوى ، الاستعمار البريطانى فى جنوب اليمن ، ص ١٥ .

بعض الاحيان تشجيعا للثورة (١) ، وليس غريبا في أن تكون هذه المساعدات من قبل الائمة الزيود أو العثمانيين .

ويتضح من العرض السابق أن افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩م ساعد الدولة العثمانية على اقامة حكم فعال في منطقة عسير والمخلاف السليمانى ، التى ارتبطت ارتباطا مباشرا بالدولة مما سهل عليها التحكم فى شئون تلك المناطق ، وبعد ذلك اتجهت الدولة بكل ثقة الى اليمن فأعادت الهدوء والسكينة اليها بعد صراع طويل ومربح بين الائمة الزيدية ، كما استطاعت الدولة أن تطبق نوعا من نظام الولايات كما أسلفنا القول ، ولحماية ذلك أوجدت الدولة جيشا كبيرا فى المنطقة عرف بالجيش السابع ، وتثبيت سلطة الدولة العثمانية فى تلك المناطق ، عسير والمخلاف السليمانى ثم اليمن كان بمثابة خطوة دفاعية لتأمين الحجاز ، أو بمعنى آخر لتأمين مركز الدولة فى الأماكن المقدسة ، وكان فتح قناة السويس للملاحة البحرية فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩م ، وهو الذى أدى الى زيادة اهتمام العثمانيين بالبحر الأحمر الذى أصبح أهم طريق للمواصلات الدولية بين الشرق والغرب ، وسواحل الجزيرة العربية المطلة على هذا البحر ، وخاصة الساحل اليمنى الذى أصبح البريطانيون يسيطرون على جانبه الجنوبي العثمانيون المتحكم فى باب المندب ، وذلك بسيطرتهم على عدن سنة ١٨٣٩م ، وقد رأى /

(١) جان جاك بيرى ، جزيرة العرب ، ص ١٨٢ .

بعد افتتاح قناة السويس ضرورة إعادة فرض سيطرتهم الفعلية على عدن بعد أن تضاءلت أهمية موقعها وخطورتها في تهديد القوات العثمانية في اليمن ، لذلك أرادت الدولة مد سيطرتها الفعلية على عدن ليكون لها مركز ممتاز فيها ، ولتستعيد احترام العالم الاسلامي وعلى الاخص العالم العربي . وكانت الدولة تهدف الى جمع الشعور العربي في المنطقة ضد بريطانيا ، الا أن الدولة أرغمت على الانسحاب ، وخلاصة القول أن فتح القناة قد أضاف آفاقا جديدة أمام الدولة العثمانية ، جعلها تعيد تقييم سياستها في تلك المناطق ، وإعادة السيطرة عليها ، لأن افتتاح قناة السويس للملاحة كان معناه سهولة ارسال الحملات والامدادات من عاصمة الدولة الى غرب الجزيرة العربية مباشرة مروراً بمصر التي هي إحدى ولايات الدولة العثمانية ، هذا بالإضافة الى سرعة وصول المكاتبات والانباء والتقارير من غرب الجزيرة الى عاصمة الدولة العثمانية ومن ثم كانت محاولات الدولة المتعددة التي أشرنا اليها في هذا الفصل والتي انتهت الى النتائج التي أوضحناها في هذا الفصل أيضا .

الفصل الرابع

عوائق استحصال نفوذ الدولة العثمانية على الساحل الغربي للجزيرة
العربية

- أ - احتلال إنجلترا لمصر وسيطرتها على القناة
- ب - النفوذ البريطاني في عدن .
- ج - ثورة اليمن .

مع بداية القرن الثامن عشر أخذت الدول الأوروبية الكبرى تفكر فى الطريقة التى تقسم بها ممتلكات الدولة العثمانية ، وفى احياء الطريق القديم للتجارة - طريق مصر - وإذا نظرنا الى خريطة العالم فاننا نرى مصر ذات موقع استراتيجى ان تقع فى ملتقى القارات الثلاث أوروبا ، وآسيا ، وأفريقيا ، وأنها بموقعها الجغرافى الممتاز هذا أقرب وأيسر طريق بين الشرق والغرب ، وأنه ليس من المستحيل وصل البحريين الأبيض المتوسط والاحمر بطريق برى أو بطريق بحرى ، ولا سيما أنه وجد الطريقان فى القديم وفى العصور الوسطى ، فقام التنافس بين إنجلترا وفرنسا اللتين اهتمتا بأمر مصر ومستقبلها نتيجة لاهتمامها بفتح الطريق القديم ، وفرنسا كانت وجهة نظرها أن فتح الطريق سيجلب لها متاجر الشرق ، ويلحق بتجارة أعدائها الانجليز ضررا كبيرا ، فيرون من ناحيتهم أن فتح هذا الطريق يعد مغنا كبيرا لتجارتهم واغتصارا للوقت والنفقات (١) ، وبدأ التنافس يشتهد بين إنجلترا وفرنسا على الاستئثار بالنفوذ الأعلى فى مصر ، وكانت فرنسا فى السنوات الأخيرة من حكم محمد على قد صارت صاحبة نفوذ كبير فى مصر ، وخشى عباس " ١٨٤٨ - ١٨٥٤ م " اذا استمر النفوذ الفرنسى يتزايد بواسطة الذين درسوا فى فرنسا وتأثروا بمساعى فرنسا التى تعمل لكسب ودّهم ، وكان يتزعّم هؤلاء عمه محمد سعيد ، وخشى عباس أن تتدهور الباشوية المصرية (٢) ، وتصبح

(١) محمد مصطفى صفوت ، إنجلترا وقناة السويس ، ص ٩٢٧ .

(٢) محمد فؤاد شكرى ، مصر والسودان ، ص ٣٠ .

مجرد بلاد خاضعة للحماية الفرنسية ، فعمل على مكافحة النفوذ الفرنسى ، (٢)
لذلك صمم على الاستعانة بالنفوذ الانجليزى ، وكان القنصل الانجليزى فى مصر
شارل ميرى C.Mery له كلمة مسموعة لدى عباس ، واتجهت هنا السياسة
الانجليزية لكسب مركز فى مصر ، وذلك بتيسير طرق المواصلات البرى بين
الاسكندرية والقاهرة ، وبين القاهرة والسويس عن طريق بناء السكك الحديدية (٢) ،
كما توصل عباس مع شارل ميرى فى ١٦ فبراير سنة ١٨٥١ م على اصول اتفاق بينهما
وبين الحكومة الانجليزية : أن تتدخل انجلترا لدى الباب العالى للمحافظة
على حقوق عباس ، كما جاء فى فرمانات الوراثة ، وأن يتفاوض عباس مع المهندس
الانجليزى السير روبرت استيفنسون Sir Stephenson لمد الخط الحديدى
وان يعمل عباس على تشجيع التجارة الانجليزية وتأمين المواصلات للمهند ، وعارضت
فرنسا ذلك المشروع معارضة شديدة ، واستغلت فى سبيل ذلك مالمها من نفوذ
فى مصر والدولة العثمانية ، ولكن المشروع الانجليزى نجح ، ودخل فى دور التنفيذ
وفى أثناء انشاء السكة الحديدية بين القاهرة والاسكندرية توفى عباس ، واعطى
سميد باشا منصة الحكم فى مصر (٣) ، الذى اتجه لفرنسا ، وكان من أبرز
الامتيازات التى حصلت عليها فرنسا فى مصر ، أخذ امتياز حفر قناة السويس الذى
ناله فرد ناند دى لسيبس ، وتسبب سميد باشا فى اغضاب بريطانيا التى قاومت

(١) د . شوقى عطا الله الجمل ، البحر الاحمر فى سياسة مصر ، ص ٨ .

(٢) محمد فؤاد شكرى ، قضية الجلاء عن مصر ، ص ٧ .

(٣) أحمد رشدى صالح ، قناة السويس ، ص ١٧ .

مشروع قناة السويس (١) ، ورأينا ذلك في الفصل الثاني ، ولا شك أن تصرفات سعيد السابقة تعارض المصالح الانجليزية في مصر ، والتي كانت سياستها تجاه مصر منذ معاهدة سنة ١٨٤٠م تعمل على الإبقاء على مصر تحت السيادة العثمانية وفقا للفرمانات الصادرة .

واهتمت بريطانيا بمصر ، عندما أصبح لها في الهند قاعدة لامبراطورية عند ها أخذت ترمق مصر كطريق حيوى لا تعيش بدونه ، وأخذت مصرصها يزداد بقدر ما كان يثير تخوفها على ضياع هذا الطريق ، ولا سيما بعد فتح قناة السويس وقد وجدت أن أفضل طريق لذلك هو الاكتفاء مؤقتا بالمحافظة على علاقة مصر بالدولة العثمانية في حدود الفرمانات الصادرة (٢) ، كما أن انتشار التجارة الانجليزية في أسواق الشرق يتبعه اهتمام خاص متزايد ، لذلك تخشى انجلترا أن تشاركها قوة أخرى ، ولذا كان من الطبيعي أن حكومة بالمرستون تحارب مشروع القناة ، وتعارض مجهودات دى ليسيس . (٣)

ومما لا شك فيه أن الدولة العثمانية كانت تدرك أهمية مصر والتالى الجواز ويبدل على ذلك اهتمام السلطان العثماني بمصر والخديوى والامتيازات التي منحت لها من خلال الفرمانات ، ففي سنة ١٢٨٣هـ الموافق ١٨٦٦م تحصل الوالى

(١) محمد فؤاد شكرى ، مصر والسودان ، ص ٤٥ .

(٢) عبد المعز رفاعى ، قضية الجلاء عن مصر ، ص ٧ .

(٣) احمد رشدى صالح ، قناة السويس ، ص ١٧ .

اسماعيل على فرمان سلطانى غير بموجبه طريقة التوارث فى منصب الخديوية المصرية ، فيعد أن كانت لأكبر أبناء محمد على باشا انحصرت بهذا فرمان فى فئة اسماعيل ، وصارت لأكبر أولاد الجالس على منصب الخديوية (١) ، كما حصل الوالى اسماعيل باشا فى ٨ يناير سنة ١٨٦٧ م (٥ صفر سنة ١٢٨٤ هـ) على فرمان جديد يخوله وخلفاءه لقب خديوى ، وبعد ان كان واليا ، ارتقى بهذا اللقب السامى الى مرتبة قريبة من مراتب الملوك والسلطين ، كما أقر هذا فرمان حق الحكومة المصرية واستقلالها فى ادارة شئونها الداخلية والمالية ، وحققها فى عقد المعاهدات الخاصة بالبريد والجمارك ومرور البضائع والركاب فى داخلية البلاد ، وشؤون الضبط للجاليات الأجنبية ، كل هذه الفرمانات لم تأت عفوا من قبل الدولة العثمانية بل ببذل اسماعيل المال من الخزائنة المصرية ، (٢) والتي تتفق على رجال المطبين الهاميون ، وكان بينهم عدة وزراء أغدق عليهم اسماعيل الأموال على شكل هدايا فاخرة ليساعده فى الوصول الى مقاصده ، (٣) وكان من نتيجة بذل اسماعيل هذه الاموال أن استدانت مصر ، ونشأت أزمة مالية أدت الى تدخل أجنبي واحتلال بريطانيا مصر ، الا أن العلاقات بين مصر والدولة العثمانية فترت ، ولم تكن كما كانت عليه فى السابق ، وذلك لشعور الدولة بزيادة انسلاخ مصر عن جسم الدولة العثمانية وذلك بسبب

(١) اسماعيل سرهينك ، حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٧١٥ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، ج ١ ، ص ٨٤ .

(٣) اسماعيل سرهينك ، حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٧١٥ .

الفرمانات السابقة والمنوحة للخديوى اسماعيل والذي زاد شعوره بالاستقلال عن الدولة العثمانية ، فدعا فى حفلات افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ م ملوك أوروبا ورؤساء حكوماتها الى حضور تلك الاحتفالات دون وساطة الدولة العثمانية ، واعتبر السلطان العثماني هذه الدعوة اغتالا لواجب الولاة نحوه واحتج لدى الدول على سلك الخديوى ، فلم يكثر اسماعيل لهذا الاحتجاج بل مضى فى دعوته ، وأقام حفلات القناة برئاسته ، وحضرها ملوك أوروبا وامراؤها وقيل أنه كان معتزما اعلان استقلال مصر التام فى تلك الاحتفالات ، ولكن الحكومات الأوروبية لم توافق على تلك الرغبات ، ونصحت أن يعدل عن عزمه ، وانتهت احتفالات القناة (١) ولمت تكاليف انشاء القناة ، ومصاريف احتفالات الافتتاح مبلغ ٤٥ مليون فرنك ، مما أدى الى افلاس مصر ، وفقر خزائنها فاضطرت مصر أن تلجأ الى بنوك أجنبية طالبة مساعدة مالية ، وانتهزت انجلترا تلك الفرصة ، وشرعت فى تنفيذ مشاريعها الاستعمارية ، وسارعت البنوك الانجليزية بتقديم القروض الى الحكومة المصرية بشروط قاسية ، واستخدم الانجليز جميع المناورات التى زادت من مصاعب الحكومة المصرية ، وبدأت بريطانيا تتحدث علنا عن عطفها على شركة قناة السويس ، وبدأت تكشف عن اهتمامها بالقناة ، وسارعت الى مكافأة فردينا ندى لسهب الذى سبق أن وصفته بالاحتفال ، ووضعت الحكومة البريطانية عدة أوسمة رفيعة ، وأسبغت عليه لقب مواطن لندن وكان ذلك

(١) عهد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، ج ١ ، ص ٨٤ .

ضمن خطة رسمتها بريطانيا للاستيلاء على القناة (١) ، فهي بذلك - أى
انجلترا - تريد بهذا العمل أن تحاول ارضاء فرنسا عن طريق أحد مؤسسى
المشروع ، وبالتالى تكسب ود الشركة المؤسسة تمهيدا للسيطرة عليها فى
المستقبل ، فى حين أغفلت الدولة العثمانية شئون مصر نتيجة لسوء العلاقة
بينها وبين الخديوى اسماعيل ، حيث تجاهل السلطان ولم يدعه لحفلة
افتتاح القناة واهماله جانب الولاء له ، لذلك أصدرت الدولة فرمانا فى
٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩م والموافق ٢٤ شعبان سنة ١٢٨٦هـ جاء به رسول من
الباب العالى الى مصر عقب انتهاء حفلات القناة ، وبهذا فرمان قيد السلطان
العثمانى حقوق الخديوى ، فجاء فيه : انه لا يجوز للخديوى اسماعيل أن
يقترض قروضا جديدة دون أن يبين وجه الحاجة اليها ، ويحصل على إذن من
السلطان ، ويبدولنا أن السبب لهذا التقييد للخديوى غير الباب العالى
على مصر واستيائه من تورط اسماعيل فى الديون الباهظة مما يؤدى الى تدخل
الدول الاجنبية ، وهذا الذى تتلافاه الدولة العثمانية لانقاذ مصر ، وبالتالى
انقاذ القناة ، وعلان الدولة العثمانية لذلك فرمان جاء ليؤكد للعالم تهمة
مصر والقناة لها ، ولتصرف الدول الاوربية عن مطالبتها فيها ، الا أن اسماعيل
أخذ فى تحسين علاقاته بالدولة العثمانية ، وعند ما رأى أنه فى حاجة الى
مساندتها ، بعد أن خذلتها الدول الاوربية ، واشتدت ورطته المالية ، فقصده

(١) جاليفنا نيكتينا ، قناة السويس ، ص ٢٢٠ .

الاستانة ، في صيف سنة ١٨٧٢ م يصحبه اسماعيل صديق باشا وزير المالية ،
ونوبار باشا وزير الخارجية ، ليمسحوا في اعادة العلاقات الودية بينهم وبين
السلطان ، ويدلوا كثيرا من مظاهر الولاء ، بالاضافة للطل والهدايا حتى
عادت علاقات الود بين الخديوى والحكومة العثمانية ، فنال في ١٠ سبتمبر
سنة ١٨٧٢ م (٧ رجب سنة ١٢٨٩ هـ) فرمانا يثبت الامتياز السابق منحه اياه
وينسخ القيود الواردة في فرمان سنة ١٨٦٩ م ، كما نال في ٢٥ سبتمبر سنة
١٨٧٢ م (٢٢ رجب سنة ١٢٨٩ هـ) خطا شريفا يؤكد فيه مزايا فرمان ١٠ سبتمبر
ويخوله صراحة حق الاستدانة من الخارج دون قيد ولا شرط (١) ، وبموجب
هذا فرمان عادت الامتيازات الاولى ، وكان ذلك رغبة السلطان في ارضاء
الخديوى للمحافظة على سيادته على مصر ، الا أن تلك الفرمانات أتت بنتائجها
السلبية على الدولة ، إذ عاد الانسلاخ من جديد عن الدولة ، هذا ويعتبر
بداية شق قناة السويس الدليل الواضح على تدخل الاموال الاجنبية في مصر ،
ان قيل عن فتح القناة انه يعادل في تأثيره الاستعمارى بالنسبة للمسألة
المصرية غزوة نابليون بونابرت ، ان أنها أخذت شكلا آخر ، ودخلت دورا جديدا
بعد فتح القناة (٢) ، على أننا لا نريد فصل المسألة المصرية عن الدولة
العثمانية ، وذلك على اعتبار ارتباطها بالدولة العثمانية صاحبة النفوذ على

(١) عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، ج ١ ، ص ٨٤ - ٨٥ .

(٢) احمد رشدى صالح ، قناة السويس ، ص ١٩ .

مصر ، كما يعتبر تدخل ال اموال ال اجنبية فى مصر هو تدخل أيضا لهما فى الدولة
المثمانية .

وعلى الصعيد الدولى كان ضعف النفوذ الفرنسى على اثر انتصار ألمانيا
فى الحرب السبعينية سنة ١٨٧٠م على فرنسا قد مهد لانجلترا الطريق لتكون
صاحبة الكلمة العليا فى المسألة المصرية ، واستطاعت أن تتفرد بالتدخل فى
شؤون مصر ، ونحن لا ننسى كما مر بنا أن التنافس بين الدولتين قد اشتد
خاصة فى عهد انشاء قناة السويس ، ولكن تكافؤ القوتين حال دون سيطرة
احدهما على مصير البلاد ، ومن الملاحظ أن صوت فرنسا فى المسألة المصرية
أخذ يضعف فى نهاية سنة ١٨٧٠م بسبب هزيمتها فى الحرب السبعينية
فانتهزت انجلترا الفرصة لتنفيذ سياستها فى وادى النيل ، فمند افتتاح قناة
السويس سنة ١٨٦٩م بدأت انجلترا فى العمل على تثبيت مركزها فى مصر تمهيدا
لاحتلالها ، وفى سنة ١٨٧٠م عهد الخديوى الى شركة انجليزية تدعى شركة
جرانفيلد Granvilled انفاذ مشروع توسيع ميناء الاسكندرية ، والقيام
بأعمال الإصلاح فيها مقابل عدة ملايين من الجنيهات (١) وفى سنة ١٨٧٥م
أخذ معين المال ينضب من بين يدي اسماعيل خديوى مصر ، وبعد القروض الباهظة
التي استدانها ، والاعباء الجسيمة التي ناءت بها الخزينة ، وذلك مقابل صرفها
للمشاريع ال اصلاحية التي قامت فى مصر ، ففكر فى بيع أسهم مصر فى القناة ، وعرضها

على فرنسا ، فترددت في الامر ، ولكن الحكومة الانجليزية ما ان علمت بالمسألة حتى بادرت بشرائها ، لأنها وجدت في هذه الصفقة فرصة سانحة لوضع يدها على القناة (١) ، وكان لهذه الصفقة صدى كبير في كل أرجاء أوروبا ، إذ أنها أصبحت دليلاً على أن إنجلترا تركت نهائياً السياسة السلبية التي اتبعها جلادستون (Gladston) في وزارته الأولى ، وأنها أصبحت الآن تتبع سياسة خارجية نشيطة ، وبدأ ديزرايلي Disraeli سياسة التسايط الاستعماري التي قد بلغت أوجها في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وذلك باحتلال الانجليز مصر ، وتصميمهم على البقاء فيها ، وتقسيم افريقيا والاشراف على مناطق كبيرة في آسيا ، (٢) وكان أيضاً من نتائج هذه الصفقة ، أن استطاعت إنجلترا اتخاذ سياسة مالية خاصة ، واعتبرت مصر من بين مناطق النفوذ التي يجب أن تحرص عليها ، أما من جانب السياسة المصرية فان بيع مصر في أسهم قناة السويس كان مقدمة للتدخل الفعلي في مالية مصر ، إذ لم تضي ثلاثة أيام على بيع الأسهم حتى أجاب طلب الخديوي الجنرال ستانتون Stanton قنصل إنجلترا العام بالقاهرة بأن تعين إنجلترا موظفين انجليزيين يستعان بهما في إدارة شؤونه المالية وردت الحكومة الانجليزية على ذلك في ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٧٥م بأن ألقت بعثة من خمسة أفراد من كبار موظفي الحكومة تحت رئاسة كيف

(١) مصطفى الحفناوي ، قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ، ج ١ ، ص ٣٧٤ .

(٢) محمد مصطفى صفوت ، إنجلترا وقناة السويس ، ص ٥٤ - ٥٥ .

رئيس الصيارفة ووجهت اليها تعليمات بان تفاوض الخديوى وحكومته فى ادارة مصر ومركزها المالى ، وأن تقف على حقيقة الاضطراب المالى وتسدى النصيحة الى الخديوى (١) ، ان أن هناك ارتباطا شديدا بين شراء أسهم قناة السويس وبين ارسال بعثة كيف Caiv ، بل هناك فرصة سياسية اغتتمتها انجلترا ، لأنها كانت تشعر أن مصر ^{قد} اوشكت على الانهيار وأنه لا بد لها أن تتدخل فى شئونها تدخلا مباشرا حتى تكسب بذلك مركزا سياسيا . وفى ربيع سنة ١٨٧٦ م وجدت الديون العديدة التى استدانها اسماعيل فأصبحت دينا عاما يبلغ ٩١ مليون جنيه ، وكان هذا الاجراء قد اتخذ بفرض تنظيم حالة الفوضى التى وصلت اليها البلاد ، ثم وضعت أمور الدخل والخرج فى مصر تحت مراقبة ثنائية بين انجلترا وفرنسا . (٢)

لم تقف انجلترا عند ذلك الحد من التدخل فى شئون مصر ، بل تطور الامر على مر السنين ، وفى سنة ١٨٧٧ م أوعزت انجلترا الى الخديوى أن يعين غوردون باشا حاكما عاما للسودان ، ويعتبر هذا المنصب من أكبر مناصب الدولة العثمانية وأعظمها خطرا ، ويتم التعيين لهذا المنصب من قبل الباب العالي ، وهى المرة الاولى فى تاريخ مصر يسند فيها هذا المنصب لساكن الى أجنبى . الا أن العلاقات الودية توثقت فى هذه الفترة ، وبعد افتتاح القناة -

(١) شونقليد ، هيو ، ج ، قناة السويس ، ص ٩٠ - ٩١ .

(٢) رجب حراز ، المدخل الى تاريخ مصر الحديث ، ص ٣٧٦ ، وانظر شونقليد هيو ج

قناة السويس ، ص ٥٦ .

بين الخديوى وانجلترا ، وتعددت مظاهرها ، ففى ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ م عقدت معاهدة بين الخديوى وانجلترا للتعاون على ابطال الرقيق ، وأخذت انجلترا بعد ذلك تسعى لاقتداد سلطة مصر على الساحل الغربى لافريقيا لترث ذلك فيما بعد ، ففى ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ م اعترفت انجلترا بسلطة مصر فى بلاد الصومال الشمالية ، فكانت هذه المعاهدة مظهرًا من مظاهر العلاقات الودية بين مصر وانجلترا (١) فى وقت لم تعرف فيه انجلترا أى اهتمام للدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر ، وسياسة الود هذه أتت بعد ضعف فرنسا ، ان اتجه اسماعيل صوب انجلترا وذلك بقصد الحصول على نوع من الاستقلال الذاتى ، والتي كانت تشجعه انجلترا لتزيد من انسلاخ مصر عن جسم الدولة العثمانية ، الا أن التنافس بين فرنسا وانجلترا ظل قائمًا حتى هذا الوقت ولكن لم ترغب انجلترا فى اغضاب الحكومة الفرنسية بدليل موافقة انجلترا على اقتراح فرنسا بالآ تدخّل المسألة فى مناقشات مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ م ورأت استبقا ٤ لصداقة فرنسا عدم احتلال مصر واستعمارها سولسبرى Salisbury عن ذلك ، أى عن احتلال مصر وقناة السويس باحتلال جزيرة قبرص ، التى تشرف على آسيا الصغرى ، ومدخّل القناة معا ، وذلك تمهيدا لاحتلالها مصر (٢) . وكانت انجلترا قد استطاعت أن تعقد اتفاقا مع الدولة العثمانية تعهدت فيه

(١) عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، ج ١ ، ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٦٠ ، ٦١ .

انجلترا بمساعدة الدولة العثمانية ضد أي عدوان يوجه الى ممتلكاتها الآسيوية ،
في مقابل استيلائها على جزيرة قبرص ، وإدارة أمورها (١) ، وجزيرة قبرص
تعتبرها الاستراتيجية الانجليزية قاعدة هجوم حين ترغب في احتلال قناة السويس
وتغتر أيضا قاعدة دفاع عن القناة بعد احتلالها ضد الخطر الروسي في
الشمال ، وإذا كانت الدولة العثمانية قد تنازلت للحكومة الانجليزية عن جزيرة
قبرص ثمنا لمعاهدة دفاع مشترك فلم تكن الدولة العثمانية تدرك أن هذه الجزيرة
سوف تكون قاعدة هجوم على أهم ولاياتها وهي مصر ، كما أن الاستراتيجية
الانجليزية بدأت تفكر في احتلال قناة السويس احتلالا عسكريا ، بعد أن تمكنت
من احتلال جزيرة قبرص (٢) ، وكانت إنجلترا تسير بموجب خطة لتأمين الطرق
المؤدية الى الهند ، فباحتلال رأس الرجاء الصالح في طرف افريقيا الجنوبية
أصبحت آمنة على هذا الطريق ، لكن لما كانت مصر والسويس أقصر الطرق الموصلة
الى الهند ، استطاعت إنجلترا أن تحتل النقاط الاستراتيجية الموجودة على هذا
الطريق ، فاحتلت قبرص ، وبنغازي ، وجزيرة مالطة وباحتلالها هذه
النقط في البحر المتوسط أصبح ذلك البحر انجليزيا ان أضحت لها سيادة عليه
في جميع أطرافه . (٣)

-
- (١) د . مصطفى الحفناوي ، قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ، ج ٢ ، ص ٢٧ .
(٢) عبد الرؤوف احمد عمرو ، قناة السويس في العلاقات الدولية ، ص ٥٨ .
(٣) محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٣٨٤ - ٣٨٥ .

ونعمود مرة أخرى الى مصر، فقد تعقدت المسألة المصرية في أواخر عهد الخديوى اسماعيل ، حيث بدأت قوى المعارضة المصرية تظهر، وذلك نتيجة للتدخل المالى والسياسى الاوروبى فى شئون مصر ، مما أثار مخاوف إنجلترا وفرنسا فترتها مع الباب العالي عزل الخديوى اسماعيل (١) ففى ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩م تولى توفيق باشا حكم مصر الذى كان مركزها الدولى حينذاك غير محدد ، فلا هى دولة مستقلة ولا هى ولاية تابعة للدولة العثمانية ، وانما تبعا لمعاهدة لندن سنة ١٨٩٠م تعتبر جزءا من أملاك الدولة العثمانية ، وقد اعترفت بهذه التسمية دول أوروبا الكبرى إنجلترا وروسيا وبروسيا والنمسا والمجر ، والخديوى فى مصر ، وان كان يتولى الحكم بطريق الارث لأنه من سلالة محمد على فإنه لم تكن له الحرية التامة فى التصرف فى شئون مصر الداخلية والخارجية (٢) ، وظلت فرنسا وإنجلترا فى تعاون متواصل لاقتسام مصر بينهما وقد استهل حكمه بصدور فرمان ٧ أغسطس سنة ١٨٧٩م مقيدا سلطنة الخديوية ، ومن ثم أخذ سند الخديوية يتجه نحو الضعف وبدأت كفة النفوذ الاوروبى راجحة . (٣)

أما عن موقف الدولة العثمانية تجاه عزل الخديوى اسماعيل ، فقد رحب السلطان عبد الحميد - الذى تولى العرش العثمانى منذ سنة ١٨٧٣م - بمزول

(١) محمد مصطفى صفوت ، إنجلترا وقناة السويس ، ص ٦٢ .

(٢) جمال الدين الشيال ، قصة الاحتلال ، ص ١١ .

(٣) عبد العزيز الرفاعى ، قضية الجلاء عن مصر ، ص ١١ .

اسماعيل أملا في أن يتخذ من هذا الحزل ذريعة للتدخل في شؤون مصر واسترداد الامتيازات التي نالتها هذه البلاد في فرمانات ١٨٤١ - ١٨٧٣م ان كانت قد أعطيت تلك الامتيازات ارضا للخيديوى حتى لا ينسلخ عن جسم الدولة العثمانية ، وشعوره الدائم بالولاء للباب العالي ، بعد أن رأت الدولة العثمانية أهمية مصر التي زادت بعد افتتاح قناة السويس لأنها ربطت اجزاء الدولة بالعاصمة استانبول ، ولكن السلطان عبد الحميد عجز عن نيل مراده أمام اصرار إنجلترا وفرنسا على أن تحتفظ الخديوية المصرية بكافة الحقوق التي اكتسبتها في عصر اسماعيل ، وكان من نتيجة ذلك أن تدعم النفوذ الاوروبى في مصر في عصر توفيق ، ولا غرو فقد شعر الخديوى الجديد بنفوذ السدول الاوروبية فمثلا في عزل والده عن العرش ، ثم رأى أن الفضل في ابعاد النفوذ والتدخل العثماني في شؤون مصر ، يرجع الى فرنسا وإنجلترا اللتين وقفتا أمام محاولة عبد الحميد سحب فرمان ٩ يونية سنة ١٨٧٣ الذى منح مصر استقلالها الداخلى ، وأكد نظام الوراثة ، (١) وتوالت أحداث القرن التاسع عشر ، فزادت مصر انسلاخا عن الدولة العثمانية ، وتكونت لها شخصيتها كأمة عربية وذلك بانتعاش الثقافة العربية في المدارس والمعاهد والصحف (٢) ، مما أشار الوطنية المصرية وأبرز معالمها ، وحينئذ أدرك المصريون المدى الذى بلغه

(١) حسن أحمد محمود ، محمد أنيس ، رجب حراز ، مصر في العصور الوسطى

والحدیثة ، ص ٢٣٤ ، ٢٢٥ .

(٢) شونقليد هيو . ج ، قناة السويس ، ص ٥٦ .

الأجانب في إدارة بلادهم ، وتيسير شؤونها عندها ثارت الحاشطة الوطنفة ، وظهر السخط واضحا (١) ، وأخذ المصريون يتطلعون الى قفافة منهم تحقق ما لهم فى الحرية والاستقلال ، وسار المصريون بغطى سرفعة فى طررق الثورة ضد حكومة الخديوى الضعيفة والمستسلمة للنفوذ الاجنبى ، وبدأ دور الجيش فى الحركة الوطنية بما يعرف بالثورة العربافة ، نسبة الى أحمد عربافى الذى اختبر لتزعم الامة فى ثورتها على السلطة الخديوية المتهمة بالاستسلام (٢) ، رأى الباب العالى فى ضفاع سلطة الخديوى بعد حوادث سبتمبر سنة ١٨٨١م (حوادث قصر عابدين) فرصة مواتفة لتدبير احتلال مصر بجيش عثمانى ، لاسترداد النفوذ فى مصر ضمانا للقناة التى تسهل الامدادات للحجاز ضمانا للسيطرة عليها ، وابعاد الخطر الاجنبى عنها ، لكن فرنسا وانجلترا وقفت موقف المعارضة من أى تدخل حربى يقوم به السلطان العثمانى فى مصر ، فاكتمس عهد الحمفد بافقاد بعثة الى مصر لتحقيق أسباب العصيان العسكرى ، وعندئذ أرسلت الدولتان سفنهما الحربية الى مياه الاسكندرية للقيام بمظاهرة بحرفسة ، الأمر الذى ارغم البعثة العثمانفة على مفادرة مصر فى ٨ أكتوبر سنة ١٨٨١م (٣) وتطورت الأمور فى مصر ان سرعان ما انقلبت الحركة الوطنية السابقة الى ثورة

(١) محمد بدفيع شرف الدين وآخرون ، النهضة العربفة الحديثة ، ص ٥٤٧ .

(٢) سفد رجب حراز ، المدخل الى تاريخ مصر الحديث ، ص ٣٨١ .

(٣) حسين أحمد محمود ، محمد أنفيس ، رجب حراز ، مصر فى العصور الوسطى

والحديثفة ، ص ٢٣٥ .

ضد سلطة الخديوى ، وأصبح من اللازم أن تقوم إنجلترا وفرنسا بتدخل مشترك لحماية مصالحهما ، ونشبت فتنة الاسكندرية فى ١١ يونية سنة ١٨٨٢م قتل فيها خمسون أوروبيا ، (١) الأمر الذى من أجله انعقد مؤتمر القسطنطينية فى ٢٣ يونيه سنة ١٨٨٢م لبحث فى المسألة المصرية ، وانتهى المؤتمر فى ٦ يولييه سنة ١٨٨٢م ، وتقرر تسوية المسألة المصرية عن طريق التدخل العثمانى ، ويتضمن دعوة الباب العالي الى ارسال قوة الى مصر لاقرار النظام وفق (شروط محددة) ، غير أن السلطان رفض استجابة هذه الدعوة الى وقت متأخر لمعارضة فكرة التدخل العثمانى لتقيده بشروط اعتبرها مهينة له ، لا تتفق وحقوق سيادته على هذه البلاد ، ولأنه لم يكن يريد أن يظهر بمظهر من يخضع لسلطة الدول الأجنبية فى مسألة داخلية ، كما أنه لا يريد إثارة الشعور الاسلامى ضده بهذا الحصل وقد انتهزت إنجلترا هذه الفرصة وعزمت على التدخل فى مصر قبل أن تعتمد الدول المشاركة فى المؤتمر ، وتقدم لها للباب العالي بعد أن توفرت العوامل لانفرادها بالتدخل المسلح وايقاف المؤتمر أمام الامر الواقع ، (٢) وكانت الشروط التى فرضها المؤتمر على الدولة العثمانية للتدخل المسلح فى مصر واعتبرها السلطان مهينة ، كان قد حددها جرانفيل Granville وزير خارجية إنجلترا ، وهى أن تكون القوات العثمانية تحت قيادة الخديوى وأن لا تبقى بمصر أكثر من ثلاثة شهور ، وأن يتعهد السلطان بعدم المساس بامتيازات الخديوية وتعهداتها الدولية ، ومن ناحية اخرى كان تردد فرنسا من العوامل التى أدت

(١) شونقليد هيوج ، قناة السويس ص ٥٦ (٢) عبد العزيز رفاعى .

الى انفراد انجلترا بالتدخل ، فقد اعتبر فريستيه M.de.Frey Cinet
رئيس وزراء فرنسا أن الاستنجاد بالجنود الميثانيين ليس له مبرر بعد استقالة
وزارة البارودي وفضل انتظار ما قد تتمخض عنه الحوادث في مصر (١) ، وحينما
وجد عرابي أنه مهدد بالغزو بدأ بتقوية حصون الاسكندرية ، وأرسل اليه أمير
الاسطولين الانجليزى والفرنسى أن يوقف هذه التحصينات ، ولكن من غير جدوى
ثم فضلت فرنسا ألا ترضى الى مدى أبعد من هذا الاحتجاج الرسمى ، وتلاشت
بذلك سياسيا واختفت من المسرح المصرى (٢) ، وفى الساعة السابعة من صباح
١١ يولييه سنة ١٨٨٢م أمر القائد الاميرال سيمور Seymour بضرب
الاسكندرية ، وأرسلت السفينة الكسندرية أول قذيفة ، ثم تبعتها بقية البوارج
والسفن ، ولكن الطواوى المصرية لم تجاوب الضرب الا بعد الطلقة العاشرة
ثم بدأت المعركة ، ولم تكن بشهادة كل من كتب عنها معركة متكافئة ، فقد كانت
مدافع الاسطول البريطانى أحدث وأقوى ، وكانت قذائفها أثقل وزنا وأبعد
رمى (٣) ودافع المصريون عن الاسكندرية دفاعا مشهودا ، حتى اضطروا الى
اتخاذ قاعدة جديدة فى كفر الدوار ، حيث صمدوا هناك صمودا امتنع به تقدم
الانجليز الى القاهرة ، فتحولوا الى الميدان الشرقى تجاه القناة ، (٤) وكانت
انجلترا قد سمعت بالطرق الدبلوماسية فى وضع خطة غزو قناة السويس ، ان بحثت

-
- (١) حسين احمد محمود ، ومحمد انيس ، ورجب حراز ، مصر فى الحصور الوسطى
والحدیثة ، ص ٢٤٠ . (٢) شونظيد هيو ج . ، قناة السويس ، ص ٥٦ .
(٣) جمال الدين الشیال ، قصة الاحتلال ، ص ٣٠ ، ٣١ .
(٤) محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٦٥ .

فى ٣٠ يوليو سنة ١٨٨٢م انذارا الى الباب العالى ذكرت فيه أنها - أى
انجلترا - تعتبر نفسها مكلفة باقرار النظام فى مصر، وأنها ستمنع القسوات
العثمانية من النزول الى مصر ، الا اذا أظنت الدولة العثمانية اعتبار عرابى
ثائرا ، فأصدر الباب العالى ذلك الاعلان فى ٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢م ، واستغلت
انجلترا ذلك المنشور ضد العرابيين أسوأ استغلال ، كما حاولت انجلترا
أن تعطى نفسها صفة قانونية فى احتلال القناة والحصول على تفويض من
الخديوى يجيز لها هذا الاحتلال ، فأبرق اللورد جرانفيل Granvill
الى الاميرال سيمور Seymour فى ٢٤ يولية طالبا منه أن يحصل من
الخديوى على السلطات التى تخوله حق احتلال قناة السويس ، وقد كتب
الخديوى التصريح المطلوب فى ٣١ يوليه ، وهذا نصه " منحناكم التصريح
باحتلال جميع النقاط التى ترونها فى برزخ السويس ، لضمان حرية الملاحة
فى القناة ، ولحماية المدن المجاورة لها ، ومن فيها من الاهالى ، وللقضاء على
كل قوة لا تعترف بسلطانى " (١) ، وكانت الخطة الانجليزية لاحتلال مصر
قامت على أساس اتمام احتلال منطقة القناة قبل التفرج لمقاومة الجيش المصرى (٢)
فصرحت انجلترا لقائد ها البحرى فى بورسعيد أن يحتل من أجزاء القناة ما يراه
ضروريا لاتخاذ القناة قاعدة حربية ، وانما ما احتلت انجلترا قناة السويس

(١) مصطفى الحفناوى ، قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ، ج ٢ ، ص ١٠٥

(٢) الدراسات الثقافية ، قناة السويس ماضيها وحاضرها ، ص ٢٦ .

فانه من السهولة عليها السيطرة على بقية الاقاليم ، كما أن احتلال القناة هو كل ما ترغب فيه إنجلترا ، إذ أن القناة هي الشريان الحيوى لانجلترا وأنه في الوقت الذي أرسلت فيه إنجلترا الحطة على الاسكندرية أرسلت حطة أخرى لتسير بطريق القناة ، وتتضم اليها قوة قادمة من الهند ، كما تنضم اليها الحامية الموجودة في الاسكندرية ويقوم بوشمب سيمور Beauchamp Seymour قائد القوات البحرية بمعاونة هذه الحطة ، وأرسلت تعليمات الى الاسطول بمقتضاها يقوم بحماية القناة ، وأن تتخذ الحطة الانجليزية القناة قاعدة لها ، وخرجت السفن الانجليزية خلسة من الاسكندرية في ظلام الليل واحتلت بورسعيد في ٢٠ أغسطس سنة ١٨٨٢ م ، واتخذت من مبانى شركة قناة السويس بالمدينة مركزا لأعمالها الحربية ، (١) وأوقفت إنجلترا مرور السفن عبر القناة واعترضت شركة القناة على هذا التصرف ، وطلبت من الدول أن ترسل كل منها سفينة حربية لمنطقة القناة لحماية حياتها ، وأرسل مجلس ادارة الشركة احتجاجا الى الدول جاء فيه " ان الخديوى لا يطك تقييد النصوص الصريحة تفى صك الامتياز وأن الشركة لا تقبل الاعتداء على حيات القناة ، وتعلن معارضتها للأعمال التى تستند الى ادعاءات سياسية غير مشروعة " (٢) وكانت الحكومة الانجليزية

(١) محمد مصطفى صفوت ، إنجلترا وقناة السويس ، ص ٨٣ ، ٨٤ .

(٢) د . مصطفى الحفناوى ، قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ، ج ٢ ، ص ١٠٨ .

تخشى من جانبها أن يقوم المصريون بردم القناة أو احتلالها أو اتلافها ، وكانت تقارير ممثلى انجلترا متشائمة ، وتذكر كما يقول الانجليز بالخطر الشديد على هذا الطريق البحرى الهام (١) ، وقد عبر الجنرال ^(Wolsely) ولمسلى عن ذلك بقوله " لو أن عرابى قد أفلح فى سد القناة كما أراد ، لكنا مازلنا الى الآن فى البحار البعيدة نحاول محاصرة مصر ، ان تأخره أربعاً وعشرين ساعة قد أنقذنا (٢) وبعد احتلال الانجليز قناة السويس ، كان على قادة الثورة العربيه أن ينشئوا على عجل الاستعدادات فى التل الكبير ، وقرر عرابى أن ينقل مركز قيادته من الجهة الغربية الى الجهة الشرقية فكان أول التحام بين المصريين والانجليز فى نفيشة وفى ١٤ سبتمبر اشتبك الفريقان فى موقعة التل الكبير وكانت موقعة فاصلة ، انهزم فيها المصريون ، وفى ١٥ سبتمبر احتل الانجليز القاهرة ، (٣) ، وهكذا استطاعت انجلترا احتلال مصر وقناة السويس بمفردها ، لأن سياستها كانت سائرة بخطة محكمة ، وكانت قناة السويس هى عماد انجلترا فى احتلالها مصر فلولا القناة ، ولولا تخاذل الدولة العثمانية ، وتردد فرنسا لما استطاع الانجليز أن يحققوا حلمهم فى مصر ، وتعتبر سيطرة انجلترا على قناة السويس تحكماً فى حوض النيل كله ، بل فى آسيا وأفريقيا حيث أمكنها أن تتوسع فيهما استعمارياً الى غير حد ، كما أن احتلال انجلترا مصر معناه انتهاء السيادة الفعلية عليها ،

(١) محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٦٩ .

(٢) شونقليد . هيو . ج ، قناة السويس ، ص ٥٧ .

(٣) ساطع الحصرى ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ١٦٥ .

ما يترتب عليه عدم تحكم الدولة العثمانية في القناة والتي كانت قد سهلت لها السيطرة الفعلية على غرب الجزيرة العربية وعلى الاخص اقليم الحجاز ، وأصبح لازما على الدولة العثمانية أن تجد طريقا آخر غير القناة لتحافظ على سيادتها لغرب الجزيرة . وهكذا نشأت فكرة بناء سكة حديد الحجاز ، والذي سوف أتحدث عنه في الفصل التالي ، بعد أن أخذت انجلترا على نفسها توطيد سيادتها على مصر على النحو التالي . كانت انجلترا تخشى أن يقوى الشعور الاسلامي ضدها بعد احتلالها مصر ، فحصلت من الخديوى على رسالة شكر يعرب فيها عن امتنانه للمساعدة الثمينة التي قام بها الجنود الانجليز لاعادة الامن الى بلادها ، بذلك أظهرت انجلترا أعمالها على شكل تنفيذ ارادة السلطان العثماني كما ذكرت سابقا ، وتلبية لرغبة الخديوى المصرى ، (١) كما سعت انجلترا فى دعم سلطة الخديوى ، واعادة العلاقات بين مصر والدولة العثمانية فى حدود الفرمانات وسعت أيضا لايجاد رجل يقوم محل المعتمد البريطانى ، فوقع اختيارها على كرومر Croomer الذى ظهرت خبراته فى الادارة وحرصه على المصالح الاستعمارية للإمبراطورية ، ليكون قنصلا عاما لها ، وفهم كرومر الاحتلال ومشاكله ، ووجهه توجيهها لتوطيد أركانها ، وسعى فى القضاء على فكرة الجلاء بين الساسة الانجليز ، وكذلك فى داخل مصر ، ووجه الاحتلال الذى قام على أساس الايهام الذى أحاط به حتىبقى الامر فى يديه زهاء ربع قرن انتصر

(١) ساطع الحصرى ، البلاد المصرية والدولة العثمانية ، ص ١٦٥ .

فيه في الميدان المصري ، وكان كما قيل عنه " . . . أنه يوفق بين آراء الاستعماريين في البقاء ، وآراء جلاستون Gladston في الجلاء ، فكان عليه أن يقنع بلاده بمبادئه وأن يسير الاحتلال وفق خطة معينة (١) ، وكانت إنجلترا قد أرسلت الى دول العالم في ٣ يناير سنة ١٨٨٣ م مذكرة توضح فيها خططها السياسية وتبرز احتلالها فتقول " ان حكومة جلالة الملكة بالرغم من وجود قوات بريطانية في مصر مؤقتا ، لترغب في سحب هذه القوات بمجرد ما تسمح بذلك حالة البلاد وما تتطلبه من الوسائل التي تكفل سلطة الخديوى وترى الحكومة أن واجبها الآن ازالة الخديوى يقضى عليها بوجوب اسداء النصيحة حتى تتضمن بقاء الاصلاحات التي يراود وضعها وتطبيقها " (٢) وكانت هذه النصيحة كما تعنيها بالنسبة لمصر لا تخرج عن المعنى الذي ارادته في مذكرتها الى معتمدها الجديد السير آلفين بارنج بتاريخ ٤ يناير سنة ١٨٨٤ م وهو " يجب عند البحث في المسائل المهمة الخاصة بسلامة مصر أو ارادتها أن تتبع نصائح حكومة جلالة الملكة ما دام الاحتلال المؤقت مستمرا ، وعلى الوزراء والمديرين تنفيذ هذه النصائح ، والا أقبلوا من وظائفهم . . . " (٣)

وكانت إنجلترا بعد احتلالها لمصر قد أخذت تستخدم المناورات وبمثل

(١) عبد العزيز رفاعي ، قضية الجلاء عن مصر ، ص ٥٠ ، ٥١ .

(٢) حسين فوزي النجار ، السياسة والاستراتيجية في الشرق الاوسط ، ج ١ ، ٢١٤ ، ص

(٣) جالينا نيكتينا ، قناة السويس ، ص ٢٧ .

الوعود ، واستطاعت أن تؤجل النظر في مسألة القناة مدة سنتين كاملتين ،
وفي سنة ١٨٨٥م سمحت الى فكرة عقد مؤتمر دولي ، وبدأ انعقاد ذلك المؤتمر
في شهر مارس سنة ١٨٨٥م بباريس واشتركت فيه الدول الكبرى والدولة
العثمانية واسبانيا وهولندا ، ودعيت اليه مصر بصفة استشارية ، وفي خلال
المؤتمر بذلت إنجلترا جهودا عظيمة للابقاء على سيطرتها على قناة السويس
بينما حاولت الدول المنافسة لها اضعاف ذلك النفوذ وضمان مصالحها الذاتية
وكان من نتيجة الخلافات التي ثارت بين أعضاء البلدان المشاركة في المؤتمر ،
أن عجزت عن الوصول الى نتيجة ، على الرغم من أنه استغرق شهرين ونصف
الشهر (١) ، الا أن إنجلترا استطاعت أن تؤكّد حقوق الحكومة المصرية عند ما
وجدت محاولات مندوب الدولة العثمانية تسجيل حقوق العثمانيين ونفوذ
السلطان العثماني على مصر ، وليس غريبا على مندوب الدولة أن يبذل تلك
المحاولات ، ليضمن السيطرة على ذلك الاقليم الحيوي ، والذي يساعد فسي
ربط غرب الجزيرة بالخاصة استانبول ، وبالرغم من أن هذه الاتفاقية قد قررت
مبدأ المساواة بين الدول وأكدته كما أقرت عدم انفراد أية دولة بنفوذ متفوق
في منطقة القناة ، الا أن الانجليز بحكم احتلالهم العسكري للبلاد ومركزهم
الممتاز فيها قد أصبح لهم بالفعل من الناحية العملية نفوذ متفوق في القناة
وكانت إنجلترا قد اتهمت أثناء انعقاد المؤتمر السابق سياسة التحدث عن

الحق لصد أطماع الدول الأخرى عن مصر ، والانفراد بمركز ممتاز فيها ، كما استفادت من النصوص الناقصة والخاصة باستخدام القناة لأغراض عسكرية ففى الاتفاقية ، مما قل فعلا من قيمة مبادئ الحياد والتجريد من السلاح . ان الاتفاقية تقضى بمنع انزال القوات العسكرية والاسلحة والمواد والمعدات الحربية فى منطقة القناة أو عند مدخلها ، ولكنها قصرت هذا المنع على زمن الحرب فقط ، فتمكنت انجلترا من استكمال واعداد قواتها العسكرية وقواعد ها الاستراتيجية ومخازن تموينها فى منطقة القناة ، مما كان له أهمية كبيرة للانجليز ، وان حشد قوات عسكرية كبيرة واقامة قواعد قوية فى وقت السلم أتاح لانجلترا أن تحافظ على سيطرتها فى منطقة القناة ، وأعطاهم مزايا على العدو فى حالة الحرب ، كما أتاح لها أن تستخدم القناة لأغراض عدوانية حتى فى الحالات التى لم تشترك أثناءها رسميا فى نزاع مسلح (١) ، الا أن الباب العالى عندما رأى التوسع الانجليزى طالب بالجملاء ، لأن ذلك يخالف تصريحات الحكومة الانجليزية ، وتخشى الدولة العثمانية فى حالة التوسع الانجليزى من أن تفقد مركزها فى مصر ، وان كان اسما ، وبالتالى تفقد مركزها فى القناة ، مما ينتج عنه صعوبة الاتصال والحركة بالنسبة لغرب الجزيرة العربية وطق الاخص الحجاز فعرضت انجلترا على الباب العالى سنة ١٨٨٧م الدخول فى مفاوضات لتحديد تاريخ الجملاء عن مصر ، وشروطه ، وكانت حكومة المحافظين برئاسة سولسبرى

(١) جالينا نيكتينا ، قناة السويس ، ص ٣٠ .

التي خلفت حكومة الاحرار في الحكم رغبة في ازالة ما تركه الاحتلال الانجليزى من توتر علاقات انجلترا بالدولة العثمانية وفرنسا ، ولحلها كانت ترجو أن تصحح مركزها في مصر ، وتضفى عليه صفة شرعية ولو ضحت باحتلالها للبلاد ، فأرسلت بعثة د رومندOLF لمفاوضة الباب العالي في هذا الشأن ، وقد اتفق المفاوضون على توقيع اتفاقية ، عرفت باتفاقية الأستانة وتضمنت النص على جلاء القوات الانجليزية عن مصر في مدى ثلاث سنوات من ابرام الاتفاق أى في سنة ١٨٩٠م ، الا اذا قام خطر داخلى أو خارجى يقتضى تأجيل موعد الجلاء حتى يزول هذا الخطر (١) ، الا أن السلطان العثمانى رفض ذلك الاتفاق من أساسه ، على اعتبار أنه يتعارض مع حقوق السيادة العثمانية على مصر ، كذلك أدرك الباب العالي أن انجلترا تامل في موضوع الجلاء ، ولا تريد فعلا الانسحاب . وأحست انجلترا بموقف الدول من احتلالها لمصر وسياستها فى وادى النيل ، فرأت اهمال موضوع الجلاء ، واستمرت تسير فى سياستها التى تطيحها عليها مصالحها الاستعمارية ، وخاصة بعد أن تولى روزبرى Rosbury وزارة الخارجية البريطانية ، الذى كان من عتاة الاستعماريين الانجليز وهسو الذى ثنى جلاستون Gladston عن فكرته فى الجلاء عن مصر (٢) وكانت

(١) مصطفى الحفناوى ، قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ، ص ١٥٩ .
(٢) حسين فوزى النجار ، السياسة والاستراتيجية فى الشرق الاوسط ، ج ١ ،

انجلترا فى هذه الفترة تسلك سياسة استعمارية توسعية ، وتعترف بها علنا ،
وذلك لأسباب اقتصادية ، لأن إنجلترا تخشى أن تغلق البلاد المستعمرة
أبوابها فى وجه التجارة الانجليزية فى حالة تركها للمستعمرات (١) ، وهكذا
يتم بالاحتلال الانجليزى لمصر السيطرة الكاملة على الاحوال الداخلية وضياع
مركز الدولة العثمانية وتصبح مصر تحت الحماية الانجليزية فى كل شىء الا فى
الناحية الشكلية ، ونتجت من كل هذه الحوادث ثلاث نتائج تتصل بالقناة ،
أولها أن إنجلترا نهالت قسما كبيرا فى ادارة القناة ، فقد كان لها ثلاثة
مقاعد من بين أربعة وعشرين مقعدا فى مجلس ادارة الشركة ، وذلك بعد أن
اشتريت أسهم الخديوى سنة ١٨٧٥ م ، ولكن زادت تلك المقاعد الى سبعة
منذ الاحتلال الانجليزى ، ومنحت هذه المقاعد الزائدة لمندوبى المصالح
التجارية الانجليزية ، وزاد مجموع المقاعد فى الوقت نفسه الى اثنين وثلاثين ،
وهو العدد الذى قدر لمجلس الادارة فى الاصل ، الثانية : أن الدول قد
اعترفت بأن إنجلترا قد أصبحت حارسة للقناة ، وأنها تقوم فى مصر برعاية الميزان
الثالث ، أن إنجلترا كانت حريصة على أن تتفق مع الدول الاخرى بما يحفظ
للدول حرية مرور سفنها فى كل الظروف والاحوال ، لكنها أرادت أن تحتفظ
لنفسها بحق الدفاع عن القناة اذا أريد الاعتداء على مصر (٢) ، هذا وفى

(١) بيير رينوفن ، تاريخ القرن العشرين ، ص ٢٧ .

(٢) شونقليد هيو ج ، قناة السويس ، ص ٥٧ ، ٥٨ .

خلال سنوات السيطرة الانجليزية تحولت قناة السويس الى قاعدة عسكرية
انجليزية ذات أهمية في الشرق الأدنى والوسط ، وأصبحت القناة حلقة فسي
سلسلة القواعد العسكرية البحرية التي أقامتها إنجلترا من الجزر البريطانية
الى الهند واستراليا طرة بجبل طارق وقاما جوستا بقبرص وبورسعيد والسويس
وعدن وجزر موريس في المحيط الهندي وسنخافورة ، وقد أقام الانجليز سلسلة
من الاستحكامات الاستراتيجية والمطارات والمنشآت العسكرية الاخرى على
طول القناة ، وخاصة حول البحيرات المرة ، وخرقوا بذلك الوضع الدولي للقناة
والذي نصت عليه اتفاقية القسطنطينية سنة ١٨٨٨م بشأن قناة السويس ، وهي
الاتفاقية التي تحظر اقامة أى منشآت عسكرية على طول القناة ، واتخذت القوات
الانجليزية مقرا رئيسيا لقيادتها في فايد بمنطقة القناة ، كما اتخذت من
أبوسلطان قاعدة خزن فيها أضخم كمية من الذخائر في الشرق الادنى وأقامت
في أبوصير مطارا عسكريا على مساحة من الارض تبلغ عشرة كيلومترات ، وأنشأت
القواعد العسكرية ، (١) ونتيجة لكل الاعمال الانجليزية في المنطقة فإن
الدولة العثمانية فقدت جزءا هاما من أقاليمها المترامية الاطراف ، ولكن
اسمها كانت مصر تابعة للدولة العثمانية ، لذلك استطاع الباب العالي أن
يشير موضوع المسألة المصرية عندما عين الخديوى عباس الثانى سنة ١٨٩٢م ،
فوجد الباب العالي فرصة لاقتطاع شبه جزيرة سيناء من مصر ، وضمها الى مناطق

(١) جالينا نيكيتينا ، قناة السويس ، ص ١٠ - ١١ .

السيادة العثمانية في سوريا والحجاز وساعد في ذلك ميول الخديوى الجديد نحو الدولة العثمانية ، وكان هذا تشجيعا للباب العالي لتحقيق خطته في إعادة السيطرة على الضفة الشرقية للقناة ولم يلق هذا الاتجاه معارضة من الخديوى الجديد ، وكانت حجة الدولة العثمانية في ذلك تقوم على أن هذه المنطقة في الأصل تابعة لولاية الحجاز ، فأعادتها الدولة للخديوى اسماعيل بقصد وضع حاميات من الجند في الوجه ، والمويلح وضبا ، وسيناء لتأمين قوافل الحج التي تسلك الطريق البرى الى الحجاز ، ثم استعادت الدولة الوجه وضبا والمويلح وتريد أن تستعيد ما بقى من الاقليم لولاية الحجاز ، وثار انجلترا ، وتراجع الباب العالي ، وصد رفرمان بأن تكون سيناء داخل الحدود المصرية ، وتضم العقبة لولاية الحجاز ، (١) وبذلك تكون الدولة العثمانية فقدت مصر ، هذا الاقليم الحيوى الذى كان يمد خزانة الدولة بأموال الضرائب المفروضة على ذلك الاقليم ، بالإضافة الى أن الخديوى كان يمد الجنود العثمانيين بالمؤن اللازمة للحملات المرسلة للحجاز أوليى كما أن السلطان العثماني كان يعتمد قبل فتح القناة على الخديوى في ارسال الحملات لخفض المناطق النائرة في غرب الجزيرة العربية ، والدولة العثمانية لم تفقد مصر فقط ، بل ومعها الامتيازات السابقة ، فضلا على ذلك الشريان الحيوى الذى يربط غرب الجزيرة بحاصلة الدولة

(١) حسين فوزى النجار ، السياسة والاعترا تيجية في الشرق الاوسط ، ج ١ ،

الاستانة ، مما سهل على الدولة أن ترسل حملاتها التأديبية راسا من العاصمة الى الحجاز ومنها لمناطق اليمن ، كذلك فقدت الدولة سياستها على القناة تلك السيادة التي تخول لها فرض ما تشاء من رسوم المرور بالاضافة الى فقدانها تلك الرسوم ، وأصبحت انجلترا هي المسيطرة على مصر ، وبذلك يكون فقدانها عائق لا يستكمال نفوذ الدولة العثمانية في غرب الجزيرة العربية وعليها أن تبحث عن بديل لذلك الطريق لتيسير الاتصال بين العاصمة الاستانة والحجاز ، فكان ذلك الطريق هو سكة حديد الحجاز الذي سأحدث عنه في الفصل الخامس.

أدى افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩م إلى زيادة اهتمام الدولة العثمانية بالبحر الأحمر الذي أصبح أهم طريق للمواصلات الدولية بين الشرق والغرب ، ولسواحل الجزيرة العربية المطلة على هذا البحر ، وخاصة الساحل اليمنى الذي أصبح الانجليز يسيطرون على جانبه الجنوبي المتحكم في باب المندب ، وذلك بسيطرتهم الفعلية على عدن وما جاورها ، بعد أن تضاغت أهمية موقعها وخطورتها بتحول التجارة العالمية إلى طريق البحر الأحمر ، وقد أشرت إلى ذلك بالتفصيل في الفصل الثالث ، والذي انتقلت فيه بعد ذلك إلى الاتصالات التي قامت بين المسئولين في جهاز الحكومة الانجليزية من جهة ، وبين المسئولين في حكومة الدولة العثمانية من جهة أخرى ، الأمر الذي انتهى بانسحاب الدولة العثمانية من المناطق المجاورة لعدن ، إلا أنه منذ بداية التدخل العثماني في منطقة جنوب الجزيرة العربية - كما سبق ذكره - صار النفوذ الانجليزي مهددًا وتهديدًا خطيرًا ، وبدأ واضحًا أهمية الانتقال من دور الولاء والعطاء المتمثلين في المعاهدات التي عقدتها مع شيوخ المناطق إلى دور جديد يؤمن النفوذ الانجليزي ، ويدعم بقاءه ، ولم يكن هذا الدور الجديد سوى الحماية التي تمت مع الرؤساء العرب بموجب معاهدات عقدت بينهم وبين الحكومة الانجليزية وسأذكر ذلك في الصفحات التالية ، ففتح القناة قد سهل للدولة العثمانية نقل القوات من العاصمة الاستانة إلى اليمن ، وألى الحجاز ومنها لليمن ، واختلقت الحالة عما كانت عليه قبل فتح القناة .

ويجد ربنا أن نتبين معالم السياسة التي أتبعها البريطانيون لمواجهة خطر التوسع العثماني في المنطقة المحيطة بـ عدن ، والذي هدد الوجود البريطاني ، وذلك من خلال ما أبداه المايجور هنتر Hunter مساعد المقيم السياسي في ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٧٥م فقد قال (" ان التفاهم الحالي مع الباب العالي بخصوص القبائل المجاورة لـ عدن كان على أساس احترام استقلالها ، لأنها متحالفة وتتقاضى اعانات مالية من جلالة الطكة . . . وعلاقتنا مع القبائل لا تتضمن (بطبيعة الماهدات المبرمة معها) استقلالها ، الا أن الاتفاقيات تنص على أنه بموجب دفع مبالغ معينة يتعهد الرؤساء بالمحافظة على فتح الطرق ، وعلى صداقة الحكومة البريطانية ، فإذا ما حاول الباب العالي أن يفرى أحدا من الذين يتقاضون رواتب شهرية منا بتحويل اتجاهه عنا فليس لدينا أسانيد دبلوماسية قوية ترتكن على حقوقنا تكفلها معاهدات ، يمكننا أن نمتد عليها ، وحلفاؤنا قد يتخلون عنا ما دنا على غير اتصال بالمناطق الداخلية وهم يملكون القوة التي تمكنهم من قبول سلطة الباب العالي ، وإذا ما عقدت معاهدات مع قبائل الحبلى والفضلى والمقرى يتم بمقتضاها وضع تلك القبائل تحت الحماية البريطانية ، فانه من الصعب على العثمانيين التدخل في شؤون هؤلاء الرؤساء ") . واسترسل هنتر يوضح خطورة امتداد النفوذ العثماني بالنسبة للمصالح البريطانية " . . . وان غالبية - ان لم تكن كل القبائل التى انضوت تحت الحكم العثماني خلال السنوات القليلة الماضية - تفضل أن تظل عثمانية . . . وكان رأى هنتر توثيقا وضمانا لربط القبائل المذكورة عقد معاهدات

جديدة أقوى وأشمل مع الحقبى والمبدلى والفضلى تضع أراضى تلك القبائل تحت الحماية البريطانية وأن مثل هذه المعاهدات يمكن عقد ها بسهولة وذلك استبقاء لولا لهم وربطهم بالحكومة البريطانية ، وتبقى حجة قوة يصعب من خلالها اتصال العثمانيين بهم ، كما كان يرى أيضا عقد اتفاقات أخرى مع قبيلة الحوشبى والعلوى وبافع السفلى تتعهد بمقتضاها هذه القبائل بعدم التنازل أو السطج باحتلال أو قبول أى سلطة أخرى عدا بريطانيا ، واقترح هنتر أيضا تفويض المقيم السياسى فى عدن فى اتخاذ أفضل سياسة تجاه القميطى والقبائل الاخرى الواقعة شرقى الطريق التجارى الممتد من عدن الى المناطق الداخلية وأنه بتتفيذ تلك المقترحات يمكن للإقامة فى عدن الوقوف فى وجهه التقدم العثمانى فى الاتجاه الشرقى ، كما أيد الجنرال شنيدر Schneider والذى يشغل منصب مقيم سياسى فى عدن (١٨٧٢ - ١٨٧٨ م) وجهة نظره هنتر التى تقول فى أن فرض الحماية سوف يوقف التدخل العثمانى فى شؤونها (١) ووافقت حكومة الهند البريطانية على توصيات هنتر ومقترحاته ، ونهبت الى أبعد من ذلك ، وأوصت بعد رقعة الحماية لتضم قبائل الحوالمق السفلى ، ودثينة والمهرة ، والقميطى ولم تقتصر حكومة الهند على ذلك ، بل انها أرادت أن تمتد حماية البريطانيين على أجزاء من ساحل حضرموت فى الاتجاه الشمالى الشرقى بين أراضى عدن ومسقط حتى لو تتطلب ذلك بذل بعض الاموال لترغيب

(١) جاد طه ، سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، ص ١٧٩ - ١٨٠ .

شيوخ المناطق ، للدخول تحت الحماية البريطانية ، لتجنب أى تدخل أجنبى آخر ، ولأنهاء الخلاف مع العثمانيين أراد الانجليز الاتفاق معهم على تحديد الحدود بين الاراضى الخاضعة للحماية البريطانية وبين تلك التابعة للحكم العثمانى ، وذلك لكى لا تتاربين الجانبين مشاكل جديدة تتعلق بمناطق النفوذ^(١) ، الا أن الدولة العثمانية لم تعر لذلك اهتماما لأنها تعتبر المناطق المجاورة لعدن هى فى الأساس تابعة للحكومة العثمانية ، والتدخل البريطانى جاء اعتباطا ، فاقترح اللورد دافرين Dufferin نتيجة لذلك فى أغسطس سنة ١٨٨٦م أنه " . . . اذا لم يوافق العثمانيون على تحديد الحدود ، فانه يمكن تحديد ها دون موافقتهم واجبارهم على احترامها ، على أى حال ، لم يستمر النزاع طويلا بين البريطانيين والدولة العثمانية بالنسبة لمطية تحديد الحدود بين منطقة نفوذ كل منهما ، ولم يكن ذلك بسبب تحقيق نصر عسكري ، أو لنجاح دبلوماسى لاحدى الدولتين ، بل ان المسألة قضى فيها على صعيد اليمن نفسه ، وبمعيدا عن خطوط الحدود المقترحة ، فان العثمانيين الذين اتخذوا من اليمن كله ، بل من الجزيرة العربية عمقا لهم وظهيراً أثناء مواجهتهم للانجليز فى الجنوب . واجهوا فى اليمن ثورات كبيرة مسلحة ، سأحدث عنها فيما بعد - أدت الى تأرجح موقف العثمانيين فى اليمن ، وبالتالي الى انحسار المد العثمانى (٢) الذى كان يسعى لاستعادة النفوذ الفعلى والسيطرة على تلك

(١) فاروق أباطه ، عدن والسياسة البريطانية فى البحر الاحمر ، ص ٤٢٠ .

(٢) جاد طه ، سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، ص ٣٠٣ - ٣٢٩ .

الأقاليم المجاورة لاقليم عدن التي أصبحت تحت دائرة النفوذ البريطاني وكان الذى أشار لثق الانجليز ودفعهم لعقد معاهدات الحماية مع رؤساء القبائل المجاورة لعدن هو قيام الدولة العثمانية سنة ١٨٧٥م بتنفيذ مشروع مد خط برقى عثمانى من تعز وحتى عدن ، وبطبيعة الحال سوف تمر بأراضى تلك القبائل التى ترتبط مع بريطانيا بمعاهدات صداقة ، وكانت الدولة العثمانية فى هذه الفترة متمسكة باستعادة نفوذها الفعلى على شبه الجزيرة العربية بأكملها ، وقد قام الوكيل العثمانى فى عدن باخطار السلطات البريطانية بأن عشائر لحج تحول دون مد الخط البرقى من تعز الى عدن وأن الباب العالى سوف يضطر الى استخدام القوة ضد هذه القبائل ، وقد عارضت بريطانيا هذا الاتجاه الخاص باستخدام القوة خشية أن يحقق ذلك كسبا جديدا للنفوذ العثمانى ، وأصرّت السلطات البريطانية على أنه اذا أراد السلطان العثمانى مد خط برقى الى عدن فيمكن أن يتم ذلك عن طريق تقديم طلب الى الحكومة البريطانية للوصول الى اتفاق معها ، على ألا يصحب ذلك وجود قوة عثمانية فى تلك المناطق (١) .

والجدير بالذكر أنه منذ أن استولت بريطانيا على قبرص سنة ١٨٧٨م ، وكذلك بعد الاحتلال البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢م ساءت العلاقات بين بريطانيا والدولة العثمانية وازدادت توترا ، لذلك وجدت السلطات البريطانية فى الهند أنه من المرغوب فيه وضمانا لبقاء ولاء تلك المناطق لهم عقد معاهدات حماية مع (١) فاروق أباطه ، عدن والسياسة البريطانية فى البحر الاحمر ، ص ٤٢٠ .

روءساء القبائل العربية المجاورة لحدن تحسبا لأى مفاجاة . وقد شجع التدخل العشائى فى شئون بعض هذه القبائل سنة ١٨٨٠م وضع الترتيبات الفعلية لمقعد هذه المعاهدات ، (١) التى كانت على التالى : فى ٢ أكتوبر سنة ١٨٨٠م عقدت بريطانيا معاهدة حماية مع أمير الضالع ، وفى ٣ مارس سنة ١٨٨١م عقد معاهدة بين الفضلى وبعض القبائل المجاورة بشأن أراض متنازع عليها ، وقد لحبت بريطانيا دور الوسيط فى هذه المعاهدة ، وفى أول مايو سنة ١٨٨١م عقدت معاهدة حماية مع سلطة القميطى (٢) ، كما أصبحت سلطنة لحج محمية بريطانية ، وذلك بموجب معاهدة عقدت فى ٥ مايو سنة ١٨٨١م تعهد فيها السلطان فضل بن على بن محسن بأن يكون مسئولا عن كل تعهد يحدث من رجال القبائل ، وألا يحمق أى معاهدة مع دولة أخرى ولا تشيد قلاع ولا عمارات على ساحل البحر الا باذن حاكم عدن ، ولا يجوز للسلطان أن يستورد أو يصدر سلاحا أو ذخائر أو عبيدا أرقاء أى نوع من التجارة أو المسكرات أو المكيفات من أى جهة من الساحل الى داخل البلاد الا بعد التصريح له من حاكم عدن ، وفى مقابل ذلك تعهد الانجليز بدفع راتب شهرى للسلطان ، وفى حالة قدومه لحدن تغرب له مدفعية حامية عدن احدى وعشرين طلقة (٣) ، وفى ٧ فبراير سنة ١٨٨٢م عقدت بريطانيا

(١) جاد طه ، سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، ص ١٨١ .

(٢) محمود كامل ، اليمن شماله وجنوبه ، ص ٢٤٢ .

(٣) أحمد فخرى ، اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ١٦٣ .

معاهدة مهسلطنة لحج ، اشترت بمقتضاها قطعة أرض في منطقة الشيخ عثمان
مساحتها خمسة وثلاثون ميلا كانت تابعة لسلطان لحج ، وانتقلت ملكية قناة
المياه بين تلك المنطقة وعدن الى بريطانيا في مقابل خمسة وعشرين ألف ريال
وزيادة الاثوة الشهرية التي تدفع للسلطان الى ألف ريال ، وفي ٢ يونيو
سنة ١٨٨٢م عقدت معاهدة حماية مع سلطان العوالق السفلى ، وفي ٢٦ يوليو
سنة ١٨٨٣م عقدت بريطانيا معاهدة مطابقة مع الشحوالمكلا (سلطنة
القميطى) ، وفي ٢٣ ابريل سنة ١٨٨٦م عقدت معاهدة حماية بين بريطانيا
وسلطنة المهرة (قشن وسقطرة) وفي أول مارس سنة ١٨٨٨م عقدت معاهدة
مطابقة مع سلطنة القميطى ، وفي ٢٧ ابريل من نفس العام عقدت معاهدة
مطابقة مع شيخ عرقة وفي اليوم التالى عقدت معاهدة مطابقة مع شيخ حورة ، ولم
يكن لتلك المشيختين كيان سياسى ، وانما هما مدينتان صغيرتان على شاطئ
المحيط الهندى تقعان في سلطنة الواحدى ، وفي أول يونيو سنة ١٨٨٨م عقدت
معاهدة مطابقة مع العوالق السفلى ، وفي ١٥ يوليو عقدت معاهدة مع شيخ
العقربى ، ان باع بمقتضاها قطعة من أرض الشاطئ لتكلسة انشاء مستعمرة
عدن مقابل ألفى روبية ، ووضعت العقربى تحت الحماية البريطانية ، وفى
٤ أغسطس عقد اتفاق بين الفضلى والعبدلى "لحج" لتعيين الحدود وطمحت
انجلترا فيه دور الوسيط ، ووضعت الفضلى تحت الحماية البريطانية . وخطت
السياسة الاستعمارية خطوة تالية فى صلاتها بجنوب شبه الجزيرة العربية ، ان
مدت سلسلة معاهدات الحماية ، وفى ١٧ سبتمبر سنة ١٨٨٩م عقدت

معاهدة مع الصبيحة ، وفي ٢٥ مارس سنة ١٨٩٥م عقدت بريطانيا معاهدة
حماية مع سلطنة الواحدي ، وفي ١٦ يوليو من نفس العام عقدت معاهدة
حماية مع يافع السفلى ، وفي ١٦ أغسطس سنة ١٨٩٦م عقدت بريطانيا معاهدة
حماية مع الحوشى ، وفي ٧ يناير سنة ١٩٠٢ عقدت بريطانيا معاهدة حماية
مع عرقة في جنوب شبه الجزيرة أيدت ماجا في معاهدة ٢٧ ابريل سنة ١٨٨٨م ،
وفي ٧ ابريل سنة ١٩٠٢ عقدت معاهدة مطلة مع شيخ حورة أيدت ماجا
في معاهدة ٢٧ ابريل سنة ١٨٨٨م ، وفي ١١ مارس و ٣ يوليو ، و ٢٦ سبتمبر
سنة ١٩٠٣ عقدت معاهدات صداقة مع قبائل تابعة ليافع العليا ، وفي ٢١ أكتوبر
من العام نفسه عقدت معاهدة مطلة مع سلطان يافع العليا ، وفي ٢٩ ديسمبر
من العام نفسه عقدت معاهدة مطلة مع أحمد محسن العقبي شريف بيحان (١)
وهكذا استطاعت بريطانيا بتلك المعاهدات التي عقدتها مع شيوخ القبائل
المجاورة لمدن أن تتحكم في المنطقة بأكملها لتتجنب الصدام مع الدولة
العثمانية ، ولتكون عائقا أمام الدولة لتكلمة نفوذها على شبه الجزيرة ، وكانت
بريطانيا في أثناء تلك المدة حريصة كل الحرص على المنطقة اذ رآها منها بأهميتها
الحيوية ، وتحفظا مع طمع الدولة العثمانية ، ومن الملاحظ أن المعاهدات
السابقة التي فرضتها بريطانيا على زعماء القبائل اليمنية في جنوب اليمن تميزت
بتشابهها ، بل انها تكون صورة مكررة لبنود محددة ، كان أهمها تعهد

(١) محمود كابل ، اليمن شماله وجنوبه ، ص ٢٤٢ - ٢٤٥ .

السلاطين والامراء اليمنيين في مقابل تمتعهم بالحماية البريطانية بعدم الاتصال أو الاتفاق أو التعاقد مع أية قوى أو دول أجنبية الا بعد موافقة الحكومة البريطانية ، كما أنهم تعهدوا أيضا بعدم التنازل أو بيع أو رهن أو تأجير أية أرض من أراضيهم لأية دولة أجنبية فيما عدا الحكومة البريطانية على أنه لم تضر سنة ١٨٩٦ الا وكانت هذه المعاهدات قد تم عقدها بين الحكومة البريطانية وسبعة عشر حاكما من الحكام العشرين في المنطقة المحيطة بعدن (١) .

وهكذا انتقلت السياسة البريطانية في عدن من طور المعاهدات الولائية والتي ذكرناها في الفصل الاول الى طور المعاهدات الخاصة بالحماية مع القبائل المحيطة بعدن ، وذلك بمرونة ودهاء تميزت بها السياسة البريطانية على وجه الخصوص والذي عبر عنه أحد أعمدة الساسة في بريطانيا ان قال : " ان الهدف المرن في السياسة هو أصلح المبادئ لحل المشاكل الخارجية أو الاستعمارية " (٢) . وكانت أبعاد السياسة البريطانية التي اتبعت مع سلطنات ومشيخات المنطقة المجاورة لعدن بجنوب اليمن ، كانت تتغير من حين لآخر تبعا لتغير المقيمين السياسيين البريطانيين المسؤولين عن السلطنة في عدن (٣) ، وعلى هذا النحو أخضعت بريطانيا صفار الامراء المحليين

(١) فاروق اباطه ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر ، ص ٤٢٢ .

(٢) أمين الريحاني ، ملوك العرب ، ص ٣٧٢ .

(٣) فاروق اباطه ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر ، ص ٤٢٢ ، ٤٢٣ .

لسلطتها ، وقد ضمنت لهم المحافظة على الاستقلال الذاتي ضمن حقوق
السيادة لسلطات الحماية ، وقد ترك لحكومة الهند أمر إدارة المنطقة حيث
الرقابة غير المباشرة ، والتي كانت تتم عن طريق سلطات عدن وهذه السلطات
الآخيرة لم تسمح ولم تعمل على السيطرة على النزاعات القبلية ، بل نهبت
الى حد اعطاء زعماء القبائل صفة الامارة والسلطنة والمشخة ، ووضعهم على
رأس دويلات مصنعة ، لذلك قامت في ظل السيطرة البريطانية مجموعة من
المحميات تتكاثر كلما عقدت معاهدات جديدة للحماية مع زعماء آخرين (١) ،
على أن الانجليز هم المستفيدون من نظام الحماية ، وهم أيضا قد زادوا من
اشتغال المنافسات المحلية ، بإرسال كمية من الاسلحة من جيبوتي Djibouti
الى شبه الجزيرة العربية وكان هذا السلاح من نوع البنادق التي يحطها
الفرسان ، وهي تشبه البارودة أو بندقية الششمان الصغيرة
والعرب قادرون على تعبئة الخراطيش ، وفشكات الذخيرة في البيوت ، وقد
اعتمد رجال قبيلة المسيحية انزال الاسلحة والذخيرة العربية في منطقة
رأى المعري التي تقع غرب عدن . واستمر ذلك حتى وضع السلطان حراسا فسي
ذلك الخليج ، وفي سنة ١٨٨٣ م أمرت الحكومة الهندية بوجود منع الاسلحة الفتاكة من
من دخول المحميات ، ولكن المعري يتوق الى البندقية ، ويجد الطريق للحصول
عليها ، وأخيرا منع استعمال البنادق الفرنسية واستبدلت ببنادق انجليزية

(١) محمد عمر الحيشي ، اليمن الجنوبي ، ص ١٧ .

من نوع Martini Henney Riffe (١) •

وكتيجة حتمية لفرض الحماية على النواحي التسع والتي عرفت فيما بعد باسم محمية عدن القبرية ، فقد سعى السياسيون البريطانيون لفرض الحماية على حضرموت والمهرة ، تحسبا من تدخل نفوذ آخر ، وعلى الأخص الدولة العثمانية ، بسبب ادعائها الأحقية في الجزيرة الحربية بأقطبها ، وقد استعمل البريطانيون الطرق المطوية ، والقائمة على أساس الخداع واستغلال الخلافات وتطبيق الانتهازية السياسية ، والطرق الالطقية في استئطالة رجال القبائل وزعماء العشائر وذلك بدفع الاموال لهم ، وبذلك تم للبريطانيين اخضاع النواحي التسع بالاضافة الى السلطنة القعيطية والسلطنة الكثيرة وسلطنة المهرة وقشن ، وحضرموت الى محمية بريطانية عرفت باسم محمية عدن الشرقية (٢) ، وفي خلال هذه المرحلة كانت الادارة تابعة لحكومة بومسبي التي كانت ممثلة في بعض المشاهرات البسيطة للأمرء والشيخ استطاعوا المحافظة على وجودهم في عدن وجنوب اليمن ، فولا نظام الحماية لكانوا قد احتاجوا الى صرف مبالغ طائلة لتوفير القوات اللازمة التي يمكنها أن تحافظ على وجودهم هناك وتدرأ عنهم خطر هجوم القبائل اليمنية على قواتهم من الداخل •

(١) هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن في طوك العرب ، ص ١٠٧ •

(٢) محمد حسن الموهلي ، اغتيال بريطانيا لعدن والجنوب العربي ، ص ١٦ •

ويشير أمين الريحاني الى أن البريطانيين " . . . تجار لا يبارون ، كما أنهم ساسة محنكون ، فإذا خيروا بين نفقات الجيش والشاهرات يختارون الثانية ولا غرو ، وإذا اعتبرنا مصلحة إنجلترا أولاً ثم العالم الذي تهمة محطة المواصلات البرقية والبخارية لصققة غائمة ، أما إذا اعتبرنا مصلحة العرب فيمتهننا الأسف والغم لأنهم الخاسرون في كل حال ، الخاسرون وان تضاعفت الأموال " (١) ومن المؤكد أن نظام الحماية السابق الذكر لم يكن مجدياً لليمنيين على الإطلاق لأنه لم يوفر لقبائل المنطقة الحماية من الغزو الخارجي ومن اشتعال نيران الحرب داخلها فيما بينهم ، ولا أدل على ذلك مما أوضحه اللورد بلهافن Lord Belhaven الذي عمل مساعداً للمقيم السياسي البريطاني في عدن ، عندما أكد أن نظام الحماية وما استتبعه من الهداء البنادق والأسلحة المخطفة لشيوخ القبائل اليمنية قد عمق الخلافات بين أبناء الوطن الواحد ، وزاد من حدة الحرب الأهلية وثقافتها ، وأشعل لهيب القتال بين القبائل (٢) ، ومن ذلك أن سلطان لحج تعود عظمى مهاجمة قبائل الصبيحي الذين وصفهم أحد الكتاب بأنهم (فرسان قطاع طرق) ، وكان سلطان لحج شخصاً غير موثوق به من قبل العثمانيين الذين ارتابوا في أنه يستورد الأسلحة التي كانت ترسل الى الامام ، وكان المقيم

(١) أمين الريحاني ، طوك العرب ، ص ٣٨٥ .

(٢) فاروق أباظه ، عدن والسياسة البريطانية في طوك العرب ، ص ١٠٧ .

البريطاني في عدن يتمتع بامتيازات واسعة ، فقد كان في الوقت نفسه حاكما مدنيا وقائدا أعلى للقطاعات المتمركزة ، وكان يساعده ثلاثة أو أربعة من كبار موظفي مصلحة الادارة السياسية للهند ، ومصلحة المستعمرات وكان يضاف الى هذا العدد المحدود قاض وقائد للشرطة ورئيس لادارة المرفأ ، واستمرت الادارة على ذلك طيقارب نصف قرن ، لم تتغير الا بعد أن طرأت تحولات سياسية على الهند بعد الحرب العالمية الاولى . (١)

وهكذا نلاحظ ما سبق ذكره ، أنه نتج عن افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩م عودة الدولة العثمانية لفرض سيطرتها على اليمن ، ومن هناك رأت الدولة أن تمد سيطرتها على المناطق المجاورة لعدن ، لأنها رأت في نفسها صاحبة الحق على تلك المناطق ، ولها سيادتها على كل أنحاء الجزيرة العربية ولكن بريطانيا كما رأينا عقدت معاهدات الصداقة مع شيوخ القبائل المجاورة لعدن ، وكلما رأت بريطانيا خطة الدولة العثمانية في محاولات لاعادة السيطرة العثمانية على تلك المناطق قام البريطانيون بتطوير سياستهم مع القبائل المحيطة بعدن ، فعقدت مع شيوخ القبائل معاهدات حماية حتى تقطع كل أمل في اتصال الدولة العثمانية بهؤلاء الشيوخ ، ونهبت بريطانيا الى أبعد من ذلك إذ استطاعت أن تعقد معاهداتها مع سبع عشر مشيخة

(١) محمد هورالحبشي ، اليمن الجنوبي ، ص ١٨ .

من بين عشرين ، كما مدت معاهداتها مع القنباثل الموجود في حضرموت
وعلى الاخص تلك المحيطة بالساحل المطل على المحيط الهندي ، وعلى
أن هذه السياسة البريطانية كانت تهدف الى المحافظة على انفراد بريطانيا
بالنفوذ المطلق في عدن ، وفي المنطقة المحيطة بها ، وابعاد أى نفوذ آخر
يهدد مصالحها ، وبالفعل نجحت تلك السياسة وكانت بمثابة حجر عثرة أمام
الدولة العثمانية في محاولاتها لاستكمال نفوذها على شبه الجزيرة العربية
بوجه عام ، وعلى منطقة اليمن بوجه خاص ، وخصوصا وقد فقدت السيطرة على
قناة السويس التي شجعتها في محاولتها لاستعادة هذه السيطرة ان كانت
الطريق الذي تعبر منه القوات العثمانية ، كما سهل عطية الامدادات ، أما
الآن وقد فقدت القناة ، فعليها أن تبحث عن البديل فكان ذلك هو سكة
حديد الحجاز ، الذي سأحدث عنه في الفصل اللاحق .

عند ما خضع اليمن لسلطة الدولة العثمانية ترك العثمانيون بصورة
اجمالية للعرب ادارة شئونهم بأنفسهم مع وجود حد أدنى من التدخل طالما
كانوا يدفعون خراجا سنويا ، والذي كان عبارة عن الجباية التي كان يلتزم
بها بعض الأشخاص وتدفع من دخل الفلاحين (١) ، وذلك حتى يتمكن
المسؤولون العثمانيون من تغطية نفقات الحامية العثمانية الموجودة في اليمن
وأن ينفذوا بعض الشروط هناك ، إلا أن غالبية الولاة والمتصرفين العثمانيين
استغلوا جمع الضرائب لمصلحتهم الشخصية واستبدوا في تحصيلها ، واستعملوا
شتى الطرق وأعنف الوسائل لجمعها ، مما أثار حقد اليمنيين ، وأشعل نار
الثورة ضد الحكم العثماني ، (٢) وقد ذكر الواسعي ذلك " . . . كان القائم مقام
أو غيره من المأمورين اذا خرج لأى قضاء أو ناحية لأخذ الأعشار أخذ ما قدر
على تحصيله لنفسه ولم يساعد على كتب سند ما أخذ منهم ، ثم يرجع للحكومة
ويقول لم يدفعوا شيئا ، ثم تأمر الحكومة بنهبهم وخراب بيوتهم واحراقها
ويتظاهر المأمورون بأن أهل اليمن أشقياء ومذ هبهم زيدة " . . . (٣) لذلك
ازدادت الكراهية بين العرب عامة والترك في غضون القرن التاسع عشر نتيجة
لا انتشار الفوضى في الاطراف النائية من الدولة ، وقد حاولت الدولة علاج ذلك
عن طريق التنظيمات التي شرعت الدولة في تنفيذها منذ منتصف القرن التاسع عشر

(١) هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن في ملوك العرب ، ص ٧٩ .

(٢) جاد طه ، سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، ص ٣٠٧ .

(٣) الواسعي ، تاريخ اليمن ، ص ١٤٠ .

والتي اتصفت بالصفة المركزية ، فقد حاولت الدولة أن تتخلص من نظام الالتزام في جميع الضرائب ، وأن تستعيز عنه بنظام آخر للجباية أكثر ملائمة لمصالح السكان ، وينظام آخر لإدارة الولايات بتقسيم الدولة الى وحدات إدارية مرتبطة بالحكومة المركزية المباشرة ، (١) وقد أشرنا من قبل الى قانون الولايات الذي أصدرته الدولة سنة ١٨٦٤ م .

على أن الحكم العثماني لم يكن ثابتا في اليمن ، وذلك بسبب استمرار الثورات ، إذ لم تكن للعثمانيين شعبية في تلك المناطق ، كما أن الحروب التي شنها اليمنيون من المرتفعات منذ سنة ١٨٩٢ م وتكدت الدولة نتيجة لذلك خسائر فادحة ، حتى سمي اليمن بمقبرة الأتراك ، وقد ذكر أحد الأئمة القدامى في صنعاء ، أنه إذا أراد العثمانيون البقاء لسلطتهم في بلاد اليمن أن يتخلوا للعرب عن الأماكن التي يكون الحرف الأول من اسمها مكتوبا بالصاد ، وذلك مثل صنعاء ، وصبر ، وصعدة وصبيا وكانت الفكرة تقوم على أساس أن للعثمانيين أن يحتفظوا بالمدن الساحلية ، وأن يتركوا داخل البلاد للأئمة الذين كانوا شيئا مزعجا للعثمانيين ، خاصة رجال قبائل حاشد وبكيل الذين يعدون من أحسن البطون والعشائر المحاربة في اليمن ، وطى الأخص على الذين يقال لهم " ذو محمد ذو حسين " الذين كانوا متطرفين بتعصب ضد القسطنطينية (٢)

(١) توفيق على بوز ، العرب والترك ، ص ٥ .

(٢) هارولد ف ، عدن وجنوب اليمن في طوك العرب ، ص ٧٥ .

كما أشرت في البداية كان بعض الولاة العثمانيين هم السبب المباشر في ثورة
الاهالي لأنهم انتهجوا في اليمن منهج العنف كوسيلة لتوطيد الحكم العثماني
في اليمن ، وكثيرا ما كانوا يعتقلون العلماء والتجار ولا سيما في صنعاء ، وذلك
بتهمة ولائهم للائمة الزيديين ، وكان من هؤلاء عثمان باشا ١٣٠٥-١٣٠٧ هـ
(١٨٨٨ - ١٨٩٠ م) الذي انتهج سياسة الارهاب في اليمن ، وأشاع أخذ
الرشوة كما قام باعتقال العلماء ومنهم عبدالله الضلعى ويحيى بن أحمد المجاهد
صاحب تعز ، ثم أتى من بعده عثمان نوري باشا ، وكان مستقيما متواضعا ، الا
أن كبار موظفي العثمانيين عطوا على عزله من منصبه ، ووطد الى تركيا ، ثم تولى
بعده الولاية اسماعيل حقي باشا ١٣٠٧ - ١٣٠٨ هـ (١٨٩٠ - ١٨٩١ م) (١)
وفي سنة توليته سنة ١٨٩٠ م توفي الهادي الامام شرف الدين بن محمد ، وأجمع
أهل الأهنوم على مبايعة محمد بن يحيى حميد الدين الذي كان قد سجن في
الحديدة ، واستطاع الفرار الى الأهنوم ، (٢) وتلقب بالمنصور ، ومن الأهنوم
أخذ يرسل الى أتباعه ورجاله في جميع القبائل لاستشارة القبائل والعمل ضد
العثمانيين (٣) وقد أيدته جميع القبائل واستجابت لنداء الحرب ، وكان من
الطبيعى أن يقع خروج الامام المنصور من صنعاء ، وتحريض القبائل اليمنية على

-
- (١) محمد يحيى الحداد ، تاريخ اليمن السياسى ، ص ٣٥٢ .
 - (٢) أحمد حسين شرف الدين ، اليمن عبر التاريخ ، ص ٢٦٥ .
 - (٣) سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، ص ٨٦ .

معاربة العثمانيين وقعا كبيرا على رجال الدولة العثمانية ، وذلك لما للمنصور من المحبة والنفوذ بين رجال القبائل الذين يخشون بأسهم ، وكانت قبائل اليمن قد سئمت ضغط العثمانيين ، لذلك سرعان ما التفت حول الامام ، مما أدى الى اتجاه القبائل الى محاصرة صنعاء سنة ١٨٩١م بعد أن سيطروا على حصن " ظفير حجة " وسور ، والشرف ، وبيريم ، ودفار ، وحفاش ، وطحان ، والروضة وغيرها من جهات صنعاء ، وقبل أن يحاصر الامام المنصور مدينة صنعاء ، قام بمعاربة العثمانيين في بلاد الشرف سنة ١٨٩٠م حيث تمكن من هزيمتهم ، وقتل قائد الحامية العثمانية هناك وكان يدعى محمد عارف ، وكان لهذه المعركة أسوأ الاثر لدى الاتراك العثمانيين في اليمن في ذلك الوقت (١) ، كما أن قبائل همدان ثارت سنة ١٨٩١م (١٣٠٨هـ) بزعماء شيخها يحيى بن يحيى دوزه ، فخرج على باشا من صنعاء يرافقه السيد محمد بن علي الشريع شيخ ضلاع ، وعند ما وصلوا الى قاع المنقب ، تقابلوا مع أحمد بن محمد الشرعي الحسني ومعه جموع كثيرة من القبائل اليمنية وقد نشب بين الفريقين قتال عنيف ، وكان ذلك في عهد والي العثماني اسماعيل حقي باشا ، الذي منع المأورين من الارتشاء ، وكانت اليمن خلال ولايته أحسن ما كان قبله ، ثم توفي سنة ١٨٩١ (١٣٠٨هـ) بعد ذلك ثارت القبائل اليمنية ضد العثمانيين في معظم أرجاء اليمن وبخاصة في بلاد

(١) فاروق اباظه ، الحكم العثماني في اليمن ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

البستان ، وهى مغلاف كبير يقع غربى صنعاء ويجاور آنسى والخيمة وهمدان
وسنحان ، وقام اليمنيون هناك بانتزاع أسلاك البرق ونهبوا البريد الوارد من
الاستانة الى صنعاء عاصمة الولاية (١) ، وقد سبقت هذه المناوشات عطية
حصار صنعاء التى تمت بعد أن انهزم العثمانيون ، وتراجعوا أمام هجمات
القبائل اليمنية فى المواقع السابقة ، وقد اشتدت وطأة الحصار حول صنعاء
وتعزز واستمر شهرين ، ويصف الواسعى الحالة السيئة فى اليمن وقتئذ وخاصة
صنعاء فيقول " وحصل للناس ضيق شديد بالحصار لعدم الطعام فمن كان له
طاقة وقد رعى الصبر ومعه ما يقوم بقوته هو وأهله قعد فى صنعاء مع الخوف
وقد باع الناس أموالهم وأمتعتهم بثمن رخيص فى مقابل قوت لهم ، ومن لم يقدر
على الجلوس فى صنعاء خرج هو وأهله ووطن أنه يخرج من الظلمات الى النور ،
فإذا خرجوا لقيتهم القبائل الذين عاشوا فى الارض فسادا وبغوا على امام الحق
بفيا وعنادا . . . (٢) وعند ما اشتدت المقاومة على العثمانيين فى اليمن انهالت
البرقيات من الحديدة على الاستانة لطلب الامدادات العسكرية اللازمة لاختار
الثورة ، ومن ثم أرسل السلطان العثمانى القائد احمد فيضى باشا الى الحديدة
لقمع الثورة وعينه واليا لليمن ، وتقدم فيضى باشا على رأس قواته وقضى على الحصار
وتمكن من دخول صنعاء (٣) ، وذلك بعد حروب قاسية بين الطرفين ، وعند ما

(١) الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٢) الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ١٤٥ .

(٣) جاد طه ، سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، ص ٣٠٨ .

دخل صنعاء أعلن عفوا عاما عن القبائل التي حاربت العثمانيين ، وطلب منها التفرق والعودة الى مناطقها ليتمكن من التفاهم مع الامام المنصور لبحث امكانية التشاور والصلح ، ولكن الامام المنصور وضع شروطا للصلح لم يقبل بها الجانب العثماني ، ثم قدم السيد محمد الرفاعي من تركيا الى اليمن لاستئناف مباحثات الصلح مع الامام المنصور ، وذلك سنة ١٣١٤ هـ (١٨٩٧ م) وجرت بينهما مراسلات لم تفلح في تحقيق اتفاق بين الجانبين ، وطاد الرفاعي الى تركيا (١) وكان السلطان العثماني قد حاول استقصاء اسباب تذمر اليمنيين من الحكم العثماني لحل المشكلة ، فأرسل لهذا الغرض نايك بك الذي وصل اليمن ، عندها تقدم اليمنيون اليه بشكاوى عديدة من سوء ادارة أحمد فيضي باشا ، فاضطر السلطان أن يعزل هذا الوالي ويعين مكانه حسين حلمي باشا ١٣١٥ - ١٣١٨ هـ (١٨٩٨ - ١٩٠١ م) (٢) ، والذي وصف بالاستقامة وحب العلماء ومহারبة الظلم والرشوة ، وكما ذكر أنه أنشأ دارا للمعارف ودورا للمعلمين ومكتبا للصنائع كما أنشأ لأول مرة المدارس الاعدادية في صنعاء وسن التعليم الاجباري ، وكان التعليم قاصرا على علوم الشريعة والعربية في المساجد ، كما كون حسين حلمي هيئة استشارية من العلماء ورجال السياسة ، وكان لا ينفذ امرها ونها ولبس العمامة اليمنية وأمر الموظفين بلبسها بدلا من الطربوش الذي عمه أحمد فيضي

(١) محمد يحيى الحداد ، تاريخ اليمن السياسي ، ص ٣٥٣ .

(٢) سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية ، ص ٨٦ .

باشا على جميع الموظفين (١) ، وهكذا عاد الهدوء الى ربوع اليمن فى عهد هذا الوالى الذى أراد أن يضع مبادئ الإصلاح فيه ، ويجعل من اليمن ولاية اعتيادية ليدعم النفوذ العثمانى ، لأنه عندما يقوم ببناء المشاريع ، ويشترك الأهالى فى حلول المشاكل عندها يشعر اليمنى بقوة تلك الدولة التى تهتم بشئونه ، ويرضى عندها بالولاة ، لأنه عزل الوالى حسين حلى وعين بدلا منه المشير عبدالله باشا ١٣١٨ - ١٣٢٢ هـ (١٩٠١ - ١٩٠٥ م) فعاد الظلم الى ماكان عليه ، وكثرت الرشوة ، وانتشر الفساد ووقع الجذب والقحط ، وكان هذا الوالى مفرطاً باللهو والفناء والموسيقى رغم كبر سنه ، كما وضع سلك البرق من صنعاء الى تعز من جهة الجنوب من صنعاء ، وتمردت فى عهده سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠٢ م) قبائل الزرائيق فى سوق برغان على مسافة ٦ ساعاً من صنعاء الى الغرب ، وطنت الحكومة العثمانية متاعب كبيرة فى سبيل اخضاعها بسالتها وعدم استقرارها (٢) ، وكان عزل المشير عبدالله باشا بسبب عدم تمكنه من حماية حدود اليمن من عدوان الانجليز الذين توسعوا فى الجنوب ، وسيطروا على الضالع سنة ١٩٠٢ ، كما أن هذا الوالى لم يستنكر عدوانهم على المنطقة ، فأمر الباب العالى بعزله وتعيين توفيق باشا خلفا له (٣) . وكان الامام المنصور قد توفى

(١) محمد يحيى الحداد ، تاريخ اليمن السياسى ، ص ٣٥٣ .

(٢) حسين بن أحمد العرشى ، بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ، ص ٨٣ .

(٣) جاد طه ، سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، ص ٣٠٩ .

سنة ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م) فاجتمع العلماء على اقامة ابنه يحيى بن الامام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين ، ومبايعته بالامامة ، ولقب بعد ذلك بالمتوكل (١) ، واتخذ المتوكل قفلة عذرة عاصمة له ، وقد بدأ الامام فور توليه الامامة في تنظيم المقاومة ضد العثمانيين (٢) ، فجمع القبائل من جميع البلاد التي أجابته بالطاعة ، فأمرها بحصار المدن التي فيها العثمانيون ، فحاصروا جميع مراكز اليمن ما عدا الحديدة وتعز واستسلم العرب جميعا لذلك . (٣) وكان الامام المتوكل قد أرسل سنة ١٩٠٤ رسائل عديدة الى عدن ، ونشر دعايات للتشهير بما يقوم به العثمانيون من فظائع وعبر الامام عن غضبه وحقد ه على الحكم العثماني ، والذم للعثمانيين ، ومطالاه : (قد لبسوا أثياب الطغيان وتسربلوا بحلل الفطوسة والعصيان) ، واتهمهم بالفسق وبارتكاب الجرائم (٤) وهكذا شن اليمنيون الحرب على العثمانيين ، وعلى رأسهم المتوكل والذي انتقل من قفلة عذرة الى كوكبان ، واضطربت البلاد وزاد الضغط على العثمانيين ، كما تضافرت القوى اليمنية من قبائل همدان وحاشد والاهنوم وغيرها من القبائل التي كانت قد سئمت الوضع القائم الذي لا توجد فيه سلطة وطنية معينة تعنى

(١) الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ١٩٢ .

(٢) جاد طه ، سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، ص ٣٣١ .

(٣) الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ٢٨ .

(٤) هارولد . ف هدن وجنوب اليمن في ملوك العرب ، ص ١٢٢ .

بالمحافظة على الامن ، وادارة البلاد ادارة سليمة ، وتمكنت تلك القوى من تعقب الحاميات العثمانية ، وحصرها فى صنعاء (١) ، ولما اشتد الحصار على العثمانيين ، انتدب والى العثمانى فى صنعاء هيئة من الأتراك واليمنيين الى الامام يحيى لبحث موضوع تسليم صنعاء اليه ، والشروط التى يتم الاتفاق عليها ، لذلك تم الاتفاق على حماية الامام للعثمانيين أثناء انسحابهم من صنعاء الى حراز ، على أن تكون بلاد حراز الى جانب المناطق التى هى على ولاء العثمانيين ، وهى ألوية تهامة وتعز واب ، وانتدب الامام يحيى سيف الاسلام احمد بن قاسم حميد الدين لاستلام صنعاء من العثمانيين نيابة عنه (٢) وبعد أن استقرت الاحوال فى صنعاء دخلها الامام يحيى مع حاشيته رسميا كان ذلك فى ٢١ ابريل سنة ١٢٠٥ م وسمح للجنود العثمانيين الذين وجدهم داخل المدينة بالخروج منها الى الساحل مع تأمينهم على ارواحهم ، ومع ذلك بعد أن جردهم من أسلحتهم وذخيرتهم ، غير أنه ما كاد الامام ينصرف الى تنظيم الامور فى صنعاء واقامة الاحكام الشرعية حتى أرسل الباب العالي حملة عسكرية كبيرة وعلى رأسها أحمد فيضى باشا (٣) وذلك لتدعيم موقف العثمانيين فى اليمن ، وقد تمكن فيضى باشا من التقدم من الحديدة

(١) احمد حسين شرف الدين ، اليمن عبر التاريخ ، ص ٢٦٧

(٢) محمد يحيى الحداد ، تاريخ اليمن السياسى ، ص ٣٥٧ .

(٣) سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، ص ٨٨ .

الى صنعاء التى انسحب منها الامام يحيى ، وتمكن العثمانيون بالفعل من استعادة صنعاء فى الايام الاولى من سبتمبر سنة ١٩٠٥ ، وانسحب الامام الى شهارة (١) ، وأخذ احمد فيضى باشا ، وقوته المكونة من عشرة طوابير يتوغل فى البلاد ، وشجعه على ذلك عدم وجود مقاومة ، ولم يفتن الى أن اخلاء السبيل كان خدعة حربية من اليمنيين ، وما كاد يبلغ شهارة حتى هاجمته القبائل اليمنية بشكل مكثف ، وهنا حلت الكارثة على العثمانيين ، وقتل عدد كبير من الجنود وقوادهم ، وفر أحمد فيضى مع منبقى من جنوده ، وكانت معركة شهارة من أعظم المعارك التى دارت بين الشعب اليمنى والعثمانيين ، كما كانت نقطة تحول فى مجرى التاريخ اليمنى ، ومعركة حاسمة فى مراحل الوجود العثمانى ، وسميت اليمن بعد تلك المعركة بمقبرة الاناضول (٢) . رأى المشير أحمد فيضى باشا بعد دخوله صنعاء وبعد المعناء الشديد الذى واجهه ، والاطار المحدقة به ، انه من الافضل عقد صلح مع الامام لينهى الخلاف ، ويريح الدولة من مشكلة استعصى حلها ، فأوفد وفدا الى صعدة لزيارة الامام ومفاوضته فى عقد صلح ، فوضع شروطا معتدلة سلمها للوفد (٣) وتضمنت هذه الشروط تطبيق أحكام الشريعة الفراء ، وأن يرجع عزل القضاة وحكام الشرع وتعيينهم الى الامام ، وأن

-
- (١) جاد طه ، سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، ص ٣٣٢ .
 - (٢) أحمد حسين شرف الدين ، اليمن عبر التاريخ ، ص ٢٦٨ .
 - (٣) أمين سميد ، تاريخ اليمن ، ص ٢٨ .

تكون معاقبة الخائنين والمرتشين ضوطة بالامام ، وأن تجبى الاموال بواسطة
مشايخ البلاد تحت نظارة مأمورى الدولة العثمانية ، ولا يكون للامام علاقة
بقبض الاموال الاميرية ، على أن تحفظ الدولة العثمانية على أمن الدولة الخارجى
فأبت الحكومة العثمانية قبول هذه المقترحات ، فتجدد القتال مرة أخرى . (١)

من السابق بيد ولنا أن استمرار الثورات اليمنية ضد السلطة العثمانية
والذى كان سببها كما رأينا طبيعة المذهب الزيدى بالاضافة الى سوء حكم
بعض الولاة العثمانيين الذين بالفوا فى اضطهاد وارهاق الاهالى ، كما أن
الاختلاف المذهبى بين الائمة الزيدية والسلطة العثمانية زاد من حدة تلك
الثورات ضد الحكومة العثمانية التى ادخلت نظاما لم يألفها الزيدون فى اليمن ،
وذلك فى رأى الائمة الزيدية ، على أن تلك الثورات قد لاقت اهتماما كبيرا من
قبل جهاز الحكومة العثمانية ، فأرسلت الدولة عدة قواد عثمانيين لخمادها ،
واستطاعوا النجاح فى كثير من الاحيان ، لكن انضواء الاهالى تحت راية الثورة
التي يقودها الامام الزيدى زاد من خطورة تلك الثورات على الحاميات العثمانية
التي ظلت مستمرة ، وكان اهتمام الدولة العثمانية فى اخماد الثورات القائمة
فى اليمن ، والرغبة فى السيطرة الكاملة على ذلك الجزء ، انما يرجع الى تأمين
الحجاز من ناحية الجنوب وقيام خط دفاعى فى تلك الناحية خوفا من تطلع أية
دولة أجنبية للأراضى المقدسة .

وهكذا يتضح مما سبق أن تلك المشاكل التي قامت في وجه الدولة العثمانية والمتمثلة في احتلال إنجلترا لمصر ، وسيطرتها على قناة السويس ان أصبح مرور الجيوش العثمانية في القناة خاضعا للوضع السياسي بين الدولتين العثمانية والبريطانية ، ولذلك كانت السفن العثمانية تقف في قناة السويس أحيانا لمدة أربعين يوما بحجة الحجز الصحي وكان الجنود يصابون بالأمراض من جراء هذا التوقف ، وعندما يسمح لهم بالسفر كانوا يصلون الى اليمن منهوكين ، أما عن زيادة النفوذ البريطاني في عدن واستمرار الثورات في اليمن فقد كانا عائقين لاستكمال نفوذ الدولة العثمانية على غرب الجزيرة العربية ، وعلى الاخص المناطق الجنوبية ، ان كانت الدولة العثمانية قد أخذت تسعى جاهدة لتأمين الأماكن المقدسة ، وأمام تلك الحوائق غيرت الدولة من خططها لتأمين الحجاز وذلك بالاتجاه الى انشاء سكة حديد الحجاز الذي سأحدث عنه في الفصل التالي .

الفصل الخامس

سكة حديد البحار

أ - افتتاح الخط ١٩٠٨ م

ب - أهمية الخط في ضوء

العوائق السابقة.

كان لدى الدولة العثمانية اتجاه جديد في الاعتماد على طــــرق
المواصلات وكان ذلك مع نهاية القرن التاسع عشر ، وبداية القرن العشرين ،
وذلك بفرض ربط أجزاء الدولة المترامية الأطراف ، حتى يسهل لها السيطرة
على كل الاقاليم ، ويساعدها أيضا على الحشد ، والنقل العسكــــري السريع
حين الاقتضاء ، ومعاونة السلطان في حكم الدولة ، وتدعيم كيانهـا كان ذلك
الاتجاه هو بناء شبكة للسكك الحديدية .

ففي سنة ١٨٨٨م أنشأ (فون بريس) مدير بنك (دوتش) الالمانى
خط حديد (حيدر باشا - ايزميت) ، وذلك لحساب الدولة العثمانية ، ثم
حصل (فون بريس) على امتياز خط آخر يربط ايزميت بأنقرة ، وفى نفس الوقت
حصل على وعد بامتياز خط ثالث يربط هذا الخط ببغداد عن طريق (سيواس)
وديار بكر ، والموصل ، وفى السنة التالية اتحد بنك دوتش مع بنك (دورتهمر غيس)
فى (ستوتارد) ، وأسسا شركة الخطوط الحديدية الاناضولية العثمانية ،
وكان رأس مال الشركة ألمانيا ، وعهد بانشاء الخطوط الى شركة ألمانية أخرى
تأسست فى (فرانكفورت) اسمها (شركة انشاء خطوط حديد الاناضول) (١) ،
وفى سنة ١٨٩٣م استطاعت هذه الشركة أن تصل الكيلو الثامن والسبعين
بعد الخمسة مائة من مدينة أنقرة شرقا ، ولكن احتجاج الروس جعل هذا الخط

(١) جان بيشون ، بواعث الحرب العالمية الاولى ، ص ٩٤ .

يتحول عن طريقه المرسوم في التصميم ، فاتجه الخط الى القرب ناحية اسكن شهر
وفي نفس السنة (١٨٩٣ م) حصلت الشركة على امتياز خط قونية (١) ، وخط
أنقرة - قيصري ، على أن يمتد الى سيواس وديار بكر فبغداد ، الا أنه ترك العمل
فيه ، ووصل الخط الاول الى قونية في أواخر سنة ١٨٩٥ م ، وفي ٢٧ تشرين
الثاني سنة ١٨٩٩ م أعطت الدولة العثمانية وعدا لشركة خطوط حديد الاناضول
باعطاء الشركة امتيازاً بخط حديدي يمتد من قونية الى خليج البصرة عبر بغداد
وفي سنة ١٩٠٣ م انقلب هذا الوعد الى امتياز ، واتفق على أن يمر الخط بأرگس
وأضنة وبغلة وكليس وحران والموصل وبغداد وكربلاء والنجف والبصرة ، غير أن
البصرة لم تعين بصورة قاطعة لنهاية الخط وانما عينت الزبير التي هي آخر محطة
قبل البصرة كنقطة نهائية . وكان أيضا من ضمن مخططات الباب العالي عمل
شبكة أخرى تمتد الى مرعش وحلب وأرقة وماردين واريل وخانقين (٢) ، وبحصول
ألمانيا على تلك الامتيازات في مد شبكة الخطوط الحديدية ، استطاعت أن تأخذ
لنفسها منطقة نفوذ في آسيا الصغرى ، وخاصة امتياز سنة ١٩٠٣ في تمديد خط
بغداد ، كما كان لها منطقة نفوذ في شمال الصين في إقليم شان تونغ Chan Toungh
منذ سنة ١٨٩٨ م ، وفوق ذلك كانت التجارة الألمانية تهذل جهودا قصوى فسى
كسب الاسواق فصادت نجاحا كبيرا بفضل تنظيم بيوتها التجارية ونشاط عملائها

(١) باسل دقاق ، تركيا بين جبارين ، ص ٢٨ .

(٢) جان بيشون ، بواعث الحرب العالمية الاولى ، ص ٩٥ .

وحسن تنظيم المصارف في الخارج . (١)

وكان الألمان يطمحون بأن يكون لهم مناطق نفوذ في آسيا الصغرى ،
على أن يكون ذلك بالطرق السلمية وعلى الأخص عن طريق الخطوط الحديدية
وبعبر عن ذلك الباحث السياسي جاك انسيل Gack Anseel ان يقول " ان
مشروع الخط الحديدى الذى وضعه الالمان ، لا الخطوط المتقطعة التى وضعت
الدول الاوربية الاخرى تصميمها بل الخط العثمانى العظيم الذى يمتد من
القسطنطينية الى مكة وسفداد قد أسكر السلطان عبد الحميد واجتذبه " . (٢)
من خلال هذا العرض يتبين مدى رغبة السلطان فى محاولته لاستعادة نفوذ
الدولة العثمانية على الجزيرة العربية بأكملها ، وذلك عن طريق الخطوط
الحديدية ، والتى تؤمن ذلك النفوذ تأمينا مباشرا ، على أن الخط الحجازى
وهو الأهم سوف يصل الى مكة المكرمة ، وذلك حتى ترتبط ارتباطا مباشرا
بالعاصمة خاصة بعد أن واجهت تلك العوائق السابقة والتى مرت بنا فى
الفصل الرابع . كما أقامت الدولة العثمانية خطوط حديد بين مدانية وأزمير
وبين مرسين وحلب ، وذلك بروءوس أموال فرنسية الا أن المشاريع الالمانية السالفة
الذكر أضرت بالمصالح الفرنسية ، فامتياز خط اسكى شهر - قونية أعاق تمديد

(١) بيير رونوفن ، تاريخ القرن العشرين ، ص ١١ .

(٢) باسل دقاق ، تركيا بين جبارين ، ص ٢٧ .

خط حديد بورسة - مدانية الفرنسى ، والذي أنشئ سنة ١٨٩٣ م الى كوتاهية
وقرة حصار ، وقونية ، لذلك سعت الحكومة الفرنسية لدى السلطان فنالت
امتياز خط الشام وحلب ، وكان الوعد يتضمن أيضا مد الخط الى أبيرة (بيرة جك)
مارا بالفرات ، وعند ما اشترى الفرنسيون خط أزمير - قصبه الانكليزي حصلوا على
امتياز يمد الى قرة حصار ، كذلك كان خط امتياز بغداد ضربة أخرى للمصالح
الفرنسية في كيكية والاقسام الشمالية السورية وفي حوض الفرات أيضا ، ان
انقطع الامل في ربط خط مرسين واضنة ، والذي كانت تملكه شركة فرنسية
انجليزية بولايتى قونية وحلب ، وتخلت عنه أخيرا الشركة الفرنسية الانجليزية
لألمانيا ، بالاضافة الى هذا فقد نال الالمان وعدا بمد فرع خط حديد
بغداد الى حلب ، كذلك منح الالمان حق الافضلية في انشاء خط يتفرع عن أى
فرع من فروع الخطوط الالمانية ، وينتهى بأى نقطة على ساحل البحر الابيض
المتوسط بين مرسين وطرابلس الشام (١) ، من خلال ذلك يتبين اهتمام
الدولة العثمانية البالغ في اقامة الخطوط الحديدية ، وذلك من أجل ربط أجزاء
الدولة بعضها ببعض حتى يتيسر لها احكام قبضتها على تلك الاجزاء المترامية
الأطراف ، بغض النظر عن التسابق الاوربي في الحصول على تلك الامتيازات
فالذى يعنينا أولا وأخيرا مصالح الدولة العثمانية من خلال اقامة تلك الشبكة ،
والتي تطورت مع مر السنين ، وكان أيضا للحجاز نصيب كبير ان اهتمت الدولة

(١) جان بيشون ، بواعث الحرب العالمية الاولى ، ص ٩٧ - ٩٨ .

وطى رأسها السلطان بمد خط حديد الحجاز ، هذا ان لم يكن الخط الحجازى هو الأساس فى اقامة الخطوط الاخرى سواء فى آسيا أو البلاد العربية والذي يجب أن نعرفه أنه لم تكن للدولة أى أطماع اقتصادية فى أى بقعة من أقاليمها ، بقدر ما تهتم بالمكانة الروحية ، فالحجاز فى ذلك الوقت ، بل الجزيرة بأكملها لم يكن يوجد فيها أى شىء يمكن أن تطمح فيه ، بل طى العكس فقد كانت الدولة تصرف مبالغ طائلة من خزينتها حتى تتمكن من السيطرة على الجزيرة العربية ، وحتى تظهر أمام المسلمين أن لها من القوة ما يجعلها تسيطر على تلك الاقاليم ، أما من ناحية الخط الحجازى فقد اظهر الدولة العثمانية بمظهر الدولة المتطورة مثل الدول الأجنبية .

ولم تكن فكرة بناء سكة حديد الحجاز وليدة وقتها ، وليست من بنات أفكار السلطان عبد الحميد ، بل فكر فيها من قبل الدكتور زامبل Zambel الأمريكى الجنسية ، الالمانى الاصل ، ان اقترح سنة ١٨٦٤م على الحكومة العثمانية مد خط حديدى بين دمشق وساحل البحر الاحمر ، وفى سنة ١٨٨١م (١٢٩٨هـ) وافق وزير الاشغال العامة العثمانى على هذا المشروع ، ولكن المهندسين والجغرافيين قالوا بتعذر انشاء وحجتهم أن المنطقة التى يخترقها الخط تنزلها قبائل بدوية لا يؤمن جانبها ثم ان المواصلات البحرية أقل كلفة (١)

(١) محمد كرد على ، خطط الشام ، ج ٥ ، ص ١٧٠ - ١٧١ .

وخاصة فحين بدت في الافق فوائد قناة السويس للدولة كما بينا من قبل -
الا أن الفكرة تفتت مرة أخرى في رأس عزت باشا الذي كان الحامل الأكبر في
تنفيذها واتمامها ، فقد كانت خطته مد سكة حديد من دمشق الى المدينة
ومنها الى مكة ، وألف عزت باشا مجلسا برآسته ، فوجه نداء الى العالم
الاسلامي وضح فيه الدافع الديني الذي ألهم الخليفة في مد السكة الحديدية
وأهاب بالمسلمين أن يتبرعوا بالمال لجمع نفقات المشروع (١) ، وأعطى
السلطان عبد الحميد في ابريل سنة ١٩٠٠م عن رغبة الحكومة في انشاء هذا
الخط ، وأقام دعاية واسعة حوله في العالم ، من حيث أنه سيسهل سفر الحجاج
ويؤمن راحتهم ، وأنه مشروع خيرى يجب على المسلمين أن يعطوا على انشاءه (٢) ،
وحرص السلطان على أن يكون على رأس قائمة المكتتبين فاكتب ب ٣٢٠ ألف ليرة
عثمانية ، وتبعه في ذلك الطوك والامراء المسلمون ، فطك فارس تبرع ب ٥٠ ألف
ليرة عثمانية ، كما تعهد خديوى مصر بإرسال كمية من مواد البناء والانشاء ،
وأنشئت الجمعيات الاسلامية لجمع الأموال وذلك في معظم الممالك الاسلامية ،
ولم تنقطع الاعانات مدة انشاء الخط مما يدل على سريان روح التضامن فسي
الشعوب الاسلامية ، فضلا عن ذلك فقد أمر السلطان بأن يتنازل موظفوا الدولة
براتب شهر لاعانة الخط ، ثم أمر بعد ذلك بخمس ١٠ ٪ من مرتباتهم وذلك لشهر

(١) جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ص ١٤٢ .

(٢) وجيه الخيى ، الخط الحديدى الحجازى ، ماضيه وحاضره (مقالة في مجلة
الفيصل عدد ٣٢ ص ١٢٦ .

فى كل سنة، وأحدثت طوابع الخط الحجازى وبعض الضرائب الجمركية (١) ،
ويقدر مجموع الاموال التى جمعت للمشروع ٧٥٠ ألف ليرة عثمانية ، أى حوالى
خمسة عشر مليون دولار ، ويبدو أن دعوة السلطان العثمانى لاقت قبولا حسنا
من رعاياه ومن الممالك الاسلامية الاخرى (٢) .

وشرع بإنشاء الخط الحجازى فى شهر سبتمبر سنة ١٩٠٠ م ابتداء من
قرية المزيريب فى منطقة حوران جنوب دمشق ، وذلك بسبب وجود سكة حديد
للفرنسيين بين دمشق والمزيريب ، كانوا قد نالوا امتيازها كما ذكرت سابقا
سنة ١٨٩٣ م ، وعملوا فى استئثارها سنة ١٨٩٤ م فى وقت لم يفكر فيه السلطان
عبد الحميد فى خط الحجاز ، وكان من شروط الامتياز أن لا يقام خط مواز فى دواعا
لذلك رأى السلطان الاستفادة من هذه السكة لنقل الحجاج من دمشق الى
المزيريب ، ومنها يكملوا رحلتهم على الخط الجديد ، غير أن المنافسة سرعان
ما قامت بين ادارتى الخطين العثمانى والفرنسى ، فصمم عبد الحميد على وصل
المزيريب بدمشق ، فاحتجت الشركة الفرنسية على ذلك لمخالفته شروط امتيازها ،
عندئذ تم اتفاق بين الجانبين لقاء منح الشركة الفرنسية امتياز إنشاء خط
من دمشق الى حلب وذلك فى فبراير سنة ١٩٠٥ م (٣) ، وكان السلطان

(١) محمد كرد على ، خطط الشام ، ج ٥ ، ص ١٧١ - ١٧٢ .

(٢) جيمس موريس ، الطوك الهاشميون ، ص ١٨ .

(٣) توفيق على بى ، العرب والترك ، ج ٥ ، ص ٣٦ .

عبد الحميد قد اشترى سنة ١٩٠٢ م خط حديد حيفا من شركة خط حديد سورية
العثمانية، والتي تأسست سنة ١٨٩١ م برأس مال انجليزي وأرادت هذه الشركة
انشاء خط يربط حيفا بالشام، الا أن المهندسين الألمان تمكنوا من انشاء
خط حديدى بين حيفا ودرعا مخترقا مجاين عامر، ان يلتقى بالخط الحجازى،^(١)
وكان السبب فى انشاء ذلك الخط هو حاجة السلطان ومهندسه الى مرفأ
بحرى يستمد منه الخط الحجازى لوازمه وأدواته ويكون منفذا للأقطار الواسعة
التي سيمتد فيها فقرر انشاء ذلك الخط الحديدى الجديد بين حيفا ودرعا
وكان الانجليز أشد الناس رغبة بنيل امتياز هذا الخط خاصة بعد احتلالهم
جزيرة قبرص، (٢) وفى الوقت الذى أنجز فيه خط حيفا - درعا تم بناء القسم
الثالث من الخط الحجازى الواقع بين عمان - معان، وفى أول سبتمبر ذهب
وفد برئاسة طرفان باشا وزير الخارجية العثمانية للاحتفال بافتتاح الخط
الحجازى بين دمشق ومعان، الذى يبلغ طوله ٤٥٩ كيلومترا، (٣) وفى
سنة ١٩٠٦ م قامت خلافات بين الدولة العثمانية والحكومة الانجليزية، بسبب
الخط الحجازى متمثلة فى سلطة المقيم البريطانى فى مصر اللورد كرومر حول
قضية طابا، ذلك أن الدولة العثمانية عندما اقترت بناء الخط من نقطة توازى حلف
خليج العقبة أرادوا انشاء فرع للخط بين مدينة معان والعقبة، لتقريب المسافة

(١) جان بيشون، بواعث الحرب العالمية الاولى، ص ١٠٠.

(٢) محمد كرد على، خطط الشام، ج ٥، ص ١٧٤.

(٣) المصدر السابق ص ١٧٦.

بين البحر الاحمر والديار المصرية من جهة والخط الحجازى من جهة أخرى ،
الذى يستقبل أيضا حجاج مصر ، وشمال افريقيا والمغرب العربى (١) وكانت
حجة انشاء هذا الفرع من الخط * معان - العقبة * لتسهيل اسراع القوات
الحربية التى ترسل لقمع الثورات فى اليمن حيث تركب البحر من ميناء العقبة ،
وقد اجتازت القوات العثمانية حدود مصر فى ١٥ فبراير سنة ١٩٠٦ م ، واحتلت
طابا . (٢) وكان السلطان عبد الحميد يهدف من احتلال طابا ابعاد الخطر
الانجليزى عن الخط الحجازى ، وذلك بغرض تعديل الحدود المصرية -
العثمانية فى شبه جزيرة سيناء ، بحيث يكون خط الحدود الجديد يمتد من
العريش الى السويس بدلا من امتداده من رفح الى العقبة ، على أن يترك لمصر
القسم الجنوبى من شبه جزيرة سيناء ، ابتداء من خط يمتد من جنوب طابا
الى جنوب السويس ، وبناء على ذلك نقلت الحكومة العثمانية عمود الحدود من
رفح الى العريش نحو الغرب ، بحيث تكون المساحة التى تطبقها الدولة
العثمانية من شبه جزيرة سيناء عبارة عن مثلث ضلعاه خط رفح - العريش ،
العريش - السويس ، وقاعدته خط طابا - السويس ، وقد ادعت حكومة الاستانة
أن شبه جزيرة سيناء برمتها تابعة للأراضى الحجازية مباشرة وأن السلطان
العثمانى تركها للحكومة المصرية بغرض حراسة محط الحج ، الذى كان يذهب من

سمرقند الى البحر المتوسط .

- (١) توفيق على برد ، العرب والترك ، ص ٢٢٠ .
المعجم الجغرافى ، الجزء الاول ، ص ١٠١ ، قابا نقطة بجوار
(٢) جان بيشون ، بواعث الحرب العالمية الاولى ، ص ١٠١ ، قابا نقطة بجوار

مصر عن طريق البحر مارا بسينا والعقبة ومداين صالح ، وعند ما أصبح المحمل
المصرى يسلك الطريق البحرى من السويس لم يعد هناك لزوم لطريق البحر ،
لذلك رأت أن تربط ادارته بولاية الحجاز (١) ، وبالإضافة الى تأمين الحجاز
أرادت الدولة العثمانية من استرجاع طابا أن تستولى على بعض النقاط
الاستراتيجية فى شرقى سيناء لتشرف منها على شبه الجزيرة وتتحكم فى طرق
الاقتراب الرئيسية الى دلتا النيل حيث تستطيع أن تهدد القوات الانجليزية
فيها ، وتؤثر تأثيرا قويا على سلامة القناة ، (٢) التى أصبحت خارجة عن
إرادة الدولة وكانت سكة حديد معان - العقبة التى تربط العقبة بسكة حديد
الحجاز جزءا من هذه السياسة الاستراتيجية الجديدة والتى قد شرعت فى مدها
سنة ١٩٠٦ م مما دعا بريطانيا الى الاهتمام بحماية حدود مصر الشرقية ،
ودراسة مشروع استراتيجى للدفاع عنها يقوم على وضع قوات عسكرية على طول
الخط من العريش الى نهاية الحدود المصرية على خليج العقبة ، وسارعت
القوات العثمانية باحتلال طابا والتى تقع الى الغرب من العقبة بثمانية أميال
على امتداد الخليج ، وقد أثار هذا العمل بريطانيا ، واحتجت على الدولة
العثمانية ، ولكن العثمانيين كانوا يهدفون من وراء ذلك العمل فتح المسألة
المصرية ، وإخراج بريطانيا أمام الراى العام الدولى ، وطمسها على الجلاء

(١) احمد شفيق باشا ، مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٢ ، قسم ٢ ، ص ٨٠ .

(٢) حسين فوزى النجار ، الميلاسة الاستراتيجية فى الشرق الاوسط ج ١ ص ٢٦٩ .

لتقى بمحمود ها والتي سبق وأن قطعتها على نفسها ، كما كانت الدولة ترمى الى الاستيلاء على بعض المراكز التي تشرف على خطوط الاقتراب الرئيسية في سيناء احتياطا للمستقبل ، ولكن تطور الأحوال الدولية لم تكن في صالح الدولة ، فقد ارتبطت فرنسا بالاتفاق الودي مع بريطانيا سنة ١٩٠٤ ، ان ذهب سفيرها في الاستانة ينصح الباب العالي بالانزعان لحطاب بريطانيا ، كما وقعت روسيا نفس الموقف ، ولزمت بريطانيا موقف الحياد (١) ، وعند ما تأزمت الحالة وقف الانجليز موقفا حازما ، فحشدوا قوى بحرية وبرية كبيرة قدمت من جبل طارق ومالطة ، والهند وجزر بريطانيا ، وأعلن الباب العالي من جانبه النفير العام وأخذ بالحشد ، الا أن السلطان لم يلبث أن قبل الانذار الانجليزي وسحب قواته من طابا والعودة الى الحدود القديمة ، (٢) وكانت هذه المشكلة قد ظهرت عند تولية الخديوي عباس الثاني كما ذكرت سابقا ، وذلك عندما أرادت الدولة أن تنص في فرمان توليته على ما يجعل سيناء خارج الحدود الشرقية المصرية على اعتبار أنها تابعة لولاية الحجاز ، مما يعرض قناة السويس لخطر اقتراب النفوذ العثماني فضلا عما تضيفه صحراء سيناء من حماية طبيعية على القناة ، وتضعف تلك الحماية اذا كانت سيناء خارج حدود مصر ، لذلك يرجع اهتمام بريطانيا بالمعقبة الى أهميتها الاستراتيجية كمركز يؤثر تأثيرا مباشرا على سلامة الطريق البري الى

(١) حسين فوزي النجار ، السياسة والاستراتيجية في الشرق الاوسط ج ١ ، ص ٢٧٠

(٢) جان بميشون ، بواعث الحرب العالمية الاولى ، ص ١٨ .

الخليج الفارسي ثم الى الهند كما تتحكم العقبة في الطريق البري الى الحجاز وفلسطين وسوريا ، كما تطل على صحراء سيناء والتي يعتمد عليها في الدفاع عن قناة السويس والذي يمتد من غزة الى بير السبع (١) . ومن هنا أدركت الدولة العثمانية الأهمية الاستراتيجية لميناء العقبة ورغبت في إعادة السيطرة عليها لتتحكم مرة أخرى في قناة السويس والتي ساعدت في تنفيذ سياستها على غرب الجزيرة ، وحتى تهدد أيضا دولة ذات نفوذ تتحكم في السيطرة على ممر مائي حيوي يتحكم في التجارة العالمية .

أخذت العقبات تواجه السلطان العثماني في بناء سكة حديد الحجاز ومن تلك العقبات عرب الجزيرة ، فقد طرأت قبائل الحجاز معارضة عنيفة في اكمال الخط الحديدي الذي يحرم بعض أفرادها كأصحاب الابل ، (٢) الذين يقومون بنقل الحجاج من موارد يعتمدون عليها في حياتهم ، ان يحول ذلك الخط من ذلك المورد ، كما يضع عنهم الاتاوات والهدايا التي يتلقونها سنويا لقاء ترك قوافل الحجاج تمر بسلام الى الاراضي المقدسة ، وتأمين ذلك الطريق المقدس لذلك ما ان وصلت أعمال بناء الخط مشارف الحجاز حتى بدأ البدو من العرب بأعمال العنف والسطو على معداته ، وقد هاجموا المشير

(١) حسين فوزي النجار ، السياسة والاستراتيجية في الشرق الاوسط ، ج ١ ،

ص ٢٦٢ .

(٢) جيس موريس ، الملوك الهاشميون ، ص ١٩ .

كاظم باشا المدير العام للخط وتغلبوا عليه وقتلوا مائة من رجال حرسه ، واضطرت الحكومة العثمانية نتيجة لذلك من اقامة أكثر من خمسة آلاف جندي نظامي لحراسة منشآت الخط ، حتى نفذ ذلك المشروع . (١)

رغم كل الصعوبات السابقة والتي استطاعت فيها الدولة أن تذللها بحكمة بالغة فقد ظلت الدولة العثمانية تدرك مدى أهمية هذا المشروع الحيوي في تنفيذ سياستها نحو الجزيرة ، وتوهم ايانا عميقا بالفائدة التي تعود على المسلمين بصفة عامة والدولة العثمانية بصفة خاصة . ففي سنة ١٣٢٦ هـ أي في خريف سنة ١٩٠٨ م كان العمل قد تم في انشاء الخط من دمشق الى المدينة المنورة ، (٢) وفي الحقيقة أنه لم يكن أحد يتوقع أن العمل سيتم بهذه السرعة وهذا النظام نظرا لطول المسافة ، وقلة المياه ووعورة المناطق ، ولكن اصرار الدولة وثقتها بالفوائد ذلت كل هذه الصعاب ، ونجحت في انجازه ليكون نقطة اتصال بين الأقطار وخير واسطة نقل لتوفير راحة الحجاج ، وتسهيل مسالك الحج والزيارة (٣) وتأمين تواجد الدولة في غربي الجزيرة العربية . وبلغت المسافة بين المدينة المنورة ودمشق ١٣٠٢ كم والى حيفا ١٣٣٣ كم تقطعها القطارات في أربعة أيام تقريبا ، ان كان متوسط سيرها ٨٠ كم / ساعة وسير القطارات

(١) توفيق على ، مصر والترك ، ص ٤٥ .

(٢) فائق صواف ، العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، ص ١٣٠ .

(٣) محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ٥ ، ص ١٧٢ .

من الشام الى معان على متوسط ٣٠ كم / ساعة ، ومن معان الى المدينة على متوسط ١٥ كم / ساعة ، وبلغت أجرة القطار في الدرجة الاولى من حيفا الى المدينة نهابا واياها أربعة عشر جنيها عثمانيا ، وفي الدرجة الاخرى نصف المبلغ (١) . والجدير ذكره أن خطة الدولة كانت في بناء الخط الحجازي ووصله لمكة المكرمة فاليمين (٢) كما كان خط الحجاز وخط بغداد أساسا لعدة خطوط فرعية تخرج منه ، إذ ربطت الاناضول بباقي اقاليم الدولة العثمانية ، فمثلا كان خط الاسكندرونة قد أوصل ميناءها بخط حديد بغداد ، وكذلك خط درط المزيريب وادي اليرموك ، كان قد تفرع من خط الحجاز (٣) ، وبذلك تكون الدولة العثمانية قد استطاعت أن تربط كثيرا من أجزاء الدولة بالماصة الاستانة ، بعد أن تم بناء تلك الشبكة الواسعة ، وكان آخر تلك الشبكة وأهمها للدولة هو خط حديد الحجاز ، الذي استطاعت أن تتم بناءه بسرعة فائقة نظرا للأهمية الكبرى التي تتعلق به . فالحجاز يعنى الشيء الكثير للدولة كما أوضحنا من قبل لذلك تغلبت على كل الصعوبات التي وقعت أمامها حتى يكون الخط أداة فعالة تسيطر بها على الحجاز بعد أن فقدت السيطرة على قناة السويس وتحقق ذلك لا يكون الا بالخط الحجازي ، فهي مستعدة لكي تضحي بالكثير لتحقيق الفائدة التي تعود عليها والتي سوف أتحدث عنها في الصفحات التالية .

(١) محمد لبيب البنتوني ، الرحلة الحجازية ، ص ٣٠٣ .

(٢) علي حافظ ، فصول من تاريخ المدينة ، ص ٢٤ . (٣) حسين فوزي النجار

السياسة والاستراتيجية في الشرق الاوسط ، ج ١ ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

قبل افتتاح سكة حديد الحجاز رسميا سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) تحدث السفير البريطاني في الاستانة عن أهمية الخط للدولة العثمانية في سنة ١٨٠٧ م مانصه " . . . ، ومهما يكن ، فليس هناك غير عاملين اثنين يظهران بوضوح من بين عوامل الحالة السياسية العامة خلال السنوات العشرة الأخيرة ، أما الأول فهو تلك السياسة الماهرة التي خدت بالسلطان أن يظهر أمام ثلاثمائة مليون من المسلمين بمظهر الخليفة والزعيم الروحي للإسلام ، وثبت في نفوس رعاياه الحماسة والاستجابة لشعوره الديني حين مد سكة حديد الحجاز التي ستيسر لكل مسلم في المستقبل القريب سبل الحج إلى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة . . . ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح رعاياه يدينون له بالطاعة (١) إلى حد لم يسبق له مثيل . . . " كان ذلك هو تقرير السفير البريطاني لحكومته عن أهمية سكة حديد الحجاز للدولة العثمانية قبل افتتاح الخط ، أما بعد افتتاح الخط فيعتبر مسألة الخط الحجازي حدثا هاما بالنسبة للعرب والمسلمين والدولة دل على مقدرة السلطان عبد الحميد في تنفيذ هذه الفكرة ، إذ رحبت الصحف العربية بالسلطان ، وكتبت المقالات الطوال في الإشادة بنفع الخط وبيان أهميته ، وبذل السلطان عبد الحميد الثاني كل ما في وسعه لاختلاق وسائل تأمينه وتمويله ، لأن هذا المشروع قام على أكتاف الأموال العثمانية عن طريق تبرعات وحسم نسب

(١) جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ص ١٤٣ - ١٤٤ . سيد رجب حراز ،

الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .

معينة من رواتب الموظفين واحداث طوابع جديدة باسم الخط كما أشرنا فى أول هذا الفصل كما زحّب العرب والمسلمون بفكرة الخط وتبرعوا له (١) ، بذلك يكون السلطان عبد الحميد قد أثار حماس المسلمين فى كل مكان ، ولا سيما فى الهند ، فكثيرا ما قال الحاج الهنود أو غيرهم " خمسة أيام فى القطار المريح بدلا من ستة أسابيع فى قوافل الجمال " (٢) فقد كان الحاج يلاقون صعوبات فى زهابهم وإياهم الى الديار المقدسة ومع أن دمشق لا تبعد عن مكة المكرمة فان الحاج الشامي كان يستغرق أربعين يوما من دمشق الى المدينة المنورة ، وعشرة أيام الى مكة المكرمة ، أى خمسين يوما يقضيها فى الطريق ثم عشرين يوما يقضيها فى قضاء المناسك والزيارة ، ثم تبدأ رحلة العودة فيقضى خمسين يوما فى عودته ، أى أنه يقضى أربعة أشهر كاملة تبدأ من أول شوال وتنتهى بنهاية محرم ، اضعف الى ذلك ما كان يضطر الى صرفه من النفقات الباهظة ، وأهم من ذلك كله ما كان يتعرض له الحاج من مخاطر الطريق كسطو القبائل والأمراض ، كل ذلك جعلت إقامة الخط الحديدى الحجازى ضرورة ماسة ، والبداء به من دمشق حيث كان الحاج المسلمون يتوافدون اليها ، ويجتمعون فيها انتظارا لسفر مكب الحاج منها ، تحت إمارة حاكم عثمانى يعترف بأمر الحج ، وكان هذا مسوؤلا عن تنظيم انتقال هذا المكب الذى يتألف من نحو عشرة آلاف نسمة بين

(١) توفيق على بوزو ، العرب والترك ، ص ٤٤ - ٤٥ .

(٢) جيمس موريس ، الملوك الهاشميون ، ص ٢٩ .

مشاة وفرسان وهجانة ، وكانت طاعة أمير الحج واجبة على الجميع ، ليسهل عليهم قطع المسافة والتي تقدر بأكثر من ١٥٠٠ كم ، والمطوعة بالأخطار والمصاعب الطبيعية والبشرية ، من جفاف ورمال وشمس محرقة وتعديات من البدو الذين يعيشون على طول الطريق ، (١) لذلك اهتمت الدولة العثمانية باقامة ذلك الخط لازالة الصعوبات السابقة ، وعندما انتهت العمل من الخط تيسر سبل السفر أيام الحج ، وأزيلت المشقات التي يعانيها الحاج ، فتحقق للدولة الفرض الذي كانت تهدف اليه والذي كانت تعلنه للمسلمين صراحة والذي من أجله تبرع المسلمون في أنحاء المعمورة ، وكانت الدولة لا تعتبر الحج فريضة دينية فحسب ، بل هو كذلك بمثابة مؤتمر اسلامي سنوي كبير يلتقى فيه المسلمون من كافة أنحاء المعمورة حيث يتعارفون ويتباحثون في الشؤون الاسلامية (٢) في عصر السلطان الذي احتضنت فكرة الجامعة الاسلامية تلك الفكرة التي كان رائدها السيد جمال الدين الافغانى ١٨٣٩ - ١٨٩٧ م ، والذي كان يؤمن بقوة الوحدة الاسلامية ، ويسعى الى اقامة حكومة اسلامية قوية تنضوى تحت رايتها جميع الشعوب الاسلامية بهدف مقاومة الأطماع الاوربية في العالم الاسلامي ، والتخلص منها (٣) وانبثاقا من ثقة السلطان في تلك السياسة والذي عبر عنها بقوله " . . . يجب تقوية روابطنا ببقية المسلمين في كل مكان ، يجب

(١) محمد كبري عطى ، الخطط الشام ، ج ٥ ، ص ١٦٨ .

(٢) محمد وجيه الخيمى ، الخط الحديدي الحجازي ماضيه وحاضره ، مقالة في

مجلة الفيصل عدد ٣٢ ص ١٢٧ .

(٣) المصدر السابق .

أن تقترب من بعضنا البعض أكثر وأكثر ، فلا أمل في المستقبل الا بهذه الوحدة ومع أن وقتها لم يحن ، بعد ، لكن سيأتي اليوم الذي يتحد فيه كل المسلمين وينهضون فيه نهضة واحدة ، ويقومون قومة رجل واحد ، وفيه يحطمون رقاب الكفار ، واتخذ السلطان عبد الحميد من سكة حديد الحجاز وسيلة لتنفيذ فكرة الجامعة الاسلامية يتضح ذلك من قوله : " المهم هو اتمام خط السكة الحديد بين دمشق ومكة في أسرع وقت . . ففى هذا تقوية للرابطة بين المسلمين كفايه أيضا اتخاذ هذه الرابطة - بعد تقويتها - صخرة صلبة تتحطم عليها الخيانات والخدع الانجليزية ^(١) ولعله يشير فى كلماته هذه الى مؤامرات الانجليز حول قناة السويس وكانت فكرة الجامعة الاسلامية معناها كسب عواطف المسلمين فى العالم قاطبة ، وكان هذا يحتم ضمان استمرار السلطان حاميا وخادما للحرمين الشريفين (٢) ما يكون له أكبر الاثر فى تثبيت الخلافة وهذا يعنى زعزعة مركز الانجليز وتهديد هم فى مستعمراتهم فى الهند التى توجد فيها قوة كبيرة من المسلمين ، لذلك كان موقف السياسة الانجليزية أمام حركة الجامعة الاسلامية والخلافة ما قد عبرت عنه صحيفة ستاندرد الانجليزية ان قالت ما نصه " يجب أن تصبح الجزيرة الحربية تحت الحماية الانجليزية ، ويجب على انجلترا أن تسيطر على مدن المسلمين المقدسة " . . ورأى عبد الحميد

(١) محمد حرب عبد الحميد ، مذكرات السلطان عبد الحميد ، ص ٨ .

(٢) محمد جميل بيهم ، فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٨٠ .

فى ذلك أن انجلترا تعمل لمهدين : اضعاف تأثير الاسلام ، وتقوية نفوذها
بالتالى " (١) . وما لا شك فيه أن بريطانيا كانت تقف موقفا عدائيا تجاه
الخلافة ، والجامعة الاسلامية لأنها مهددة من قبل المسلمين الموجودين
فى مستعمراتها والذين يكونون أعدادا كبيرة ، لذلك رأى المفكرون ورجال
السياسة البريطانية أن حطة البلاد المقدسة من الهاشميين قد يصبحون
حلفاء نافعين ضد السيادة العثمانية المتزعزعة للاسلام (٢) ، وبذلك يكون خط
سكة حديد الحجاز قد لفت أنظار الدول الأوروبية والتي لها مصالح فى منطقة
البحر الأحمر وطى الاخص انجلترا ، والتي تدرك أن قناة السويس نظرا لقربها
من حدود الدولة العثمانية ، لم تكن منيعة ، فترقبوا بحذر وقلق مد سكة حديد
برلين - بغداد ، واعتبروه مشروعا معاديا لهم ، ومنعوا وصوله الى الكويت ورأوا
كذلك سكة حديد الحجاز وسيلة لتحصين جناح من أجنحة الدولة العثمانية .

أما من الناحية العسكرية فقد هيات سكة حديد الحجاز للسلطان عبد الحميد
وسيلة سهلة لنقل الجنود الى الجزيرة العربية فى سهولة ويسر (٣) ، وذلك
بنفقات بسيطة تتحطمها الخزنة ، وكانت وسيلة النقل البرى هذه يحتاج اليها
السلطان لوصول جنود جيشه الى شبه الجزيرة العربية وعودتهم منها ، وكان

(١) محمد حرب عبد الحميد ، مذكرات السلطان عبد الحميد ، ص ٨ .

(٢) جيمس موريس ، الطوك الهاشميون ، ص ٢٩ .

(٣) محمد بديع شريف وآخرون ، النهضة العربية الحديثة ، ص ٣٧ .

قبل ذلك يضطر الى نقلهم بالبحر عبر قناة السويس ، فيحتاج الى وقت أطول ونفقات أكثر ، بالإضافة الى وصول الجند منهوكين نتيجة لتوقفهم في القناة بحجة الحجر الصحي ، كما أن تواجد انجلترا في مصر وفي عدن هو بمثابة تهديد مستمر للقناة كوسيلة لاتصال الدولة العثمانية بالحجاز عن طريق البحر ، وكان السلطان يتطلع الى اليوم الذي تمت فيه هذه السكة جنوبا الى مكة ، بل ربطا الى ما بعدها فيستطيع بذلك أن يحكم قبضته على بلاد اليمن (١) ، والجدير بالذكر أن سكة حديد الحجاز قد فاق الطريق البحري عبر قناة السويس وذلك من ناحية السرعة والسهولة ، فقد كان الطريق البحري يستغرق حوالى اثنى عشر يوما من ساحل الشام الى الحجاز في حين كان الطريق البرى عن طريق سكة حديد الحجاز لا يستغرق سوى أربعة أو خمسة أيام على الأكثر ، علاوة على ذلك فان الدولة العثمانية لم تكن تلك وقتئذ الكثیر من السفن الصالحة التى يمكن الاعتماد عليها لتنفيذ سياسة عبد الحميد العسكرية فى شبه جزيرة العرب (٢) ، فسكة حديد الحجاز أمنت نقل الجنود بسرعة لتساعد فى قمع الثورات ، وللدفاع عن أطراف الدولة الجنوبية (٣) ، والتى من شأنها توطيد دعائم سياسة عبد الحميد المركزية ، التى سار عليها فى حكم الولايات العربية وغيرها ، والتى كانت قد كلفت الكثير من المتاعب الداخلية والخارجية ، وأثارت عليه نقمة قسم كبير من

(١) جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، ص ١٤٢-١٤٣ .

(٢) سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية ، ص ١٢٣ .

(٣) توفيق على جرو ، العرب والترك ، ص ٣٦ .

العرب ، ونقمة الاتراك أنفسهم ، وتجلت هذه النقمة فى الثورات العديدة
والتي ظهرت بين القبائل العربية ، وهى وان كانت ذات طابع محلى محدود
الا أنها جاءت كرد فعل لتشديد قبضة السلطان على بلادهم ، مما أنبثق عنه
انفجار سخطهم على حكمه وعلى مظالم بعض الحكام والموظفين العثمانيين
فطارت حوران وجبل الدروز سنة ١٨٩٦ ، وشارت اليمن سنة ١٩٠٤ وشارت
عشائر الخوازم والميمون والفضل وبنى الحرب وهذيل فى الحجاز ، كما شار
فى سوريا عشائر البدو وبين غزة والحيرون ، (١) والبحر الميت ، واسمها
الطياحة والعزازمة والجسهاين وغيرهم ورفضوا دفع الضرائب (٢) صحيح أن
تلك الثورات ليست شيئاً جديداً على الدولة العثمانية لكنها قبل كل شئ كانت
دافعا لحمل الشبكة الحديدية لترتبط أجزاء الدولة ، ليسهل عليها قمع تلك
الثورات فى مكانها والدليل على ذلك الكلمة التى ألقاها أحد زعماء جمعية
الاتحاد والترقى ، الذى تولى منصب وزارة الداخلية عندما ألقاها فى المجلس
النيابى فقال " . . . أصبح فى مقدورنا أن نرسل الى اليمن القوة العسكرية
اللازمة لخماد الثورة ، واستعادة مهابة الدولة ، ونحن عازمون على ذلك بكل
ثقة واطمئنان . . . " (٣) فكان انشاء الخط كان بمثابة تأكيد لعزم الدولة على

(١) الحبيرون : هى مدينة الخليل .

(٢) توفيق على برو ، العرب والترك ، ص ٤٥ .

(٣) ساطع الحصرى ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٣٠ .

اعادة توليد نفوذها كما نشرت صحيفة وستمنستر احدى الصحف الانجليزية
ضمن حديث لعزت باشا - صاحب فكرة سكة حديد الحجاز - مع المستر لوسيان
دولف من كبار كتاب الانجليز نشر في ١٥ يونيو سنة
١٩٠٩ م " . . . اننى مقتنع تمام الاقتناع بأن انفصال العرب عن السلطنة
على أى شكل كان ليس فى مصلحتنا ، لأنهم لو تركوا وشأنهم فسوف تعم الفوضى
ويقوم اثنا عشر خليفة صغير بدلا من خليفة واحد " (١) . غير أن خط الحجاز
كانت له نتيجة ربالم تخطر ببال عبد الحميد ، إذ أنه جعل التنقل فى الولايات
العربية الواقعة فى غرب الجزيرة أسرع مما كانت ، مما نتج عنه نقل الافكار وتبادلها
وقد قدر لا اختصار الزمن أن يكون ذا أثر واضح فى مصير حركة الشريف حسين
وخروجه على الدولة العثمانية (٢) ومجمل القول أن خط سكة الحجاز قد جعل
الحجاز مركزا تنطلق منه الوسائل التنفيذية لا خضاع المتمردين فى جهات
الجزيرة المخططة (٣) ومن ذلك أنه فى أوائل سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) زحف
الشريف حسين بعد وصول نجدات سريعة من الدولة عن طريق خط سكة حديد
الحجاز الى عسير لمساعدة الدولة العثمانية ، ومحاربة الادريسى وذلك بعد
أن استنفر قبائل العرب فى الحجاز ، وسار الشريف حسين مع جنود الدولة
العثمانية فدخل مدينة أبها ، ومعه نشأت باشا قائد الجنود العثمانية فى عسير ،

(١) على يوسف ، بيان فى خطة المؤيد تجاه الدولة العثمانية ، ص ١٤ .

(٢) جورج انطونيوس ، يقطعة الحرب ، ص ١٤٣ .

(٣) مصطفى سالم ، تكوين اليمن الحديث ، ص ٥٤ .

وأقام بها ورثب أمور الدولة وأكد نظامها (١) وهكذا ساعد الخط على توطيد سلطة الخليفة على معظم الولايات العربية ، وعلى التصدي لد سائس الانجليز ومواءماتهم في البحر الاحمر وغربي الجزيرة العربية (٢) ، كما ظهرت الدولة العثمانية دولة عصرية متطورة تمد الخطوط الحديدية في قلب الصحارى ، لانشاء المواصلات السريعة بعد أن كان خصومها الاستعماريون والصهيونيون يتهمونها بالجمود والتخلف أمام المسلمين ليقبلوا من شأن الدولة والخلافة ، وأنها فرضت على الولايات العربية ستارا من العزلة عن العالم وأنها أوقعتهم في الفقر ، (٣) وبافتتاح سكة حديد الحجاز أضيف طريق رابع من الطرق المؤدية الى المدينة المنورة ، وذلك بعد أن كانت ثلاثة ، وهى الطريق السلطاني ، والطريق الفرعي المسمى بطريق الغاير ، والطريق الشرقى ، فانه اذا ما حدث أن تعرضت تلك الطرق المؤدية الى المدينة لهجوم القبائل ، فالوسيلة للوصول الى المدينة تكون عن طريق الوجه بالخط الحديدى مثل ما حدث سنة ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩ م) ان رجع المحمل المصرى الى الوجه من جدة لتأدية واجب الزيارة بالطريق الحديدى من محطة العلا ، وسبب ذلك تعرض عربان الطريق الطويل وطريق ينبع لاعتداءات بغير حق (٤) ، كما أن المحمل الشامي تحول عن طريق

-
- (١) محمد لبيب البتونى ، الرحلة الحجازية ، ص ٤٢ .
 - (٢) توفيق على برو ، العرب والترك ، ص ٣٦ .
 - (٣) فائق بكر صواف ، العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، ص ١٣٣ .
 - (٤) محمد لبيب البتونى ، الرحلة الحجازية ، ص ٢٢٣ ، ٣٠٣ .

القوافل ، وأخذ يستعمل الخط الحديدي ، وذلك لمسهولته وقصر المسافة الزمنية هذا اذا أضفنا عامل الامن ، والذي كان يهم أمراء المحامل ، ففى سنة ١٣٢٨ هـ الموافق (١٩١٠ م) استقل المحمل الشامى الخط الحديدي الذى كان أميره ناصر بن على (١) وكذلك المحمل المصرى بدل طريق وصوله الى الاراضى المقدسة ، ففى ١٠ نوفمبر سنة ١٩١٠ م سافر المحمل الى الاسكندرية ، وأقيم له احتفال عظيم حضره الخديوى ومن الاسكندرية أبحر المحمل الى يافا ومنها ركب القطار الى المدينة المنورة ، على أنه لما كانت الوجهة محطاً لرحال الحجاج المصريين ، فان ادارتها ومإيلها شتالاً من المويلح وضبا والحقبة كانت تابعة للخديوية المصرية ، ويعين عليها محافظ بواسطة حكومة مصر ، بالاضافة لقاض ينظر فى الاحكام الشرعية ، وكان لها جنود يحرصون الطرق ، كان ذلك فى فترة الحج ، واذا انتهى موسم الحج عادت ادارة البلاد مرة أخرى للدولة العثمانية (٢) ، وكانت المدينة المنورة بعد خلع السلطان عبد الحميد قد فصلت عن الادارة الحجازية وارتبطت بمركز السلطنة بخطوط طغرافية ، تضمن سرعة المخابرات ، واعتبرت المدينة المنورة محافظة مستقلة مرتبطة بوزارة الداخلية رأساً وليس بالولاية ، وظلت تبعات الامارة الحجازية وحقوقها كما كانت عليه ممتدة من مكة المكرمة الى مدائن صالح (٣) ،

(١) عبد الله بن الحسين ، مذكراتى ، ص ٤٠ - ٤٣ .

(٢) محمد لبیب البتونی ، الرحلة الحجازية ، ص ١٤١ ، ٢٢٣ .

(٣) عبد الله بن الحسين ، مذكراتى ، ص ٤٨ .

ويعتبر ذلك أثر من آثار السكة الحديدية على الحجاز ، ان لولا الخط لما فكر السلطان وحكومة الاتحاد والترقي تنفيذ ذلك ، والفرض من هذه الحركة يبدو واضحا وهو الزيادة فى التحكم والسيطرة على اقليم الحجاز ان أصبحت الدولة تعلم بما يجرى فى هذه المنطقة ، وأخذت تقف على مجسريات الاحداث ومن آثار الخط الحجازى تيسير تنظيم البلاد وتعمير الجهات ، واقامة أسواق التجارة وتعميم وسائل الحضارة ونقل الحاصلات والخيرات المعدنية والزراعية والحيوانية الى حيث يمكن الانتفاع بها مما أدى الى تحسن الاحوال (١) .

اضافة الى ذلك فان كثيرا من البدو سكوا بالقرب من مخافر الجنود العثمانية التى أقيمت لحماية الخط . كما امتلك عدد كبير من مهاجرى الشركس الذين كانوا تائهين فى شمال الشام بعض الاراضى هناك ، وأقاموا القرى والمزارع فيها (٢) ، ومن آثار الخط على اقليم الحجاز عامة والمدينة المنورة خاصة أن ازدهرت بالسكان وراجعت الاسواق لاتصال الحجاز ببلاد الشام والاسنانة وانفتح الحجاز كله عن طريق هذا الخط على بلاد الشام ، والتى كانت تعتبر من أغنى بلاد الدولة العثمانية فى الشرق العربى فى ذلك الوقت ، وأصبحت المدينة المنورة زهرة بلاد الحجاز ، ان اقيمت المباني الضخمة والتى تطل على ميدان المحطة (٣) ، كذلك وردت فواكه الشام وبقية المنتجات التى أخذت

(١) حسين لبیب ، تاريخ الاتراك العثمانيين ، ص ٦٤ .

(٢) محمد كرد على ، خطط الشام مج ٥ ، ص ١٧٤ .

(٣) فائق بكر صواف ، العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، ص ١٣٢ .

طريقها بواسطة السكة الحديدية (١) حيث نقل في سنة ١٩٠٩م من الشام الى المدينة المنورة ٩١٦٢٦٣١٦ طنا من المواد الغذائية والصناعية ، كذلك نقل في سنة ١٩١٠م وعلى نفس الاتجاه الشام - المدينة ١١٢٠٠٧٢٠٠ طنا من المواد الغذائية والصناعية أى بزيادة ٢٠٣٨١ طنا عن السنة الماضية كما بلغت موارد الخط قبل الحرب العالمية الاولى بعد تصفية كافة النفقات مبلغ ٣٢٧٦٨ ليرة عثمانية ذهبية (٢) من خلال تلك الارقام ندر ك الاهمية لهذا الخط بالنسبة للدولة وبالنسبة لبلاد الحجاز ، وما لا شك فيها عادت بالخير لسكان المنطقة ، وكسبت الدولة العثمانية موردا يعود لخزانة الدولة بالخير ، اضافة الى توطين البدو الذين يشكلون مصد ر قلق للدولة ، وعند ما رأت الدولة ذلك الاستقرار افتتحت مكاتب البريد في المدن التي على طريق السكة الحديدية الحجازية بعد أن كان مكتب البريد الوحيد في مدينة جدة ، وأقفل سنة ١٨٨١م وكانت مدينة جدة المركز الرئيسى وذا أهمية لتجارة الحجاز وكان الحجاج يرسلون رسائلهم من جدة ، ان يحطون رسائلهم عادة لحيين عودتهم الى ميناء جدة ، أو يكفون بها المسافرين في القوافل التجارية الذاهبة الى تلك الجهة ، (٣) ولكن عندما انتظمت المواصلات ، وكبرت الحركة التجارية بين مدن الحجاز وبلاد الشام ، وغيرها من أقاليم الدولة ، رأت الدولة أنه من

(١) شرف البركاتى ، الرحلة اليمانية ، ص ١٤٦ .

(٢) وجيه الخيى ، الخط الحديدى الحجازى ، ماضيه وحاضره ، مقالة فى مجلة

الفيصل عدد ٣٢ ، ص ١٣٣ .

(٣) ميشال اسطفان ، تاريخ الطوابع فى المملكة العربية السعودية ، مقالة فى مجلة

" تاريخ العرب " عدد ٧٠ ص ٩٠

الأهمية بمكان افتتاح تلك المراكز البريدية لتسهيل المعاملات التجارية ،
وليتمكن الجنود العثمانيين من ارسال رسائلهم بسهولة لأهاليهم ليطمئنوا
عليهم .

وبعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني في ٢٧ أبريل ١٩٠٩ م ، رأت
حكومة الاتحاد والترقي الفوائد العظيمة التي عادت على الدولة من سكة حديد
الحجاز فقررت مده الى مكة المكرمة ، وكذلك عمل شبكة أخرى تربط مدينة مكة
المكرمة بجدة ، والمدينة المنورة بينبع ، وأخذت الدولة تفري الشريف حسين
لمد الخط الى مكة المكرمة وعرضت عليه أن يأخذ ثلث دخل الخط يتصرف به
كيف ما شاء وتصبح إمارة الحجاز تابعة له مدى الحياة ، ومن بعده لأولاده ،
كما توضع تحت تصرفه قوة كافية لتأمين ذلك ، على أن تضع الدولة العثمانية
تحت تصرفه ربع مليون جنيه لينفقها على الصربان (١) ورغم كل المغريات
السابقة والضغوط الشديدة التي مارسها الاتحاديون لم يفلحوا ، ذلك أن
الثقة بين العثمانيين وعرب غرب الجزيرة كانت مفقودة بسبب سياسة التتريك
التي بدأها الاتحاديون (٢) بالإضافة الى احداث الدولة الداخلية ، وعدم
استقرار الامور ، علاوة على الاحداث الخارجية ، التي كانت عائقا في وجهه

(١) عبد الله بن الحسين ، مذكراتي ، ص ٨٩ .

(٢) وجيه الخيمي ، الخط الحديدي الحجازي ماضيه وحاضره ، مقالة في مجلة

الفيصل عدد ٣٢ ، ص ١٢٩ .

الدولة ، وأهم من ذلك كله اتصال الشريف حسين بالانجليز ووعودهم له مقابل خروجه على الدولة العثمانية مما أدى الى نسيان عمل ذلك المشروع العظيم (١) .

لكن كيف نفسر افتتاح خط سكة حديد الحجاز عام ١٩٠٨ ؟
هل يمكن أن نقول انه كان وسيلة اضافية لتثبيت سياسة الدولة العثمانية فى غرب الجزيرة العربية ضامنا لنفوذها الروحى فى شبه الجزيرة كلها والعالم العربى والاسلامى ، ونحن نحنى بقولنا وسيلة اضافية ، أى مضافة لقناة السويس كطريق بحرى .

أم أن التفسير الصحيح هو أن الخط كان بمثابة تعويض عن فقدان الدولة سيطرتها على قناة السويس بسبب التواجد البريطانى فى مصر وبالتالى سيطرة انجلترا على ذلك الممر المائى الهام .

والرأى أن التفسير الثانى هو الأصح ويمكننا أن نتصور أهمية الخط بوضوح أكثر لو افترضنا أن الدولة العثمانية لم تتجز ذلك المشروع الهام الذى هو مد سكة حديد الحجاز فى وقت كانت انجلترا فيه قد سيطرت سيطرة كاملة على مدخل البحر الاحمر الشمالى والجنوبى معا .

(١) عبد الله بن الحسين ، مذكراتى ، ص ٨٩ .

خاتمة التحليل والنتائج

قد منا لهذه الرسالة بالحديث عن أهمية الجزيرة العربية وعلى الأخص
غربها أى إقليم الحجاز للدولة العثمانية ، وأشرنا الى أن الدولة العثمانية
كدولة اسلامية كبرى فى الحصور الحديثة قد قامت وتوسعت تحت شعار
الاسلام ، فلم يكن هناك بد من استمرار الحجاز جزءا من الدولة لاحتوائه
على الأماكن المقدسة الاسلامية ، وارتبط بهذا تطبيق السلطان العثمانى
بخليفة المسلمين ، وأنه خادم الحرمين الشريفين . وكانت الدولة العثمانية
تحاول دائما أن تحيط الحجاز بسياسى واقى ودع قوى .

وفى النصف الاول من القرن التاسع عشر تعرضت الدولة العثمانية
بالنسبة لهذا المجال الى الاهتزاز بسبب التطورات التاريخية التى أوضحتها
فى الفصل الاول .

وحين تم فتح قناة السويس ، رأت الدولة فى ذلك فرصة للتغلب على
نتائج تلك التطورات ، وانتعش الامل لديها بأن تتخذ من القناة وسيلة لتثبيت
وجودها فى غرب الجزيرة وتعزيز أهدافها ، ومن ثم كان للدولة جهود بعد
فتح قناة السويس وكان أهمها فى غدير واليمن وحول عدن .

لكن جهود الدولة العثمانية فى سبيل ذلك لم تفلح فى تحقيق أهداف
الدولة بسبب الحوائق التى قامت فى سبيل استكمال نفوذ الدولة فى غرب
الجزيرة العربية ، تلك الحوائق التى تمطت فى احتلال إنجلترا لمصر ، وبالتالى
سيطرتها على قناة السويس ، ووجود إنجلترا فى عدن وازدياد ثورة اليمن .

لكن الدولة العثمانية لم تستسلم لهذه المعوقات ، بل نجحت كما رأينا في ايجاد البديل لقناة السويس ، وهو سكة حديد الحجاز . ويمكن القول أن هذا الخط كان عاملا مهما في استمرار نفوذ الدولة في الحجاز منذ افتتاحه حتى نشوب الحرب العالمية الاولى .

شجعت قناة السويس الدولة العثمانية على تطوير بحريتها ، فكانت تعليمات السلطان عبد العزيز لناظر البحرية بأن يهتم بشؤونها ويطلع على أحوالها ، فما كان من ناظر البحرية الا أن وسع نطاق مدرستها ، وأقام دورا لصناعة السفن ، كما ابتعث كثيرا من الضباط الذين أنهبوا دراستهم بالمدرسة الحربية من بريطانيا وتزودوا بالعلوم والتمرينات الحديثة ، كما شيد عددا من السفن الحربية وذلك في دور الصناعة التابعة للدولة ، وأضاف للمدرسة الحربية عددا من التخصصات منها تعليم فن الميكانيكا وعميل المدرعات ، وشيد عدة معامل لصناعة المدرعات ، كما شكل ادارة تكون مسئولة عن جميع الآلات والمعدات البحرية وعرفت هذه الادارة فيما بعد بمستشارية البحرية (١) ، واستقدمت الدولة العثمانية من بريطانيا عددا من المعلمين والمهندسين والرسامين ، وعطوا في دار الصناعة ان أولكت اليهم تدريب كثير من شباب الدولة ، وكان اذا برع أحد استغنت به الدولة عن أحد الخبراء

(١) اسماعيل سرهينك ، حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٢٠٢

البحريين الا جانب (١) ، ولم يكن الاهتمام بتطوير البحرية مقتصرًا على عاصمة الدولة الأستانة فقط بل شمل أيضا ولاياتها ، ففي بغداد أكثر مدحت باشا من شراء السفن من مصانع بومباي البحرية ، لذلك حرص على أن تكون علاقاته مع حاكم عام الهند البريطاني حسنة ، ليضمن تزويده بطلب السفن (٢) وكان لتطوير البحرية العثمانية وافتتاح قناة السويس أثر كبير في تدعيم سياسة الدولة العثمانية في الجزيرة العربية خاصة القسم الغربي منها ، إذ سهلت القناة للدولة العثمانية مرور السفن ، وارسال الحملات والامدادات من العاصمة رأسا الى غربي الجزيرة ، مرورًا بمصر احدى ولايات الدولة العثمانية كما أوضحنا ذلك من قبل ، هذا بالإضافة الى سرعة وصول الأنباء والتقارير من غربي الجزيرة الى العاصمة مما ساعد الدولة على الوقوف عن كثب على مجريات الأحداث في ذلك الجزء من الجزيرة العربية ، فاستطاعت الدولة أن تقيم حكمًا فعالا ، وقد ارتبط غربي الجزيرة بالعاصمة الأستانة ارتباطا مباشرا مما شجع الدولة على محاولة تطبيق نظمها في الولايات وعلى الاخص في غربي الجزيرة بما يتناسب مع هذا الجزء من الجزيرة .

ولم يبعث افتتاح القناة اهتمام الدولة على غربي الجزيرة فقط ، بل شمل

(١) اسماعيل سرهينك ، حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٧٠٨ .

(٢) محمد عبد الرحمن برج ، دراسة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر ، ص ٣٥٤ .

الجزيرة العربية كلها ، ففي الوقت الذي افتتحت فيه قناة السويس عينت
الحكومة في نفس الوقت مدحت باشا واليا على العراق (١٨٦٩ - ١٨٧٢م)
وكان مدحت باشا يرى ضرورة تثبيت السلطة الفعلية على جميع المناطق التي
تخضع للدولة اسما (١) ومنها العراق ان كانت القبائل تأبى الخضوع
للتجنيد وودفع الضرائب ، فعمل مدحت على أن يجعل السلطة المدنية
والعسكرية بيده ، فاستطاع أن يجبر الضرائب ، وينشر الامن ، وطمح على
توزيع الاراضى على القبائل ، وأنشأ مدينتى الناصرية والرمادى ، واهتم
بالتعليم فأسس المدارس فى كل قضاء ، وأنشأ مطبعة لاصدار صحيفة " الزوراء " .
وهى الصحيفة الرسمية ، وأسس المدارس البلدية فى أهم المدن ، وأقام المصانع
العسكرية ، كما أنشأ مبان حكومية ومستشفيات ، كما أنشأ دارا للمعزة وطبعا
للإيتام ، كما أسس مزرعة نموذجية وأرسل المهندسين للأراضى الزراعية لتنظيم
الرى وتحسين الزراعة ، وأخذ فى ردم البرك والمستنقعات لتوسيع واصلاح
الاراضى الزراعية ، (٢) وكانت أعطال مدحت باشا السابقة منبثقة من تطبيق
السياسة المركزية التى سعت الدولة فى تطبيقها على جميع الولايات ، ولعل
الدولة ممثلة فى مدحت باشا قد فعلت ذلك لتتخذ من العراق قاعدة لتثبيت
نفوذها فى شرق الجزيرة العربية بعد أن مكنتها قناة السويس من تثبيت

(١) صلاح الحفظ ، التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ص ١٨٣ .

(٢) محمد بديع شريف ، النهضة العربية الحديثة ، ص ٤٠ .

نفوذها نسبيا في غرب الجزيرة العربية . وبعد ذلك اتجهت أنظار الدولة
العثمانية المقتطة في واليها مدحت باشا الى الخليج العربي ورأت أن تعيد
سيادتها الفعلية عليه ، فبعد معركة " جوده " التي انتصر فيها سعود على
أخيه محمد ، اتجه الامام عبدالله الى الشمال ناحية حائل ، ومن هناك أوفد
رسولا الى العراق مزودا بثلاث رسائل بكل من مدحت باشا والي بغداد ،
وخليل بك والي البصرة ، والسيد محمد الرفاعي نقيب اشراف البصرة ، يشرح
فيها الوضع ويشتكى من أخيه ، ويطلب مساعدة الحكومة العثمانية في حربه معه ،
وانتهز مدحت باشا الفرصة ، وأعد حملة بعد اقرارها من الحكومة العثمانية
وأبحرت تلك الحملة من البصرة في مايو سنة ١٨٧١م قاصدة رأس تنورة ، واتجه
مدحت باشا الى الكويت على ظهر سفينة حربية عثمانية تدعى " زخاف " واستعان
بجميع سفن الفصوص الكويتية لمساعدة الحملة ، وكان عددها ٨٠ سفينة ، كما
ساعد الكويتيون الحملة فأرسلوا قوتين بحريتين احدهما بقيادة الشيخ عبدالله
ابن صباح الثاني أمير الكويت والاخرى بقيادة الشيخ مبارك واحتلت هذه
الحملة الكويتية القطيف دون مقاومة واستسلمت القلعة ، وأما الحملة العثمانية
فقد نزلت في الهفوف ، واستولت على المقاطعة وطردت سعودا ، وأنشأت حكما
عثمانيا لمصلحة العثمانيين وحدهم (١) ، واستكرت نجد وصول العثمانيين
الى مقاطعة الاحساء واستيلائهم عليها ، وهم الذين كانوا يعطون للخلاص من

(١) امين سعيد ، تاريخ الدولة السعودية ، ج ١ ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

العثمانيين ومن كل أجنبي ، لذلك بذل عبد الرحمن بن فيصل جهوداً عظيمة لاقتناع العثمانيين بالجللاء عن اقليم الاحساء وتركه لأهله الا أنه أخفق فى محاولاته ، وعندما يئس من التفاهم معهم ، ومن اقناعهم بالجللاء ، أعد جيشاً من عشائر آل مرة والمجطان وغيرهما من القبائل ، وهاجم فى أواخر سنة ١٢٩١ هـ / ١٨٧٤ م القوة العثمانية المرابطة على أبواب عاصمة الاحساء "الهفوف" فأبادها وحاصر الحامية الموجودة فى قصر خزام وقضى عليها واحتل القصر ، وعندما وصلت الأخبار الى بغداد والبصرة انتدب والى ناصر بن راشد ابن ناصر بن سعدون لقمع الحركة ، واشتبك الفريقان فى معركة شديدة انتهت بانتصار ناصر بن راشد ، ففاد ر عبد الرحمن بن فيصل المنطقة متجها الى الرياض (١) ، وبعد أن تمت السيطرة على اقليم الاحساء اتجهت الدولة فى توسيع نطاق نفوذها الى قطر ، وبعد أن بسطت الدولة العثمانية نفوذها على قطر أخذ مدحت باشا فى الاتصال بحاكم الكويت الشيخ عبد الله آل صباح بالانضمام الى العراق ، وعينه قائماً تابعاً للبصرة ، ورفع العلم العثمانى على هذه الإمارة الصغيرة ، ونتيجة للإصلاحات التى قام بها مدحت باشا ازدهرت النهضة الفكرية وأخذت السفن تنشط فى حركتها فى دجلة والفرات وكون مدحت باشا شركة عثمانية ، بعد أن كانت إدارة السفن بيد شركة انجليزية ، كما أصلحت السفن القديمة وقد استطاعت تلك السفن عبور قناة السويس لأول مرة ، (٢)

(١) محمد بدیع شریف وآخرون ، النهضة العربية الحديثة ، ص ٤٠ .

قادمة من الخليج الى بحر العرب ثم الى البحر الاحمر ولها كيد النفوذ
العثماني على الخليج قام مدحت باشا باعادة بناء ميناء الزبارة لمواجهة لجزر
البحرين ، وذلك لتتخذ منه مركزا لمسط سلطانها على البحرين (١) . فأثار
هذا العمل مخاوف بريطانيا من امتداد النفوذ العثماني الى مواقمها
الاستراتيجية ، ولكنها لم ترغب في باديء الأمر أن تواجه الدولة العثمانية
بشأن ميناء الزبارة ، فأوعزت للشيخ عيسى آل خليفة أن يحتج لدى الباب
العالي وأن يظهر له حقه على هذه المنطقة (٢) . وكتب مدحت باشا الى
الحاكم العام البريطاني لورد ميو في الهند يبرر موقفه باظهار
الادلة القانونية لتثبيت حق الدولة العثمانية في السيادة على جزر البحرين ،
لكن لم يكن الاعتراض من جانب حكومة الهند فقط ، بل شاركت فيه وزارة الخارجية
البريطانية فبعثت للحكومة العثمانية في ١٤ ابريل سنة ١٨٧٤م مذكرة تهدد
فيها الدولة العثمانية وتقول أن انجلترا لن تسمح بأي عمل يمس استقلال
البحرين ، وعند ها أوقفت حكومة الباب العالي البناء والاصلاح في ميناء
الزبارة ، (٣) .

-
- (١) محمد عبد الرحمن برج ، دراسة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر
ص ٣٥٤ . (٢) قدرى قلمجي ، الخليج العربي ، ص ٤٦٧ .
(٣) محمد عبد الرحمن برج ، دراسة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر ،
ص ٣٥٧ .

وهكذا لم يبعث افتتاح قناة السويس لدى الدولة العثمانية تثبيت نفوذها في غرب الجزيرة فحسب بل حمل الدولة على تقوية وجودها في الخليج العربي الجزيرة بالاضافة الى غربها أى تطويق شبه الجزيرة كلها بنفوذها . وكان لاهتمام الدولة العثمانية بالخليج العربي وشبه الجزيرة العربية أثر بالغ على تلك المنطقة لما لها من أهمية استراتيجية بالنسبة للعالم، لذلك حولت الدولة العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر الميلاد البصرة من مصرفية الى ولاية ، ويعتبر هذا في حد ذاته مظهرا من مظاهر اهتمام العثمانيين بالخليج وشبه جزيرة العرب . (١) ثم ان شق قناة السويس سنة ١٨٦٩م يعتبر في حد ذاته نقطة البدء لتطورات خطيرة في مجرى تاريخ التجارة الدولية ، بل انها كفناة ملاحية كانت كافية لانقلاب خطط السياسة والعلاقات الدولية والاستراتيجية ، وقناة السويس غيرت كل الطرق والمسالك الأساسية للتجارة الدولية بصفة عامة ، وبين أوروبا وآسيا بصفة خاصة وترتب على ذلك تحول اعداد كبيرة من السفن الى ذلك الطريق ، حتى أصبح البحر الاحمر أكثر الطرق ازدحاما بالحركة ، لذلك تغيرت الاوضاع بحمد أن زاد تسرب ونشاط التيارات السياسية الاوربية الى البحر الاحمر ، فتمسكت الدول الاوربية ببعض المراكز الاستراتيجية المهمة على مشارف البحر وداخله وثبتت

(١) صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، ص ١٩٢ .

أقدامها بها ، وكانت كلها تتصارع فيما بينها لتحتل مراكز ممتازة تتكافأ مع قيمة الطرق الصاعدة في خدمة التجارة العالمية ، (١) وأذكر في ذلك الصدور بريطانيا التي أخذت توئ من طريق الامبراطورية عن طريق تقوية نفوذها في جنوب غرب الجزيرة ابتداءً من عدن ، ففجرت سياستها مع القبائل اليمنية المحيطة بـ عدن ، بحيث تحولت من عقد معاهدات " صداقة وولاء " الى عقد " معاهدات الحماية " ، مستغلة فرصة تخوف سلاطين المنطقة من سيطرة العثمانيين كما أوضحنا من قبل ، وكانت السياسة البريطانية تهدف الى المحافظة على انفراد بريطانيا بالنفوذ المطلق في عدن ، وفي المنطقة المحيطة بها ، وابعاد أى نفوذ أجنبي آخر يهدد مصالحها هناك ، ولذلك يمكنها أن تستفيد من عدن كقاعدة لتنفيذ سياستها في منطقة البحر الاحمر (٢) ومن عدن - القاعدة الحربية والبحرية لبريطانيا - اتخذت خطوة ايجابية على الساحل الشرقى لافريقيا ، ففي سنة ١٨٨٤م أنهت بريطانيا الحكم المصرى وأخرجت المصريين من مراكزهم التي يحيطونها في بربرة وفي هرر وفي زيلاند وسيطرت على المينائين الهامين في بلاد الصومال مكونة بذلك الصومال البريطانى ، وقررت بريطانيا ضرورة اخلاء السودان وادى النيل وقررت ارسال بعض قطع الاسطول الحربى لحماية الموانئ المصرية في البحر الاحمر

(١) صلاح الدين الشامي ، الموانئ السودانية ، ص ١٣٦ .

(٢) فاروق عثمان أباطه ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر ، ص ٨ .

وخليج عدن ، وذلك بفرض السيطرة على جميع الموانئ المصرية (١) ، بعد ذلك بدأت إنجلترا في توسيع دائرة نفوذها في الصومال مما أدى الى التصادم مع فرنسا أكثر من مرة وهنا خشي الماجور هنتر مساعد المقيم السياسي في عدن من تدخل مندوب فرنسا في هرر ، الذي عين من قبل حكومته سنة ١٨٨٤ م ، وأوصى هنتر حكومته بضرورة الوصول الى اتفاق رسمي مع فرنسا من جهة ومع إيطاليا من جهة أخرى بخصوص شئون إقليم الصومال مع عمل اشرف دولي على دخول الاسلحة النارية والذخائر اليه ، وكان هنتر يسعى بموجب تلك التوصية الى تقليل خطر تزويد الفرنسيين لأهالي الصومال بالاسلحة والذي يهدد الوجود البريطاني في بربرة وزيلع وهرر ، (٢) ، وفي سنة ١٨٨٥ عقد اتفاق بين بريطانيا وفرنسا ، وجاء في هذا الاتفاق أن تمت المحمية البريطانية من خط الطول ٤٩ شرقا الى النقطة التي تقع عندها آبار لا هادوا والى نحو منتصف الطريق بين مصوع ورأس جيبوتي ، بينما تمت الخط الذي يفصل بين المحميتين الانجليزية والفرنسية الى أباصرين وبيوه وكابويو وجيلدسا وهرر ، أما جزر موسى وباب المندب فقد دخلت ضمن حدود المحمية الفرنسية بمقتضى الاتفاقية

(١) أجييه يونان جرجس ، البحر الاحمر ومضايقه ، ص ٤٠ .

(٢) فاروق عثمان اباطه ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر ، ص ٥٢ .

التي عقدت سنة ١٨٨٨م ونصت الاتفاقية على تعهد كل من الحكومتين بعدم التدخل عبر خط التقسيم الذى يصل بين المحميتين (١) .

وكانت فرنسا قد اشترت فى ١١ مارس سنة ١٨٦٢م منطقة صغيرة تسمى أوبوك على خليج تاجورة وهى فى منتصف المسافة لتاجورة ومواجهة لعدن ، وفى الفترة من ١٨٦١ - ١٨٨٠م لم تحتل فرنسا المنطقة ، ولكنها أدركت أهميتها الاستراتيجية لأنها قريبة من منفذ البحر الأحمر ، ولأهميتها من الناحية الاقتصادية ، وذلك فى استخدامها كمنفذ للتجارة الحبشية لذلك احتلت فرنسا أوبوك سنة ١٨٨١م ، وفى نفس السنة تنازل سلطان تاجورة لفرنسا عن بقية ممتلكاته (٢) ، ومن هنا جاءت المنافسة بين بريطانيا وفرنسا إلا أن بريطانيا تمكنت من بسط نفوذها على الساحل الصومالى المواجه لعدن ، وذلك حماية لوجودها فى عدن نفسها ، وضمانا لسلامة وأمن طريقها البحرى الى الهند عبر البحر الأحمر ، وقد قامت بريطانيا بذلك فى الوقت الذى كانت فرنسا تقوم فيه ببسط نفوذها على بعض أجزاء هذا الساحل انطلاقا من قاعدتها فى أوبوك ، وقد بدا التنافس واضحا بين البريطانيين والفرنسيين فى منطقة البحر الأحمر خاصة فى الوقت الذى احتلت فيه بريطانيا ميناءى بربرة وزيلج كما أجلت المصريين عن هرر ووضعت امكانات الساحل الصومالى فى خدمة

(١) أجيه يونان جرجس ، البحر الأحمر ومضايقه ، ص ٤٠ - ٤١ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٦ .

قاعدها في عدن ، وكانت فرنسا تحاول أن تقطع الطريق على بريطانيا لتحقيق أهدافها هناك ، على أن هذا الموقف أجبر بريطانيا فيما بعد على تسوية المشاكل مع فرنسا في بلاد الصومال المطلة على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر وخليج عدن ، وعلى إشراك الفرنسيين في تقسيم ممتلكات مصر هناك بعد أن أجبرتها بريطانيا على إخلائها حماية لمصالحها الاستعمارية في منطقة البحر الأحمر وفي ميناء عدن الهام ، وبعد أن نفذت بريطانيا دورها في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر كان لبريطانيا دور آخر في المدخل الشمالي للبحر الأحمر التي ازدادت أهميته حينما تقدمت الملاحة وبدأت المواصلات مع الهند والصين وبقية بلاد الشرق الأقصى ، فأصبح دور ذلك البحر لا يقتصر على نقل تجارة ومنتجات هذه المناطق بل أصبح الممر التجاري لتموين العالم الأوروبي ، وكان فتح قناة السويس سنة ١٨٦٩ للملاحة العالمية نقطة تحول هامة في تاريخ مصر بصفة خاصة وتاريخ البحر الأحمر بصفة عامة ، وكذلك كان افتتاح القناة حدثا هاما في تاريخ التجارة العالمية وتاريخ الاستعمار لذلك عطلت إنجلترا على زيادة نفوذها في القناة ، واتخذت عدة وسائل لتحقيق أهدافها الاستعمارية ، ان قامت أولا بشراء أسهم مصر في القناة ، ثم سعت الى السيطرة على شؤون مصر متذرة في ذلك بذرائع مختلفة حتى تسيطر على قناة السويس مفتاح البحر الأحمر الشمالي (١) ، وبعد أن احتلت بريطانيا مصر

(١) أجييه يونان جرجيس ، البحر الأحمر ومضائقه ، ص ٣٣ ، ٤٠

أصبحت صاحبة المركز الفعلى فى قناة السويس وضمنت بذلك مصالحها فى البحر الاحمر ان كانت التجارة البريطانية التى تعبر البحر الاحمر تشكل أربعة اخصاس التجارة العالمية ، كما كان جزء كبير من هذه التجارة يمر بميناء عدن مما زاد من أهميتها ، وأدى ذلك بالتالى الى تثبيت البريطانيين بالبقاء فيها ، وتدعيم نفوذهم فى المنطقة المحيطة بها ، ولا شك أن قناة السويس الى جانب كونها ممر عالميا للمواصلات بين الشرق والغرب ، فانها قد أصبحت أيضا ممر ضروريا للمواصلات بين الاجزاء المختلفة من الامبراطورية البريطانية بوجه خاص (١) ، ولذلك ظلت بريطانيا تحافظ على هذا المركز الممتاز مدة الاحتلال البريطانى على أساس حماية حرية المرور الذى كان يهمها أكثر من أية دولة أوروبية أخرى ، وهكذا تحكمت بريطانيا فى المدخل الشمالى للبحر الاحمر بسيطرتها على مصر وقناة السويس ، وعلى المدخل الجنوبى لهذا البحر بسيطرتها على عدن وبسط نفوذها فى المنطقة المحيطة بها فى جنوب اليمن ، وفى المنطقة المواجهة لها على الساحل الافريقى للبحر الاحمر والتى تشرف على خليج عدن من ناحيتى الغرب والجنوب ، ومعنى هذا كله أنه فى الوقت الذى سعت فيه الدولة العثمانية للاستفادة من افتتاح قناة السويس لتثبيت نفوذها ، وغرب الجزيرة والبحر الاحمر ضمانا لوجودها كحامية للاماكن المقدسة الاسلامية كان الاستعمار البريطانى قد ثبت قدمه فى جنوب غربى

(١) فاروق عثمان أباطه ، عدن والسياسة البريطانية فى البحر الاحمر ، ص ٣٧٧ .

الجزيرة وأخذ يستشرى فى المنطقة العربية ثم كان الصراع الاستعماري البريطاني
الفرنسي مما جعل محاولات الدولة العثمانية فى هذا الصدد على جانب كبير
من العقم .

وباحتلال بريطانيا لمصر وقناة السويس فقدت الدولة العثمانية مركزها
الممتاز فى ذلك الاقليم الحيوى الذى ربط غرب الجزيرة العربية بعاصمة الدولة
الاستانة ، فصعب ارسال الحملات التأديبية والتي كانت ترسلها لاقليمها
فى غربى الجزيرة ، كما فقدت مصر التي كانت تمتد خزانة الدولة بالأموال الوفيرة ،
اضافة الى ما كان يسند اليها فى مد القوات الحرسية بالمؤن والذخائر ،
وفى بعض الاحيان تتكفل مصر بارسال الحملات من جنودها ، على أن فقدان
مصر قد تسببت فيه الدولة العثمانية نفسها ، ان أخذت فى ارخاء قبضتها على
واليها سواء أكان قبل افتتاح القناة أو بعده ، فبعد زيارة السلطان عبد العزيز
لمصر فى ابريل سنة ١٨٦٣م أخذ اسماعيل باشا يسعى الى تعزيز ولايته فى
مصر فسمى لدى الباب العالي فى تغيير الفرمان الصادر سنة ١٨٤٠م بشأن
وراثة عرش مصر والذي يقضى بأن يوئل عرش الولاية لأكبر فرد فى أسرة محمد على
بشرط موافقة الباب العالي ، لذلك طلب اسماعيل من الباب العالي أن يجعل
الوراثة لأكبر أولاد الخديوى بدون قيد أو شرط ، ووافق السلطان على ذلك (١)

(١) عمر الاسكندري ، وسليم حسن ، تاريخ مصر من الفتح العثماني ، ص ٢١٩ .

وترتب على هذا أخطاء ورطت الدولة ومصر في مشاكل كبيرة مثل ما حدث في عهد الخديوى توفيق ، وهذا بطبيعة الحال خطر على الدولة العثمانية نفسها ان أصبحت الولاية مقتصرة على أسرة الخديوى حتى اذا رأت الدولة العثمانية رجلا أفضل منه فلا تستطيع تعيينه ، وهذا خطأ من الدولة كما سعى اسماعيل باشا لدى الباب العالي الى منحه لقباً أرقى من باشا ، والغرض من ذلك تثبيت امتياز مصر عن بقية ولايات الدولة ، فمنحه السلطان لقب خديوى ومعناه الامير العظيم في ربيع الاول سنة ١٢٨٤ هـ (يولية سنة ١٨٦٧ م) (١) وكانت تلك الامتيازات التى توصل اليها اسماعيل بعد ما أدركت الاهمية التى سوف تكون عليها مصر بعد افتتاح القناة فالسلطان لا يرغب فى اغضاب الخديوى حتى لا ينفصل عن جسم الدولة ، ولكن الذى حدث بعد ذلك هو أن السلطان العثمانى قد أحس بانفصال مصر عن جسم الدولة ، لذلك أصدر فرماناً فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ م أكد حقوق السيادة العثمانية على الخديوية المصرية وبالصورة التى رسمتها فرمانات ١٨٤٠ - ١٨٤١ م ، وأعاد السلطان فيه ذكر المسائل التى قبلها اسماعيل بشأن تقييد السفن الحربية والعلاقات الخارجية ، وأكد على ضرورة استخدام موارد البلاد لخدمة مصالحها الحقيقية ، ومعالجة الرعايا المصريين بالعدل والانصاف وألا تجبى ضرائب جديدة من غير حاجة شرعية

(١) عمر الاسكندري ، وسليم حسن ، تاريخ مصر من الفتح العثمانى ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

ماسة ، وألا يحقد قرض الا بعد موافقة السلطان (١) ، كان هذا الفرمان يعتبر في حد ذاته لصالح الدولة ان أكد سيادة الدولة العثمانية على مصر لابعاد التدخل الاجنبى ، الا أن الامور تطورت بعد ذلك ، ان قامت الدولة بمنح الخديوى اسماعيل عدة امتيازات وذلك في ربيع الثانى سنة ١٢٩٠ هـ الموافق سنة ١٨٧٣ م وأكدت كل الحقوق التى منحت للخديوى فى السابق اضافة الى اعتراف الباب العالى باستقلال الخديوى بشئون مصر الداخلية استقلالاً تاماً ، وصرح له بأن يحل بدون استشارة فى الحصول على قروض ، وعقد المعاهدات التجارية وغيرها مع الدول الاجنبية مادامت تلك المعاهدات لا تناقض مصلحة الدولة ولا مخالفتها السياسية مع الدول ، وأن يزيد جيشه حسبما يراه صالحاً ، على شرط ألا يكون فى أسطوله مدافع وفى مقابل ذلك زادت الضرائب التى تدفع للخزينة (٢) . وكانت تلك الامتيازات تعنى تفريط الدولة العثمانية فى مصر والقناة ، مما سمح للدول الاوربية التدخل فى شئون مصر وترتب على ذلك الاستعمار البريطانى لمصر والقناة والذي كان سنة ١٨٨٢ م ، الا أنه فى هذا الوقت كان مركز انجلترا فى مصر مزعزعا ، وذلك بسبب عدم اعتراف الدول بمركز بريطانيا الشرعى ، ففرنسا غير موافقة على مركز الانجليز المتفوق فى مصر وايطاليا غير راضية بحمل الانجليز المنفرد ان كانت ترغب فى اشراك كل الدول الكبرى

(١) سيد رجب حراز ، المدخل الى تاريخ مصر الحديث ، ص ٣٦٥ .

(٢) عمر الاسكندرى ، وسليم حسن ، تاريخ مصر من الفتح العثمانى ، ص ٢٢٠ .

فى مسألة تأمين القناة ، أما ألمانيا والنمسا والمجر وروسيا فلم يقرؤا مهمة
انجلترا لحماية القناة ، وكانت تلك الدول ترى ضرورة تدخل الباب العالي
بجانب انجلترا . فالباب العالي هو صاحب السيادة على مصر من الناحية
القانونية ، (١) وهى مسئولة عن تلك الحماية ، الا أنها لم تستغل مكانتها
القانونية فى مصر ، واكتفت بالاحتجاج اللفظى ، ان لم تكن فى موقف يسمح لها
بمواجهة بريطانيا ، ولكن مركز بريطانيا أيضا كان ضعيفا ، ان انقسمت الحكومة
البريطانية بين مؤيد لاحتلال مصر ، ومعارض للاحتلال ، ومع ذلك لم يستغل
الباب العالي هذا الموقف أيضا ، كل ذلك أدى الى تفريط الدولة العثمانية
فى ولاية مصر التى تمر فيها القناة اضافة الى توسيع النفوذ البريطانى فى جنوب
غرب الجزيرة والساحل الشرقى لافريقيا ، ومعنى ذلك أن البحر الاحمر لم يحد
بحيرة عثمانية كما كان ، وكان على الدولة أن تبحث عن طريق آخر يوءمن نفوذها
على غرب الجزيرة ، وكان ذلك هو مد خط سكة حديد الحجاز ، فى وقت كانت
فيه انجلترا قد سيطرت كما ذكرنا سيطرة كاملة على مدخل البحر الاحمر الشمالى
والجنوبى معا .

ونعود الآن للحديث عن الوضع فى قلب الجزيرة (نجد) فقد كان
العثمانيون قد حاولوا ارضاء آل الرشيد الذين اعترفوا بالخلافة العثمانية وأعطوا
ولاءهم للسلطان العثمانى ، وكان الامير من آل رشيد يرسل الرسل محطيين

(١) محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٩١ .

بالهدايا ، ونال النياشين الرفيعة ، وقبل المندوبين المعتمدين من الحكومة العثمانية وأخذت الدولة تعتمد عليه وتعهده من أكبر المخلصين لها ، واتخذ آل رشيد موقف المناوأة من الدعوة السلفية لذلك أغدقت الدولة العثمانية على ابن الرشيد العطايا ، وخصوه دون غيره بالمساعدات والتعزيد وكان ذلك حتى وفاة محمد العبد الله الرشيد في سنة ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م) ، واستمرت تلك المساعدات في عهد خلفائه (١) ، ولم تكن سيطرة الدولة العثمانية على نجد بالامر المهيمن لاسيما اذا عرفنا أن هناك عقبات تقوم في وجه الدولة للسيطرة على قلب الجزيرة والتي تتمثل في بعد المسافة وقلة وسائل النقل ، وضراوة العرب في الدفاع عن حريته (٢) ، وتطورت الأمور في الكويت ، فبعد أن منحت الدولة العثمانية شيخ الكويت عبد الله آل الصباح منصب قائم مقام سنة ١٨٧١ م خلفه أخوه محمد سنة ١٨٩٢ م الذي وكل الامارة لرجل عراقي يدعى يوسف بن عبد الله آل ابراهيم ، وكان مواليا للدولة العثمانية ، وكان يأمل أن تؤيده الدولة في عزل آل الصباح ، وتعيينه بدلا منهم ، لكن الشيخ مبارك آل الصباح أدرك نوايا يوسف بن عبد الله ، فقتل أخاه محمد سنة ١٨٩٦ م واستولى على السلطة وهرب يوسف الى البصرة (٣) ، حيث وجد ترحيبا

(١) خير الدين الزركلي ، شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز ، ج ١ ص ١١٨ .

(٢) جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ص ١٣٣ .

(٣) محمد عبد الرحمن بنج ، دراسة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر ص ٢٨١ .

من واليها حمدي باشا ، وأيدت الدولة * أول الامر حقوق أبناء الحاكم المقتول محمد آل الصباح في أن يرثوا السلطة ورأى السلطان عبد الحميد أن ينتهز هذه الفرصة لتقوية نفوذه في الكويت وطالب بالتحقيق في حادثة القتل (١) ، وبعد تردد من قبل الحكومة العثمانية ، أصدرت الدولة فرمانا سنة ١٨٩٣ م يقضى بتعيين الشيخ مبارك بمنصب قائم مقام على الكويت وفي فبراير سنة ١٨٩٧ م أرسلت الدولة موظفا عثمانيا للحجر الصحي الى الكويت ، وفي نفس الشهر طلب الشيخ مبارك مقابلة المقيم السياسي البريطاني أو مندوبا عنه ، فأرسلت بريطانيا المندوب المساعد فوق الحادة في شهر سبتمبر فأبلغه الشيخ أنه وشعبه يودون أن يكونوا في حماية بريطانيا ، لكن بريطانيا كانت ترى أن الظروف غير ملائمة لاجابة طلبه (٢) بعد ذلك تحسنت العلاقات بين الشيخ مبارك وبين العثمانيين ، الا أن الثقة بين الطرفين لم تتحقق ولم تساعد الظروف الخارجية على استمرار العلاقات ، ان أن والى البصرة ظل يظهر عداءه ، كما أن المناوشات بين آل الصباح وآل الرشيد قد تكررت حيث تطلع آل رشيد الى احتلال منفذ على البحر يساعد هم على استيراد حاجتهم من الخارج ، وعلى الأخص السلاح ، ولما كان العثمانيون يحتلون العقير ، فلم يبق أمامهم سوى الكويت ، وفي حالة وقوع نزاع على نطاق واسع بين آل الرشيد وبين الكويت فمن الأرجح أن يساند العثمانيون حلفاءهم

(١) صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج ، ص ١٩١ .

(٢) د . سيد نوفل ، الخليج العربي ، ص ١٦٥ .

من آل الرشيد (١) ، لذلك كرر الشيخ مبارك في أوائل سنة ١٨٩٨م فكرة طلب الحماية البريطانية ، إلا أن بريطانيا قابلت هذا الطلب بالرفض إذ أنها لا تريد الدخول مع الدولة العثمانية في منازعات إضافة إلى أن حكومة الهند كانت تسلم بأن القسم الشمالي من الخليج يدخل ضمن إطار السيادة العثمانية ، وتكتفى بالقسم الجنوبي من الخليج (٢) إلا أن المقيم العام البريطاني في الخليج الكولونيل ميد كان يوصي بفرض الحماية ، إذ ألهز أهمية الكويت . فالكويت تملك ميناءً ممتازاً ، وإذا أصبح تحت حماية بريطانيا فسوف يكون من أهم مراكزها في الخليج العربي ، إضافة إلى احتمال جعل الكويت في المستقبل نهاية الخط الحديدي من الإسكندرية أو بورسعيد ، وفي قبول بريطانيا الإشراف على هذا الميناء تضمن حماية تلك المشروعات ، وتعددت المذكرات في تلك الفترة ، وجميعها تشير إلى ضعف الروابط بين الكويت والدولة العثمانية (٣) ، بجانب ذلك تطورت العلاقات بين ألمانيا والدولة العثمانية ، فبعد مفاوضات قصيرة بين الطرفين قبلت الدولة فكرة ألمانيا في إنشاء خط حديدي يصل الشبكة الحديدية العثمانية ببلاد الرافدين عن طريق آسيا الصغرى حتى تبلغ الخليج ، واستخدام الكويت كمحطة أخيرة (٤) ، وصدر لذلك امتياز في سنة ١٨٩٨م لصالح شركة ألمانية (٥)

(١) صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، ص ١٩٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٩٣ .

(٣) المصدر السابق ص ١٩٣ .

(٤) قدرى قلجى ، الخليج العربي ، ص ٤٦٨ .

(٥) صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، ص ١٩٤ .

ومع نهاية سنة ١٨٩٨ عين اللورد كيرزون حاكما عاملا للهند ، الذى أيد سيطرة
العثمانيين للقسم الشمالى من الخليج مع مراعاة عدم وجود أية قوى أوربية
تقف وراء الدولة العثمانية ، وبإدراكه بالموافقة على وضع الكويت تحت الحماية
البريطانية (١) ، وبناء عليه تم الاتفاق بين بريطانيا ويمثلها الكولونيل ميد ،
والكويت ويمثلها الشيخ مبارك الصباح فى ١٠ رمضان سنة ١٣١٦ هـ الموافق
١٢ يناير سنة ١٨٩٩ م على ألا تتنازل الكويت عن أى جزء من أراضيها أو تقبل
تمثيلا دبلوماسيا أجنبيا الا بموافقة الحكومة البريطانية ، وفى المقابل تعهدت
انجلترا أن تضمن استقلال الكويت وتدعمه عسكريا الى جانب منحها مساعدة
مالية (٢) ، وبناء عليه رفض الشيخ مبارك استقبال قنصل ألمانيا فى استانبول
الذى حضر للكويت للتفاوض مع شيخها لتحديد موقع نهاية خط حديد برلين -
بغداد عند رأس كاظمه (٣) ، وتكررت بعد ذلك محاولات الدولة العثمانية
لفرض سيطرتها على الكويت ، حتى تتمكن الشركة الألمانية من تنفيذ مشروعها ،
فاضطرت بريطانيا عند ذلك بالتصريح عن وجود اتفاق مع شيخ الكويت ان كان
هذا الاتفاق سريا ، وأثار ذلك غضب الحكومة العثمانية وأعلن وزير خارجية
الدولة أن هذا الاتفاق مخالف لمعاهدة برلين سنة ١٨٧٨ م ، وأجاب وزير
خارجية بريطانيا سالزبرى عليه بأنطيس فى نية بريطانيا

(١) صلاح العقاد ، التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ص ١٩٤ .

(٢) قدرى قلمجى ، الخليج العربى ، ص ٤٦٨ .

(٣) سيد نوفل ، الخليج العربى ، ص ١٦٦ .

اعلان الكويت محمية بريطانية ولكن قد ترغبها حكومة الباب العالي على ذلك ،
وتوصل الطرفان بعد ذلك الى تسوية مؤقتة ، وذلك بعدم التدخل في شئون
الكويت الداخلية (١) ، الا أن الدولة العثمانية ساءها رضوخ الكويت
للبريطانيين وأخذت تستعين بعبد العزيز الرشيد عدو الشيخ مبارك وأخبرته
بأن الدولة العثمانية لا تمنعني استيلائه على الكويت وضمها الى أملاكه طالما
أن آل الرشيد من أتباع الدولة المخلصين ، فسر ابن الرشيد بذلك ، وكان
يطمح في الاستيلاء على الكويت ليكون له منفذ على الخليج العربي ، وأخذ
عبد العزيز الرشيد يعد العدة لحطية الهجوم ، كما قدمت الدولة العثمانية
المساعدات (٢) ، وكان شيخ الكويت قد استعد من جانبه للمعركة فأتى
بالمرتزقة من قبائل مطير والمنفق والعجمان ، وفي فبراير سنة ١٩٠١ م التحم
الجيشان في الصريف عند منتصف الطريق بين الكويت وحائل ، غير أن جيش
الشيخ مبارك لم يستطع الصمود أمام جيش الرشيد الذي دبره العثمانيون (٣)
وكانت الهزيمة من نصيب آل الصباح ، واضطر الى الانسحاب الى الكويت
وهنا حاولت الدولة العثمانية التدخل فأرسلت في ديسمبر سنة ١٩٠١ م
البارجة العثمانية " زحاف " وقد مت اندارا الى الشيخ مبارك بأن يستقبل
فصيلة عثمانية عسكرية في الكويت أو يفاد الكويت الى استانبول ، وأجاب الشيخ

-
- (١) صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، ص ١٩٧ - ١٩٨ .
 - (٢) صلاح الدين المختار ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، ج ٢ ، ص ٢٥ .
 - (٣) صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، ص ١٩٦ .

مبارك قائد البارجة اجابة سياسية ولكنها سلبية ، وانسحبت زحاف (١) ،
وعاد ابن الرشيد بعد ذلك الى مهاجمة الشيخ مبارك ، بعد أن اتفق مع الدولة
العثمانية على مده بمساعدات وأسلحة فسار على رأس قوة كبيرة الى منطقة
حفر الباطن وواصل سيره حتى وصل امام أسوار جهر ، وهي قرية في الطرف
الداخلي للكويت ، ولجأ الشيخ ا مبارك الى البريطانيين الذين اتخذوا
الترشيات العاجلة ، وشرعوا في قصف معسكر الرشيد ، فانسحب ابن الرشيد الى
قاعدته في حفر الباطن (٢) ، ولم تقف الدولة العثمانية عند ذلك الحد في
التدخل في شئون الكويت ، ولم تياس في اعادة سيطرتها عليها ففي خريف
سنة ١٩٠٢ أراد يوسف بن عبد الله الاستيلاء على الكويت بتأييد من العثمانيين
ونزلت مجموعة من عرب الاشراف من الجانب الفارسي في منطقة ديرة الواقعة
على شط العرب ، وذلك بقيادة ابن أخ الشيخ مبارك الذي استجوب
بالبريطانيين ، وطلق قائد البارجة البريطانية لا بونج خبر تلك
الحملة في ٣ سبتمبر في الفاو ، وأسرع الى الكويت لصد ها ، وبحث عن الحطة
واكتشف في اليوم الخامس من سبتمبر سفينتين وعلى ظهرهما ١٥٠ رجلا مسلحا
وطارت زوارق لا بونج السفينتين ، وبعد معركة عنيفة تم الاستيلاء على
السفينتين وأسر من فيهما (٣) ، وفي العام التالي سنة ١٩٠٣ م أقام العثمانيون

(١) سيد نوفل ، الخليج العربي ، ص ١٦٧ .

(٢) عبد الله فيليبي تاريخ نجد ، ص ٢٧٧ .

(٣) سيد نوفل ، الخليج العربي ، ص ١٦٧ .

حامية في أم القصر وصفوان ، وحاولوا الاستيلاء على جزيرة ببيان ، وأثار ذلك قضية جديدة تتعلق بحدود إمارة الكويت ، فادعى الشيخ مبارك بأن حدود إمارة تمتد الى الفاو شمالا ، ونتيجة لذلك صرح وزير الخارجية البريطاني بلفور في مجلس العموم بأن شيخ الكويت تحت الحماية البريطانية ورفض ادعاءاته بامتداد حدوده الى الفاو (١) ، وفي نفس السنة زار اللورد كيرزون حاكم الهند البريطاني الكويت في إطار زيارته لدول منطقة الخليج العربي وطمس اثر هذه الزيارة عينت الحكومة البريطانية في السنة التالية سنة ١٩٠٤ م وكيلا سياسيا للكويت فاحتج العثمانيون على هذا التعمين لأنه في الحقيقة يمس بسيادة الدولة على الكويت ولكن بريطانيا لم تعبأ بذلك الا احتجاج (٢) ، وأخذ النفوذ الانجليزي ينمو في الكويت ، وتوطدت العلاقات بين البلدين حتى انتهى الوجود العثماني ولم يبق له أثر ، وبذلك فقدت الدولة العثمانية ذلك الطريق الذي كانت تباشر منه توطيد نفوذها في شرقي الجزيرة العربية ، واحاطة شبه الجزيرة بدرع واق .

وننتقل بالحديث الى قلب الجزيرة العربية الى منطقة نجد ، ان تم عيسى يد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود فتح مدينة الرياض وذلك في الرابع من شوال سنة ١٣١٩ هـ الموافق للرابع عشر من يناير سنة ١٩٠٢ م ،

(١) صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، ص ١٩٨ .

(٢) حافظ وهبه ، جزيرة العرب ، ص ٨٢ .

وفتح مدينة الرياض استرد ابن سعود ملك أجداده المسلوب (١) ، ويعتبر فتح الرياض نقطة بداية لتكوين سلطة ومملكة متسعة الأطراف إذ أخذ الملك عبد العزيز يحل لاستعادة سلطة السعوديين في نجد ، وبذلك تبدأ الفترة الثالثة لحكمهم والتي توطدت فيه دعائم حكمهم منذ ذلك الحين ، وكان الطريق أمام عبد العزيز مليئا بالعقبات لأن الدولة العثمانية أخذت تقدم مساعداتها لآل الرشيد حينما لاحظت تصاعد قوة السعوديين المطرد (٢) وأخذ الملك عبد العزيز بعد فتح الرياض يؤمن لنفسه الحدود ، لذلك عمد إلى الاستيلاء على القسم الجنوبي من نجد ، فاستولى في أوائل سنة ١٣٢٠ هـ الموافق سنة ١٩٠٢ م على منطقة الخرج والأفلاج ، (٣) وكان قد بدأ بالقسم الجنوبي لأن غالبية القبائل الموجودة في الشمال مواليين لآل الرشيد ، لذلك رأى الملك عبد العزيز حماية ظهره فيما بين الرياض والربع الخالي جنوبا ، بعد ذلك اتجه ناحية الشمال ، ففزا قبائل قحطان والطابعة لابن الرشيد ، عندها أدرك ابن الرشيد استفحال أمر ابن سعود فأنصرف إلى عاصمته حائل ليجمع قواه ، ورجع ومعه جموع من قبائل شعر والقصيم وسدير والوشم وكانت وجهته الرياض ، وتقابل القائدان بقرب الدلم في منطقة السلمية ، ودارت بينهما معركة انهزم فيها

-
- (١) صلاح الدين المختار ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، ج ٢ ، ص ٤٦٠ .
 - (٢) صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، ص ٢٠١ .
 - (٣) حافظ وهبه ، جزيرة العرب ، ص ٢٤٦ .

ابن الرشيد واضطر للعودة نحو الشمال ، واستقر في حفر الباطن ، وعاد
السلطان عبد العزيز الى الرياض ، (١)

وكانت الدولة العثمانية قد اتخذت موقفا عدائيا في أول الأمر من ابن
سعود وذلك لأن السعوديين لا يعترفون بخلافة آل عثمان ولأن أهل نجد منذ
قيام الشيخ محمد بن عبد الوهاب بدعوته الاصلاحية جاھروا بلاطه القائمين
بالأمر فيهم من آل سعود ، بالإضافة الى امتناع الديار النجدية عن الخضوع
لنفوذ الدولة العثمانية ، وتمسكها في أيام الحكم السعودي باستقلالهم ودفاعهم
عن ذلك بالسلاح ، ولما كان آل الرشيد موالين للدولة العثمانية ومعترفين
بسلطانهم فقد اتخذتهم الدولة سنداً لها في شبه الجزيرة ، وأداة فعالة
لتدعيم سياسة الدولة في قلب الجزيرة . (٢)

وبعد هزيمة ابن الرشيد في موقعة الصلحية أدرك أن مركزه صار
حرجاً وفي خطر ، وذلك لتغلب القرى والقبائل عن مناصرته ومؤازرته بعد أن
كانت موالية له ، ومع ذلك كانت هناك بعض القبائل التي يمكنها أن تدعم موقفه
غير أنه لم يكن واثقاً بقبائل القصمان أن تقف دالماً جانبه اذا ساءت الامور ، لذلك
كان أمه الوحيد في مواجهة زحف ابن سعود لجوؤه للدولة العثمانية التي
ستبادر الى مساعدته لتثبيت أقدامها في وسط الجزيرة العربية ، فأرسل ابن الرشيد

(١) خير الدين الزركلي ، شبه الجزيرة في عهد الطوك عبد العزيز ج ١ ، ص ١٣٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤٩ .

رسائل الى الوالى العثمانى فى بغداد ، وياشر فى اتخاذ اجراءات مؤقتة للدفاع عن القصيم فى انتظار وصول قوات السلطان ووضع حاميات فى عنيزة ومريدة (١) ولقى طلب ابن الرشيد اهتطاً من الدولة العثمانية ، وأذن الباب العالي بارسال الامدادات من سلاح ورجال ومال لابن الرشيد ، ما دام يريد القضاء على آل سعود ، وزحف ابن الرشيد ومعه قبائل شمر وجنود الدولة العثمانية ، وتلاقى الفريقان فى سهل البكيرية (٢) ، وبعد انهزام ابن الرشيد فى الثامن عشر من رجب الموافق للثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٠٤ م (٣) غيرت الدولة من سياستها فطلبت من الامام عبد الرحمن والمقيم بالرياض بواسطة شيخ الكويت للمفاوضة ، وأجاب الامام عبد الرحمن طلب الدولة العثمانية فى حضور المفاوضات ، فسافر الى الكويت ومنها توجه ورفقته شيخ الكويت الى الزبير ، واجتمعوا هناك ، وبعد المفاوضات تقرر أن تكون منطقة القصيم على الحياد لتقوم كحاجز بين ابن الرشيد وابن سعود ، وأن يكون للدولة مركز عسكرى لحمايتها وحكمها ، ولكن الامام عبد الرحمن لم يوافق على هذا القرار واقترح أن يمرضه على أهل نجد ، وبطبيعة الحال لم يقبل أهل القصيم أن تكون منطقة القصيم على الحياد ، ولا أن تكون فيه حامية للدولة . (٤)

-
- (١) عبد الله فيلبى ، تاريخ نجد ، ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .
 - (٢) خير الدين الزركلى ، شبه الجزيرة فى عهد الملك عبد العزيز ، ص ١٥٠ .
 - (٣) صلاح الدين المختار ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، ص ٦٨ .
 - (٤) أمين الريحانى ، تاريخ نجد وطلحاته ، ص ١٤٩ .

وكان ابن الرشيد بعد هزيمته قد اتجه الى الكهفة ، وهى قرية فى أول حدود جبل شمر ومن هناك أرسل الى السلطات المثمانية فى بغداد يطلب منها مساعدات أخرى (١) ، فأرسلت الدولة أحمد فيضى باشا الذى اشتهر بشجاعته وحسن سياسته ، ووصل بثلاثة طوابير وخمسة مدافع ، ودعمته برجال آخر هو الفريق صدقى باشا وكان من المدينة المنورة ومعه طابورين ، فالتقوا وعسكروا قرب القصيم .

وفى واقع الأمر لم يكن للدولة رغبة فى الدخول فى حرب مع ابن سعود وعدت للمفاوضات من أجل السلم ، وكان فيضى باشا وصدقى باشا قد اجتمعا بابن الرشيد وتفاوضا معه ، ولكنهم اختلفوا ان كان ابن الرشيد يريد أن يضغط على أهل نجد ، وأن يقضى على أهل القصيم بالسيف ، فخالفه المشير احمد فيضى ، وعاد ابن الرشيد وعسكره الى مقره الكهفة ، واتجه المشير وصدقى باشا على رأس جنودهم قاصدين القصيم ، وعندما وصلوا الى بريدة رفض أهلها أن يدخلوهم المدينة ، وأرسل فيضى باشا رسولا الى الرياض يذكر أن الدولة لا تريد محاربة أهل نجد وأنه جاء مسالما ، وأرسل الى ابن سعود فى الحطاب يؤمنه قائلا : اننى لا أريد الا السلم ، ولست محققا مقاصد ابن الرشيد ، وقد سأله البقاء مكانه ، وأرسل والده الامام عبد الرحمن الى عنيزة للمفاوضة ، فقبل

(١) عبد الله فيليبى ، تاريخ نجد ، ص ٢٨٩ .

عبد العزيز بذلك ، وأمر الناس بالهدوء ، وألا يقوموا بأعمال عدائية أشلاء
المفاوضات (١) ، واجتمع الامام عبد الرحمن بفيضى باشا فى عنيزة ، وكانت
المفاوضات تدور حول الصلح بين ابن سعود وابن رشيد ، واقترح فيضى باشا
أن تكون القصيم منطقة محايدة ، وأن تتمركز القوات العثمانية فى بريدة وعنيزة
الى أن يتم الصلح (٢) ، وبينما المفاوضات تجرى تلقى فيضى باشا برقية من
الاستانة تأمره بالسفر فى الحال الى صنعاء التى اشتد الحصار عليها من
قبل اليمنيين تحت لواء يحيى حميد الدين ، فترك فيضى باشا القصيم ، وعهد
الى صدق باشا باتمام المفاوضات وكان ذلك سنة ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥ م) (٣) .

وكان الامام الزيدى يحيى بن حميد الدين قد بحث سنة ١٩٠٤ م برسائل
عديدة الى زعماء القبائل الموالية للدولة العثمانية يحرضهم على الخروج على
طاعة الدولة ، كما أخذ يروج الدعايات ضد العثمانيين ، وشهر بما يقوم به
الولاة العثمانيون من فظائع ، فغبر عن سخطه وفضه على الحكم العثمانى (٤)
ويعتبر ذلك الانتقاد المستمر من قبل الامة للولاة العثمانيين والتشهير بهم
واتهامهم بالخروج عن الدين فى سلوكهم ، من ضمن أسباب ضعف الدولة فى
هذا الجزء ، وبالتالى اضعافها فى محاولة للقضاء على الوجود البريطانى

(١) امين الريحانى ، تاريخ نجد وطلحاته ، ص ١٤٨ .

(٢) عبد الله فيلى ، تاريخ نجد ، ص ٢٩٠ .

(٣) خير الدين الزركلى ، شبه الجزيرة فى عهد الملك عبد العزيز ج ١ ، ص ١٦٨ .

(٤) هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن فى طوك الحرب ، ص ١٢٢ .

فى عدن ، ومن ثم اضعافها فى غربى الجزيرة كله .

وتطورت الامور فى اليمن ، ففى سنة ١٩٠٥م حاصر يحيى بن حميد الدين صنعاء ، واستولى على الحامية العثمانية ، ولم يخلص تلك المدينة الا أحمد فيضى باشا الذى وصل اليها فى نفس السنة ، وبعد أن أدرك السلطان عبد الحميد من خلال المعارك الضارية التى خاضتها القوات العثمانية هناك سنة ١٩٠٤ - ١٩٠٥م أن هذه الولاية لا يمكن الاحتفاظ بها بالقوة فأعلنت الدولة استعداها لاطلاق يد الامام يحيى فى حكم الأقسام الداخلية (١) ، وبالإضافة الى نموذج ابن سعود ، الذى تمكن من القضاء على ابن الرشيد ، وعقد معاهدة مع العثمانيين ، انسحبت بموجبها القوات العثمانية الى بغداد والمدینة المنورة ، ويوضح من هذا العرض كله أن الدولة العثمانية فقدت سيطرتها على شرقى الجزيرة ووسطها ، الى جانب فقدتها مصر وقناة السويس ، لذلك رأت الدولة فى خط سكة حديد الحجاز الشريان الوحيد الى الحجاز ومكة والمدینة المنورة ، لتحافظ على مكانتها الروحية فى العالم الاسلامى والاكتفاء بتلك المكانة التى ظلت الدولة تحافظ عليها حتى بعد انسحابها من تلك المناطق .

ومع افتتاح الخط سنة ١٩٠٨م تولى ادارة مكة الشريف حسين الذى كان يقيم

فى استانبول منذ سنة ١٨٩٣م ضيفا على السلطان عبد الحميد (٢) واستطاع

(١) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٢٤٣ .

(٢) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٢٤١ .

الشريف حسين أن يعيد ل منصب الشرافة مقامه الرفيع ، وسط نفوذ على جميع القبائل المجاورة وذهب الى أبعد من ذلك في توسيع نطاق حدوده ، وعند ما قويت شوكة الاتحاديين أرادوا أن يسلبوا الحجاز ميزاتة ، فأعلنوا أنه يجب خضوع الحجاز لنظام الحكومة المركزي ، وأرسلوا اليه واليا ذا نفوذ قوى ، فنفّر الشريف من هذا التصرف واضطر الاتحاديون أن يأمروا والى الجديد بحماية الشريف (١) ، حتى لا يخرج عن اطار نفوذ الدولة وكان الهدوء الشامل يسود الحجاز في هذه الفترة كما كان سلطان الخليفة مستقرا ، وذلك بسبب وجود الخط الحديدي الذي ربط الحجاز بالعاصمة ربطا مباشرا ، الى جانب أن هذا الشريان أى الخط كان يسير في أكثر جهات الجزيرة العربية أمنا وارتباطا بالدولة العثمانية على ضوء ما قد منا من تفاصيل سابقة .

وقبل قيام الحرب العالمية الاولى تطورت الاوضاع في الجزيرة العربية ، ففي عسير رفض الادريسى الخضوع للسيطرة العثمانية سنة ١٩٠٩ م ، وفي منطقة اليمن استأنف الامام الزيدى مقاومته للسلطة العثمانية ، مما اضطر الدولة الى توقيع معاهدة صلح في أكتوبر سنة ١٩١١ م مع الامام ، وفي شرق الجزيرة استولى السلطان عبد العزيز على مقاطعة الاحساء في سنة ١٩١٣ م (٢) ، مما زاد من قيمة خط سكة حديد الحجاز حيثئذ من حيث أنه الشريان الذي كان

(١) محمد بديع شريف وآخرون ، النهضة العربية الحديثة ، ص ١٠١ .

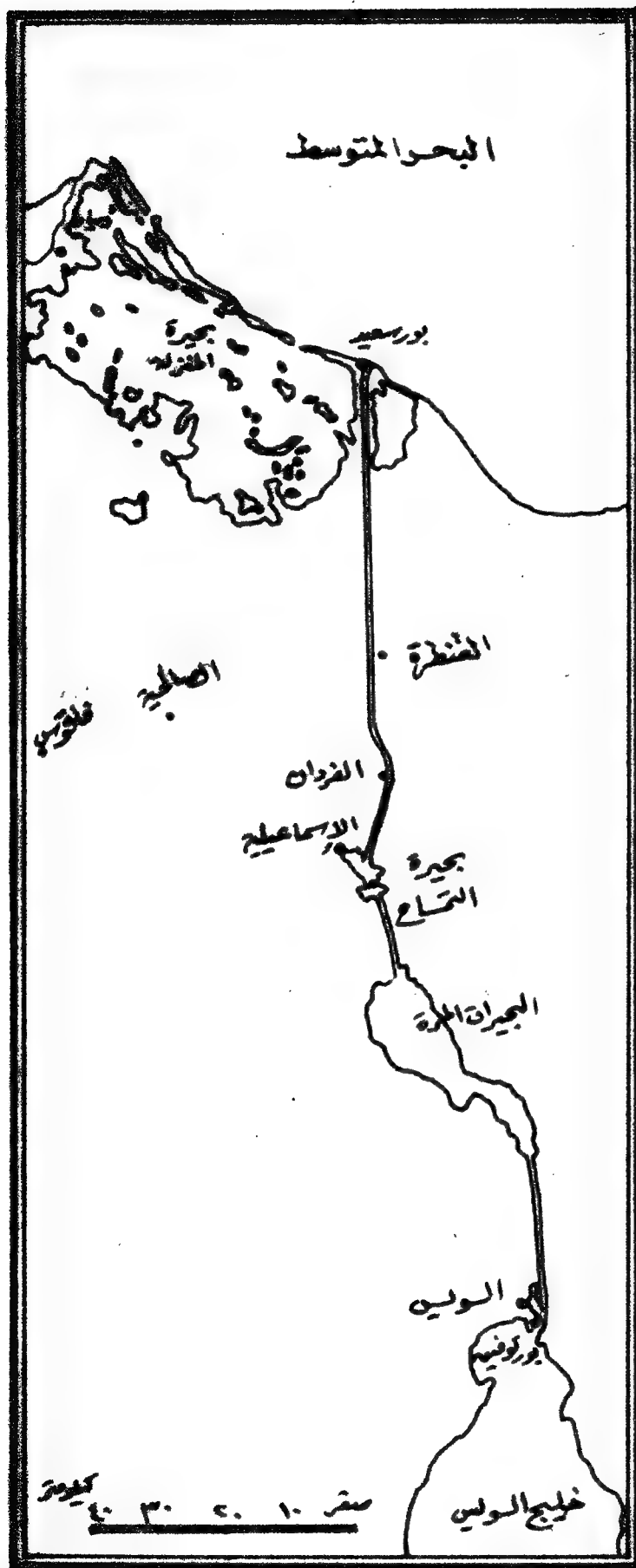
(٢) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٧٤٢ - ٧٤٣ .

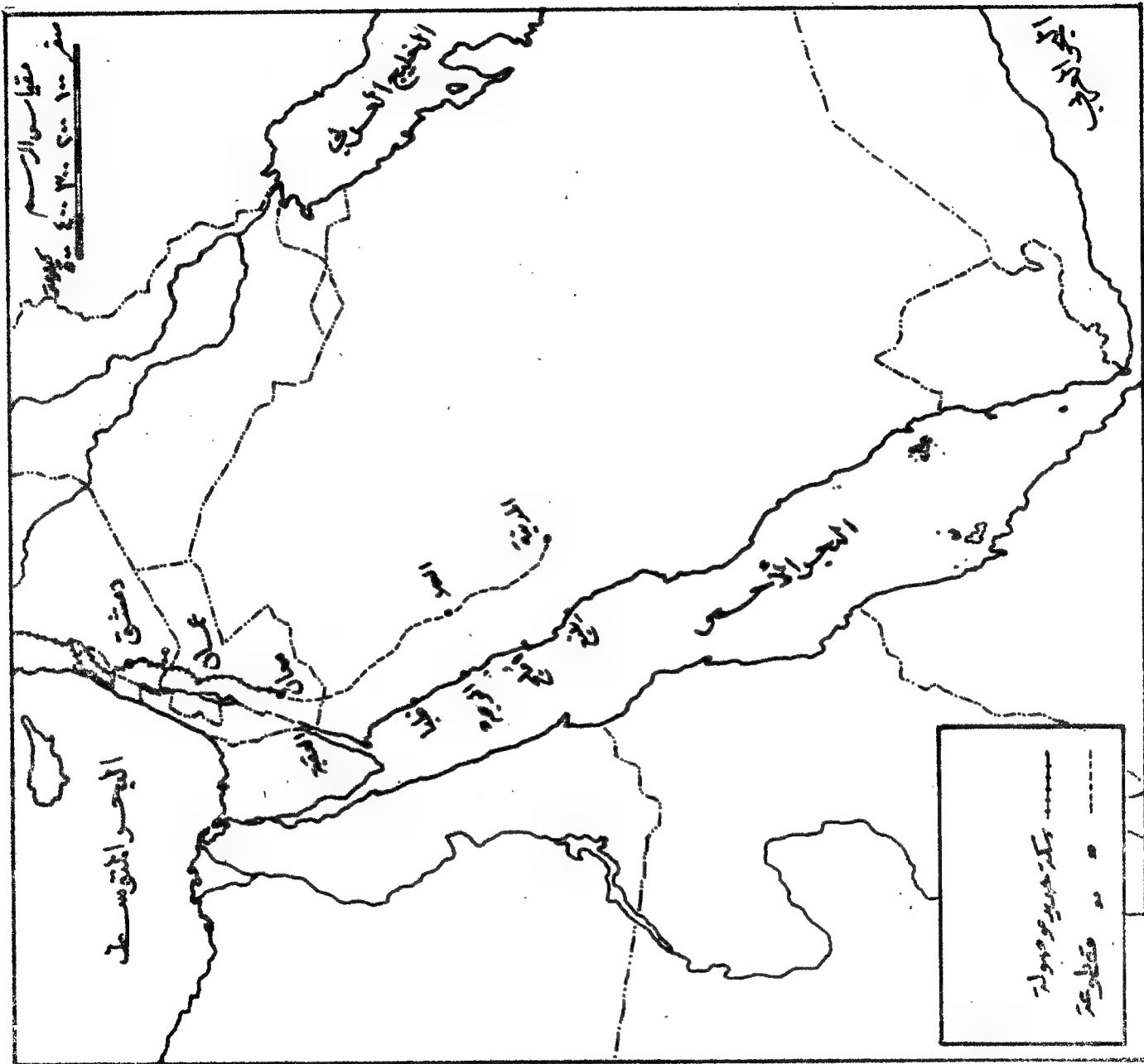
ما يزال ينبض بوجود الدولة في الأماكن المقدسة الإسلامية .

وليس من هنا في رسالتنا هذه أن نتطرق إلى التطورات التاريخية التي أعقبت ذلك وأدت إلى ضعف هذا الشريان ، ثم زهاب آثاره بالنسبة للدولة العثمانية ، لأن خطة بحثنا تجعل من افتتاح الخط نهاية مقبولة للبحث .

وليس أدل على أهمية خط حديدى فى وصل شمال الجزيرة بغربها من انبعاث الفكرة من جديد فى أيامنا هذه ان شكلت فى الايام الاخيرة ما سميت باسم لجنة سكة حديد الحجاز لاهياء ذلك الخط ومن مهام هذه اللجنة استعراض تاريخ انشاء خط سكة حديد الحجاز أيام الدولة العثمانية .

المدرسة

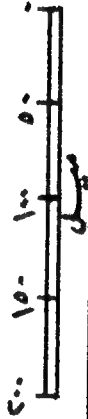




١٢٠

一

من العتور المتاسع عشر
في النصف الثاني
وجنوبي البحر الأحمر
خليج عدن



١٠

7. 10 7. 3

3

توکل

١٠٠

३३

三

3

15

—

9

217

1

•

مجلس

5

1111

10

- 1A. -

Inclosure in No. 5

Memorandum.

Constantinople, January 24, 1873.

The circumstances connected with Lahej, upon which explanations were asked of the Porte the other day, appear, from what can be ascertained from trustworthy sources, but not communicated by Her Majesty's Government, to be as follows:-

Lahej, which is within 15 miles of the garrison outposts of Aden, is the chief town of the low country, and commands the country from which Aden draws its supplies of grain, forage, fuel, water, & c.

(Its Chief, or Sultan, as he calls himself, is a stipendiary of the British Government, receiving a monthly salary for the services of his people in feeding Aden and keeping the roads open, and has never been subject to the authority of the Porte)

(Some months ago the Mushir established at Sana, not less than 150 miles off, took upon himself to summon this Chief, the stipendiary of the British Government, to attend his camp and submit himself formally to the Turkish Government, and to prepare camels, & c., for a descent into the low country of Lahej, commonly called El Hantash.

The Chief replied that he was the servant and stipendiary of the British Government, but no notice was taken of this answer by the Pasha.)

It is certain that for generations the Porte has not exercised or pretended to a shadow of authority over the district in question, and the unwarranted attempt of the Pasha to reduce it to subjection could not be seen with indifference by Her Majesty's Government.

طحق رقم ٥ /

مذكورة استانبول ٢٤ يناير ١٨٧٣م

بخصوص الاحداث التي تتصل بلحج والتي من خلالها أمكن وضع التفسيرات التي يمكن أن تفسر تساؤل الباب العالي في اليوم التالي . ولقد بدا واضحا بالتجربة ومن مصادر جديدة بالثقة والاعتماد ويدون أدنى علاقة لحكومة جلالتها أن هذه الاحداث هي كالتالي :

- ان لحج التي تقع داخل خمسة عشر ميلا من نطاق نقط الحدود العسكرية لعدن هي المدينة الرئيسية التي تسيطر على البلد كلها ومنها تأخذ عدن جميع امداداتها من الخبواب والحلف والوقود والماء وغير ذلك .
- ان رئيسها (أوسلطانها كما يسمى نفسه) يتقاضى راتباً شهرياً من الحكومة البريطانية نظير قيامه هو وشعبه بامداد عدن بالموئن وجعل الطرق مفتوحة للسير فيها وهو لم يكن أبداً تحت سلطة الباب العالي .
- منذ عدة شهور مضت ترأس المشير حكم مدينة صنعاء التي تبعد ما لا يقل عن ١٥٠ ميلا وأخذ على عاتقه دعوة سلطان لحج (الذي يتقاضى راتباً شهرياً من الحكومة البريطانية ليحضر الى معسكره لكي يرسل رسمياً الى الحكومة التركية ثم بعد ذلك أعد الجمال ليهجم على بلد يتبع اسفل لحج يسمى هنتاش .

لقد قال سلطان لبحر لحاكم صنعاء أنه خادم للحكومة البريطانية التي
يتقاضى منها راتباً ، لكن لم يكن هناك أى تعليق أو اجابة أو اهتمام
من الباشا حاكم صنعاء . ولكن يكون واضحاً أمام الاجيال ، ان الباشا
العالى لم يكن له أى ظل للسلطة على اية مقاطعة كما لا يوجد أى سبب
لمحاولة الباشا تقليصها واخضاعها (المقصود هنا محاولة الباشا السيطرة
على المقاطعات التي تحيط بحدن) وهذه المسألة يمكن أن تراها
حكومة جلالته بنظرة مختلفة .

Inclosure 2 in No. 27.

Brigadier - General Schneider to Mr. Gonne.

(Extract.)

Aden, August 21, 1873.

I have the honour to forward translation of a letter addressed to the Sultan of Lahej by Ahmed Ayoob Pasha, the recently appointed Governor-General of Yemen, the original of which I propose to send to the Secretary of State for India to show that the Pasha has conveyed a covert threat to the Sultan notwithstanding the assurances that have been given by the Porte to the British Government.

I have thought it advisable to address the following communication to Ahmed Ayoob Pasha, so that he may know the Resident is acquainted with the orders and instructions he has received from the Ottoman Government :-

" We have to bring to your Excellency's notice that the detachment of Turkish regular and irregular troops sent by your predecessor, Ahmed Mookhtar Pasha, to Shuka, in the Howshebee country, have not yet been withdrawn.

" We received an intimation a short time since from the Great Government that your Excellency had been sent from Comstantinople with instructions from the Sublime Porte to remove the above-mentioned troops from the Howshebee country, .

" We trust your Excellency will promptly act in conformity with the orders you have received in respect of the matter we now bring to your notice, and so cause affairs to revert to their normal condition by abstention from interference with chiefs and tribes around Aden with whom the British Government has Treaties, or who are its stipendiaries."

" We learn with regret that the Ameer Ali-bin- Mookbil, a stipendiary of the British Government, is still a prisoner at large ".

Copy of this letter will be forwarded to the Secretary of State for India.

ملحق ٢ لرقم ٢٧

اللواء شنايدر الى السيد جون

عدن ٢١ اغسطس ١٨٧٣م

يشرفني ان ارسل لكم ترجمه الخطاب الذى ارسله احمد ايوب باشا الحاكم الجديد
لليمين الى سلطان لحج اما بالنسبه لاصل الخطاب فسوف ارسله الى وزارة الخارجية
فى الهند لكى اظهر لهم ان الباشا قد بلغ تحذيرا سريا للسلطان ، لا يتفق مع
التأكيدات التى اعطيت بواسطه الباب العالى الى الحكومه البريطانيه .

لذلك فانا انصح بارسال الملاحظات التاليه الى احمد ايوب باشا —————
لكى يعلم ان الحاكم (حاكم عدن) مطلع على الاوامر والتعليمات التى تسلمها —————
من حكومه الباب العالى .

* اننا نضع امام فخامتكم ان القوات العسكريه التركيه النظاميه وغير النظاميه
والتي سبق ان ارسلها سلفكم احمد مختار باشا الى شوكا فى اقليم —————
الحوشبى ولم تسحب الى الآن .*

* لقد ابلغنا منذ فترة الحكومه العليه قد زودت فخامتكم بتعليمات البــــــــــــاب
العالى فى اسطنبول لسحب القوات التى سبق ذكرها اعلاه من اقليم الحوشبى .

نحن على ثقه بان فخامتكم سوف تلتزمون بشكل دقيق بتنفيذ الاوامر الــــــــــــتى

التي استلمتها بهذا الخصوص والخاصة بالمسئلة التي نوجه انتباهكم
نحوها حيث ان ذلك سيعيد الامور الى وضعها الطبيعي بالاقتناع
عن التدخل مع المشايخ والقبائل المحيطة بعدن والتي ترتبط
بمعاهدات مع الحكومة البريطانية او اولئك الذين هم تحت حمايتها .
ولقد علمنا مع الاسف بان الامير على بن مقبل والمحمى من الحكومة
البريطانية لا يزال سجيناً في لجج ان نسخة من رساله سوف
ترسل الى وزير شئون الهند .

Sir Henry Elliot to Earl Granville-(Received December 12)

My Lord,

Therapia, November 30, 1873.

The divergence upon which your Lordship remarks in your telegram of the 29th instant between the terms of telegraphic instructions to the Governor-General of the Yemen, and the previous promises of the Porte to abstain from aggression against all the Arab tribes near Aden which have treaties with Great Britain, had not escaped my attention.

My despatch of the 21st instant, which having been forwarded by post on the 22nd must be on the point of reaching your Lordship's hands, contains a report of the conversation I had had on the subject with Raschid Pasha who assured me that the late instructions are to be understood as applying to the country of all tribes in question.

(Signed) HENRY ELLIOT.

I have, & c.

رقم / ٥٥

من سير هنرى اليوت الى ايرل جرانفيل (تسلمت بتاريخ ١٢ ديسمبر

ثورابيا ٣٠ نوفمبر ١٨٧٣م

سيد اللورد

الاختلاف (الانحراف) الذى أوضحته فخامتكم فى برقيتكم المؤرخة بتاريخ

٢٩ الحالى بين التعليقات البرقية للحاكم العام فى اليمن وبين الوعد —

السابقة من قبل الباب العالى بالامتناع عن القيام بأى عمل عدائى ضد كل

المقاطعات العربية القريبة من عدن والتى تربطها معاهدات مع بريطانيا

المظلى لم تخيب عن نظرى .

رسالتى المؤرخة بتاريخ ٢١ الحالى والتى أرسلت لكم بالبريد فسـ

٢٢ الحالى أرجو أن تكون بين يديكم تحتوى على تقرير عن المحادثة التى أجريتها

بخصوص هذا الموضوع مع رشيد باشا الذى أكد لى أن التعليقات الاخيرة تتضمن

تطبيقها على كل اجزاء المقاطعات التى شطها التساؤل من جانبكم .

هنرى اليوت

فهرس المصادر والمراجع

Documents الوثائق

1 - سجلات البرلمان البريطاني : Parliametary Papers:

Correspondence Respecting Turkish Proceedings
in the Neighbourhood of Aden. Presented to both
Houses of Parliament of Her Majesty's 1872.

موجودة في Public Record في لندن ومسجلة تحت رقم

H.C.1 3752 X/P0983

تضم هذه المجموعة من الوثائق فحوى المراسلات المتبادلة بين الحكومتين
البريطانية والعثمانية وبين سفيرى الدولتين وحكومتيهما ، فضلا عن
المراسلات المتبادلة بين الحكومة العثمانية ووالى اليمن العثمانى من
جهة ، والمراسلات المتبادلة بين الحكومة البريطانية وحكومة الهند
وحكومة بومباى والمقيم السياسى البريطانى فى عدن من جهة أخرى .
بل انها ضمت كذلك المراسلات المتبادلة بين والى العثمانى وحكام
امارات جنوب اليمن ، وبين هؤلاء والمقيم السياسى البريطانى فى عدن
ومن خلال هذه الوثائق يمكن تتبع بداية ظهور النزاع العثمانى
البريطانى فى جنوب اليمن والاتصالات التى جرت لتلافي وقوع صدام
بين الجانبين ، وذلك عند عودة العثمانيين الى اليمن سنة ١٨٧٢ .

Suez Canal traffic, August 1872:(conterued)

- ٢

موجودة في Public Record Office تحت رقم F.O.195/1000B

توضح القائمة بحركة السفن في قناة السويس خلال عام كامل من
أغسطس ١٨٧١ وحتى السنة التالية من نفس الشهر، كما تبين القائمة
حمولة السفن وجهة الوصول وجهة القدوم بالإضافة الى جنسيتها .

المصادر والمراجع العربية

- ٣ - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ و / ٩٢٢ م) .
تاريخ الرسل والملوك ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٧١ .
- ٤ - أبو الحباس أحمد بن علي القلقشندي . (ت ٨٢١ و / ١٤١٨ م) .
صبح الأعشى في صناعة الانشاء ، ١٤ جزء ، وزارة الثقافة والارشاد القومي
- والمؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .
- ٥ - أبو محمد الحسن بن أحمد يعقوب الهمداني .
صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن عبد الله بن بليهب النجدي ،
القاهرة مطبعة السعادة ، ١٩٥٣ .
- ٦ - د . اجيه يونان جرجس .
البحر الاحمر ومضايقه بين الحق العربي والصراع العالمي ، القاهرة
مكتبة غريب . تتحدث الموثقة عن أهمية البحر الاحمر خلال العصور
التاريخية ، ثم التنافس الدولي للسيطرة على مداخل البحر الاحمر .
- ٧ - د . احمد ابراهيم الشريف .
دور الحجاز في الحياة السياسية العامة ، القاهرة ، دار الفكر العربي
الطبعة الثانية ١٩٧٧ .
٤ أبواب ، في الباب الأول ، والفصل الأول ، يتحدث عن أهمية الحجاز
في القرون الأولى ، ثم يعرف الحجاز جغرافيا .

٨ - احمد حسين شرف الدين .

اليمن عبر التاريخ ، القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ، الطبعة الثانية ،

١٩٨٤ • يتحدث الكتاب عن اليمن منذ القرن الرابع عشر قبل

الميلاد، الى القرن العشرين ، دراسة جغرافية ، تاريخية سياسية .

۹۔ احمد رشدی صالح .

قناة السويس ، القاهرة ، لجنة نشر الثقافة العامة .

يتحدث في البداية عن الاطماع الفرنسية الانجليزية في مصر، ثم عمن

أهمية قناة السويس العالمية ، وعلى الأخص أهميتها بالنسبة لاحتلترا .

۱۰۔ احمد زینی و حالان۔

خلاصة الكلام في أمراء بيت الله الحرام ، القاهرة ، المطبعة الخيرية ،

الطبعة الاولى ١٣٠٥ هـ .

اشتغل الكتاب على ذكر حروب الشريف غالب مع السعوديين ، و ذكر بعض

أحوال المسلمين مثل سليم الاول وحروبه مع السلطان الفُـوـرى ،

والسلطان عبد العزيز - كما ذكر من تولى ولاية الحجاز .

١١ - أحمد السباعي .

تاريخ مكة ، جزئين ، مكة المكرمة ، مطابع دار قريش ، الطبعة الثانية ،

• ۵۱۳۸۷

الجزء الثاني : تاريخ مكة في عهد العثمانيين ، وعلاقة مكة بالدولة

العثمانية ، في عهد ها الاول والثاني .

١٢- احمد شفيق باشا .

مذكراتي في نصف قرن ، جزئين ، القاهرة ، مطبعة مصر ، الطبعة

الاولى ، ١٩٣٦ .

يتحدث في الجزء الثاني عن عباس حلمي الثاني ، كما تحدث في القسم

الثاني من نفس الجزء عن مسألة طابا .

١٣- د . احمد فخرى .

اليمن ماضيها وحاضرها ، القاهرة ، مطبوعات معهد الدراسات العربية

العالمية ، ١٩٥٧ .

محاضرات ألقاها المؤلف على طلبة قسم الدراسات الجغرافية

والتاريخية ، ففي القسم الرابع مختصر لدول اليمن ، ومطابع الاستعمار

على اليمن ، وحالة اليمن في القرن التاسع عشر ، وعودة الحكم العثماني

الى اليمن .

١٤- اسماعيل سرهنك .

حقائق الاخبار عن دول البحار ، جزآن (والثالث غير كامل) ،

القاهرة ، المطبعة الاميرية ببولاق ، الطبعة الاولى ، ١٣١٢ هـ .

ابتدأ بذكر الملاحة في الازمنة القديمة ، حتى وصل لتاريخ الدولة

العثمانية ، وبدأ من تأسيسها ، وتحدث عن السلطان عبد العزيز ، ثم

السلطان عبد الحميد ، وأخيرا كتب عن الادارة البحرية .

١٥- امين الريحاني .

تاريخ نجد وطبقاته ، بيروت ، دار الريحاني ، الطبعة الرابعة ،

١٩٧٠ .

النبيذة الثالثة آل سعود منذ نشأتهم الى حين استيلاء محمد بن

الرشيد على نجد ، ثم كتب سيرة الملك عبد العزيز .

١٦- طوك العرب ، جزآن ، بيروت ، طبع في مطابع صادر ريحاني ، ١٩٥١ .

يشتمل على مقدمة ، وثمانية أقسام ، القسم الأول عن الحجاز في عهد

الشريف حسين والثاني عن اليمن ، والرابع عن لحج والنواحي التسعة

المحمية ، والخامس عن سلطنة نجد وطبقاتها .

١٧- امين سعيد .

تاريخ الدولة السعودية ، ٣ مجلدات ، بيروت ، دار الكاتب العربي ،

١٩٦٤ م .

يبدأ المجلد الاول بالكتابة عن الدولة السعودية من عهد محمد بن

سعود ١١٥٨ هـ ، وحتى عهد عبد الرحمن الفيصل ١٣٠٧ هـ .

١٨- تاريخ اليمن ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٥٩ .

تحدث في البداية عن الاحتلال الانجليزي لعدن ، ثم انتقل الى اتفاقية

وعان بين الامام يحيى والدولة العثمانية .

١٩- باسيل دقاق .

تركيا بين جبارين ، القاهرة ، منشورات دار المكشوف .

يتحدث الكتاب عن موقف تركيا في الحربين العالميتين الاولى والثانية .

٢٠- بطرس بطرس غالى ، ويوسف شلاله .

قناة السويس ومشكلاتها ١٨٥٤ - ١٩٥٧ ، جزآن ، الاسكندرية ،

مطابع البصير .

تحدث في الجزء الثانى عن الاتفاقية الخاصة بحرية استعمار قناة

السويس ، والوثائق الدولية الخاصة بها .

٢١- توفيق على برو .

الحرب والترك في العهد الدستوري الميثاقى (١٩٠٨ - ١٩١٤) ،

القاهرة ، رسالة من مطبوعات معهد الدراسات الحربية العالمية ١٩٦٩ .

تحدث عن العلاقة بين الحرب والترك قبيل الانقلاب الدستورى ، وحتى

دخول الدولة الميثاقية الحرب العالمية الاولى .

٢٢- جاد طه .

سياسة بريطانيا في الجنوب العربى ، القاهرة ، دار الفكر العربى ١٩٧٠ .

بدأ بالمنافسة الدولية فى جنوب الجزيرة العربية (١٧٩٨ - ١٨٣٦)

ومقدمات الاستيلاء البريطانى على عدن ، وفى الفصل السابع كان الحديث

عن النزاع الميثاقى البريطانى فى الجنوب اليمنى ، وأخيرا أسلوب الحكم

البريطانى فى الجنوب اليمنى .

٢٣- جرجى زيدان .

الحرب قبل الاسلام ، مراجعة حسين مؤنس ، القاهرة ، دار الهلال .

يبحث المؤلف في أصل الحرب وتاريخهم ودولهم وتمددتهم في أقدم

أزمانهم الى ظهور الاسلام .

- ٢٤ - د : جمال الدين الشيال .

قصة الاحتلال ، الاسكندرية ، مطبعة جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٦ .

كتاب أصدر بمناسبة أحد الأعياد الوطنية في مصر ، ويتحدث عن قصة

الاحتلال الانجليزي .

- ٢٥ - حافظ وهبة .

جزيرة العرب في القرن العشرين ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف ،

الطبعة الخامسة ، ١٩٦٧ .

يتحدث الكتاب عن طبيعة جزيرة العرب وحالتها الاجتماعية ، ودعوة

الوهابيين وتاريخهم ، وآل سعود وتاريخهم .

- ٢٦ - د . حسن احمد محمود ، د . محمد انيس ، د . رجب حراز .

مصر في العصور الوسطى والحديثة ، القاهرة ، دار النهضة العربية .

٤ فصول ، الفصل الثالث ، الاحتلال البريطاني لمصر ، الفصل الرابع :

الوضع في مصر بعد الاحتلال .

- ٢٧ - الحسن بن عبد الله الاصفهاني .

بلاد العرب ، تحقيق حمد الجاسر ، د . صالح الحلي ، الريان منشورات

دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٩٦٨ .

- في بداية الكتاب بحث منشور : كان قد ألقى في مجمع اللغة العربية
في القاهرة في دورة ٣٣ في ٢٤ شوال ١٣٨٦ الموافق ١٩٦٧/٢/٤ م .
- ٢٨ - حسين بن أحمد القرشي .
بلوغ المرام في شرح مسك الختام ، القاهرة ، مطبعة البريتري ، ١٩٢٩ .
ختم المؤلف حوادث سنة ١٣١٨ هـ / ١٩٠٠ ، عنى بنشره الابانستان
الكرا منلى من أعضاء مجمع فوأن ، فأوصل حوادثه الى آخر ربيع الاول
سنة ١٩٥٨ / مايو ١٩٢٩ .
- ٢٩ - حسين فوزى النجار .
بريطانيا والجنوب العربى ، القاهرة ، دار الكاتب العربى .
المقدمة كانت عن أهمية الجنوب العربى بوجه عام ، ثم تحدث عن
الاحتلال البريطانى لعدن ، وذكر معاهدات الحماية على مشايخ
المناطق المجاورة لعدن ، وأطوار تلك المعاهدات .
- ٣٠ - السياسة والاستراتيجية فى الشرق الاوسط ، القاهرة ، مكتبة النهضة
الطبعة الاولى ١٩٥٣ .
- الفصل السابع : تحدث المؤلف عن الاحتلال البريطانى لمصر ، وفى الفصل
الثامن تحدث عن قناة السويس والمسألة المصرية .
- ٣١ - خليل مردم بك .
أعيان القرن الثالث عشر فى الفكر والسياسة والاجتماع ، تقديم عدنان
مردم بك ، بيروت لجنة التراث العربى .

ترجم المؤلف لبعض سلاطين الدولة العثمانية ، مثل السلطان
عبد العزيز ، كما ترجم لبعض أشراف مكة .

- ٣٢ - خير الدين الزركلى .

شبه الجزيرة في عهد الطك عبد العزيز ، ٤ أجزاء ، بيروت ، دار القلم ،
الطبعة الاولى ، ١٩٧٠ .

تحدث في الجزء الاول عن فتح الرياض ، وحروب السلطان عبد العزيز
مع ابن الرشيد ، وعلاقة الدولة العثمانية معه .

- ٣٣ - الدراسات الثقافية .

قناة السويس ماضيها وحاضرها ، القاهرة ، مطبعة التحرير ، ١٩٥٥ .
تحدث الكتاب عن القناة في السياسة الدولية ، كما شرح أحكام اتفاقية
القسطنطينية سنة ١٨٨٨ .

- ٣٤ - ساطع الحصرى .

البلاد العربية والدولة العثمانية ، بيروت ، دار العلم للملايين ،
الطبعة الثالثة ، ١٩٦٥ .

في البداية تحدث عن تأسيس الدولة العثمانية ، ونظام الادارة فيها ،
ثم انتقل بالحديث عن البلاد العربية تحت الحكم العثماني ، وموقف
البلاد العربية من الدولة العثمانية .

- ٣٥ - يوم ميسلون ، بيرست ، دار الاتحاد .

بدأ الحديث عن أهمية يوم ميسلون ، والكتاب في قسمين ، القسم الاول

تحدث عن أطماع فرنسا في سورية .

٣٦ - د : سيد رجب حراز .

الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب (١٨٤٠ - ١٩٠٩) القاهرة ،

معهد البحوث والدراسات العربية سنة ١٩٧٠ .

تحدث في الفصل الثالث عن العثمانيين في اليمن ، ثم انتقل إلى

العثمانيين في الحجاز ، وتقوية نفوذ الدولة على إقليم الحجاز .

٣٧ - المدخل إلى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال

البريطاني (١٥١٧ - ١٨٨٢) ، القاهرة ، دار النهضة العربية

١٩٧٠ .

الباب السادس ويتحدث عن مصر في الفترة من ١٨٦٣ - ١٨٨٢ .

٣٨ - د . سيد نوفل .

الخليج العربى أو الحدود الشرقية للوطن العربى ، القاهرة ،

دار الفكر العربى ، الطبعة الاولى ، ١٩٦٨ م .

يتحدث المؤلف عن أوضاع الخليج العربى فى المحصور الحديثة .

٣٩ - شرف بن عبد المحسن البركاتى .

الرحلة اليمنية ، بيروت ، المكتب الاسلامى ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٤ هـ .

ترجم فى بدايته للشريف حسين بن على ، وجعل الفصل الرابع عن كيفية

ادارة منطقة عسير من قبل الدولة العثمانية ، وفى الفصل الخامس

تحدث عن ولاية الحجاز والحالة التى كانت عليها .

٤٠ - د . شوقى عطا الله الجمل .

الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر ، (١٨٦٣ - ١٨٧٩) ،

القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربى ، ١٩٥٩ م .

الكتاب فى خمسة أقسام ، والقسم الاخير ورد ذكر الوثائق الخامسة

بعلاقة مصر بالبلاد العربية المطلة على سواحل البحر الاحمر الشرقية ،

مثل علاقة مصر بالحجاز ، وعسير ، واليمن ، كما ترجم المؤلف لشخصيات

هامة ورد ذكرها فى الوثائق .

٤١ - البحر الاحمر فى سياسة مصر واستراتيجيتها فى النصف الثانى من

القرن ١٩ .

بحث ألقى فى جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، ١٩٧٩ ، يتحدث عن

اهتمام مصر بتيسير ربط البحر المتوسط والاحمر ، وبسط الادارة المصرية على موانئ البحر الاحمر بسواكن ، ومصوع ، وبربره ، ثم الاصلاحات التي قامت بها الادارة المصرية في تلك الجهات .

٤٢- صلاح الدين الشامي .

الموانئ السودانية ؛ تسعة فصول ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٦١ .

٤٣- صلاح الدين المختار .

تاريخ المطلة العربية السعودية ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، الطبعة الاولى ، ١٩٥٢ .

تحدث في الفصل السادس عن ظهور الامام عبد الرحمن الفيصل ، واحتلال ابن الرشيد للرياض ، حتى أوصل أحداثه الى العهد السعودي في عهد الطك عبدالعزيز .

٤٤- صلاح الحقاد .

التيارات السياسية في الخليج العربي ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٥ .

ابتدأ بالغزو البرتغالي لمناطق الخليج ، وتدرج بعد ذلك وذكر النزاع البريطاني العثماني في قطر والبحرين . ثم انتقل الى مسألة الكويت واحياء الدولة السعودية ، ومشروع الاتفاق العثماني البريطاني سنة ١٩١٣ .

٤٥- عبد الرؤوف احمد عمرو .

قناة السويس في العلاقات الدولية ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة

للكتاب ، ١٩٧٨ .

يتكون الكتاب من ١٠ فصول ، يتحدث في الفصل الاول عن قناة السويس
في السياسة الدولية (١٨٦٥ - ١٨٨١) ، والفصل التاسع : الخطة
الاستراتيجية البريطانية لاحتلال القناة ، الفصل العاشر يتحدث عن
قناة السويس عقب الاحتلال البريطاني .

٤٦ - عبد الرحمن الرافعي .

عصرا سمعيل جزان ، القاهرة ، مطبعة النهضة ، ١٩٣٢ .

الجزء الاول كانت البداية لعباس ، ثم انتقل الى عهد الخديوي
اسماعيل فذكر سياسته .

٤٧ - د . عبد العزيز رفاعي .

قضية الجلاء عن مصر بين سنتي ١٨٨٢ - ١٩٠٧ ، القاهرة ، دار القلم
١٩٦١ . يشكل الكتاب صورة تاريخية مبسطة مستقاة من الوثائق والمصادر
التاريخية الهامة عن الاحتلال وقضية الجلاء في الفترة من ١٨٨٢ - ١٩٠٧
وما قامت من أجليط من محاولات في الداخل والخارج انتهت باستقرار
الاحتلال ، وتحقيق المركز الممتاز لبريطانيا في مصر .

٤٨ - عبد العزيز الشناوي وجمال يحيى .

وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٩ .
صنف الكتاب الى ستة مجموعات ، فالمجموعة الثالثة ، تضم وثائق مصرفي
القرن التاسع عشر والمجموعة الرابعة الوثائق الخاصة بتاريخ قناة السويس .

٤٩- عبد الله بن الحسين .

مذكراتي ، القدس ، مطبعة بيت المقدس ، الطبعة الاولى ، ١٩٤٥ .
تحدث في الفصل الاول عن نشأته في مكة ، ثم الاقامة في اسطنبول
مع الشريف حسين بن علي والعودة منها ، والفصل الثاني تحدث عن
الادارة العثمانية .

٥٠- عثمان بن بشرات سنة ١٢٨٨ .

عنوان المجد في تاريخ نجد ، جزآن ، الرياض ، مطابع القصيم ، الطبعة
الثالثة ، ١٣٨٥ هـ .

يكتب المؤلف على طريقة الحوليات بدءاً الجزء للاحداث التي
تعرضت لها المنطقة من سنة ٩٨٩ وحتى سنة ١٢٣٦ ، ووصل في
الجزء الثاني الى سنة ١٢٦٧ .

٥١- علي حافظ .

فصول من تاريخ المدينة ، جده ، شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر .
تحدث في الفصل الاول عن تاريخ المدينة المنورة من عهد الرسول صلى
الله عليه وسلم حتى العهد السعودي وذكر مبانى العهد العثماني .

٥٢- علي يوسف .

بيان في خطة المؤيد تجاه الدولة العثمانية ، القاهرة ، حررت في
١٤ جمادى الثانية سنة ١٣٢٧ ، ٢ يوليو سنة ١٩٠٩ .
كتيب يوضح فيه خطة المؤيد ازاء الدولة العثمانية ، وموقف الصحيفة
تجاه عزت باشا العابد .

٥٣- عمر الاسكندري ، وسليم حسن .

تاريخ مصر من الفتح العثماني ، مراجعة الكابتن ا. ج . سفدج ،

القاهرة ، مطبعة المعارف ، ١٩١٦ .

الفصل الثاني بعنوان قناة السويس ، فتحدث عن الامتيازات الممنوحة

للشركة الفرنسية والاصلاحات العثمانية في مصر .

٥٤- د . فاروق عثمان اباظه .

الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢ - ١٩١٨ ، القاهرة ، الهيئة المصرية

العامة للكتاب ، ١٩٧٥ .

سنة فصول ، الفصل الاول : هلاقة العثمانيين ببلاد اليمن قبل

سنة ١٨٧٢ ، والفصل الرابع : السياسة العثمانية في مطلع العهد

الدستوري ١٩٠٨ - ١٩١١ .

٥٥- عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر ١٨٣٩ - ١٩١٨ ، القاهرة ،

الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦ .

يتناول الكتاب بالدراسة والتحليل أثر وجود البريطانيين في عدن على

سياستهم في منطقة البحر الاحمر منذ احتلالهم في سنة ١٨٣٩ وحتى

نهاية الحرب العالمية الاولى في سنة ١٩١٨ ، ويلقى الكتاب ضوءا على

التوسع الاستعماري البريطاني في منطقة البحر الاحمر انطلاقا من عدن .

٥٦- د . فائق بكر صواف .

العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، القاهرة ، مطبعة سجل

الحرب ، ١٩٢٨ .

الفصل الثالث : امتيازات ولاية الحجاز ، على ذلك اعادة الدولة
العثمانية سيادتها على الحجاز ، كما تحدث عن سكة حديد الحجاز .

- ٥٧ - قدرى قلحجي .

الخليج العربي ، ثمانية أجزاء في مجلد واحد ، بيروت ، دار الكاتب

العربي ، ١٩٦٥ .

الجزء السادس : الخليج العربي في دوامة الاستعمار العالمي .

- ٥٨ - د . محمد يديح شريف ، د . محمد عزت عبد الكريم ، د . زكي المحاسني .

دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة ، مراجعة محمد شفيق

غريال ، القاهرة ، نشرة جامعة الدول العربية ، الادارة الثقافية .

- ٥٩ - محمد جميل بيهم .

فلسفة التاريخ العثماني ، بيروت ، فرج قالله للمطبوعات ، ١٩٥٤ .

تحدث في الفصل الرابع عن القوى الحربية للدولة العثمانية ، وانتقل

في الخامس للحديث عن اصلاح العسكري ، وفي الفصل السادس عن

الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد .

- ٦٠ - محمد حسن عويلى .

اغتيال بريطانيا لعدن والجنوب العربي ، بيروت ، منشورات المعاصر

الحديث ١٩٢١ .

البداية كانت مدخل تاريخي موجز عن عدن ، ثم انتقل بالحديث الى

استراتيجية عدن ، وسياسة بريطانيا في الجنوب العربي .

٦١ - محمد الشرقاوى .

الاستعمار البريطانى فى جنوب اليمن ، القاهرة ، دار القاهرة للطباعة

١٩٥٨ .

٦٢ - محمد عبد الرحمن برج .

دراسة فى التاريخ الحديث والمعاصر .

تسعة فصول ، بداية الفصل التاسع : قيام الدولة السعودية الثالثة .

٦٣ - محمد عبد اللطيف البحراوى .

فتح العثمانيين عدن ، القاهرة ، دار التراث ، الطبعة الاولى ١٩٧٩ .

مقدمة وسبعة فصول وتحليل ونتائج ، الفصل الخامس : الأسباب

التي هملت العثمانيين فتح عدن .

٦٤ - حركة الاصلاح العثمانى فى عصر السلطان محمود الثانى ١٨٠٨ -

١٨٣٩ ، القاهرة ، دار التراث ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٨ .

مقدمة وسبعة فصول .

٦٥ - محمد عبد المنعم السيد الراقى .

الغزو العثمانى لمصر ، اشراف د . احمد محمد لحتة ، القاهرة ، مؤسسة

شباب الجامعة ، ١٩٧٢ .

سبعة فصول ، الفصل الثانى : أسباب الغزو العثمانى لمصر ، الفصل الرابع :

نتائج الغزو العثمانى على بقية الاقاليم العربية ، الفصل الخامس : نظام

الحكم .

٦٦- محمد حرب عبد الحميد .

مذكرات السلطان عبد الحميد ، القاهرة ، دار الانتصار ، ١٩٧٨ .
تقديم الكتاب عن السلطان عبد الحميد ، ثم يبدأ في عرض مذكرات
السلطان ، والتي كتبها من ١ مارس سنة ١٣٣٣ والتت إلى ٨
نيسان سنة ١٣٣٣ هـ .

٦٧- محمد العقيلي .

تاريخ المخلاف السليماني أو الجنوب العربي في التاريخ . جزآن ،
الجزء الاول طبع بمطابع الرياض ١٩٥٨ (١٣٧٨ هـ) .
الجزء الثاني طبع بمطابع دار الكتاب العربي بالقاهرة ، ١٩٦١)
(١٣٨٠ هـ) .

الجزء الاول :

قسمين ، تحدث عن العهد الاول للعثمانيين في اليمن والمخلاف
السليماني ، ثم العهد الثاني ، ثم أخيرا المخلاف السليماني والدولة
العثمانية في عهد ها الثالث .

٦٨- محمد فريد بك المحامي .

تاريخ الدولة الحلية العثمانية ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٧٧ .
بدأ من السلطان الفارزي عثمان خان الاول ، وانتهى بماهدة برلين
١٢٩٥ / ١٨٨٧ .

٦٩- محمد فؤاد شكرى .

مصر والسودان ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٨ .
الفصل الخامس : خديوية مصر والسودان (١٨٦٣ - ١٨٧٩) ، إضافة
الى ذكر المؤلف للفرمانات الممنوحة من قبل الدولة لولاية مصر .

٧٠- محمد كرد على .

خطط الشام . ستة أجزاء ، بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة
الثانية ، ١٩٧١ .

تحدث في الجزء الخامس عن ترعة السويس ، بالإضافة الى سكة حديد
الحجاز .

٧١- محمد كمال عبد الحميد .

الاستعمار البريطانى فى جنوب الجزيرة العربية ، القاهرة ، مكتبة
نهضة مصر ، الطبعة الرابعة .
المقدمة عن ظروف احتلال البريطانيين عدن ، ثم انتقل الى أهداف
الاستعمار البريطانى لعدن ، وأخيرا ذكر المعاهدات التى عقدت
مع مشايخ المناطق المجاورة لعدن .

٧٢- محمد لبيب الببتونى .

الرحلة الحجازية ، القاهرة ، المطبعة الجبالية ، الطبعة الثانية ،
١٣٢٩ هـ .

تحدث فى المقدمة عن أصل الأمة العربية ، ثم انتقل الى صفة جزيرة

العرب ، والكتاب في مجلته تفاصيل سفر الخديوى عباس حلمي الثاني الى الحجاز لأداء فريضة الحج ، وتخلل الكتاب ذكر تاريخ مكة ، وآل سعود ، ومحمد علي بالحجاز ، وآل سعود وآل الرشيد ، والطرق المؤدية للحرمين .

٧٣- محمد مصطفى صفوت .

انجلترا وقناة السويس (١٨٥٤ - ١٩٥٦) ، القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٩٥٦ .

يوضح في البداية أهمية مصر للتجارة بين الشرق والغرب ، ثم ينتقل الى موقف انجلترا من قناة السويس ثم الاحتلال الانجليزي للقناة .

٧٤- محمد يحيى الحداد .

تاريخ اليمن السياسي ، ٣ أقسام ، دار الهنا للطباعة ، ١٩٧٦ .
القسم الاول : تاريخ اليمن قبل الاسلام ، والقسم الثاني : تاريخ اليمن بعد الاسلام ، وكذلك خصص فصل للحكم العثماني الاول ، تلاه عودة العثمانيين الى اليمن ، وذكر الاثمة المعاصرين لتلك المدة .

٧٥- محمود كامل .

اليمن شماله وجنوبه ، قسمان ، بيروت ، دار بيروت للطباعة والنشر

١٩٦٨ .

القسم الاول : يشمل الحديث عن عصر قبل التاريخ في الجنوب العربي ، والقسم الثاني تحدث عن عهد الخلفاء الراشدين وتدرج حتى وصل الى

الاحتلال البريطاني لليمن ١٨٣٩ - ١٩٦٧ والاحتلال العثماني

لليمن الشمالي ١٨٤٩ - ١٩١٩ .

٧٦- مصطفى الحفظاوى .

قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ، جزآن ، القاهرة ، ج ١ ، نشرته
مكتبة الانجلو ، الطبعة الثانية ١٩٥٦ ، ج ٢ ، مطبعة دار اخبار اليوم .
خصص الجزء الاول : لتاريخ القناة وأصول مشكلاتها ، وخصص الجزء

الثاني للنزاع المصري البريطاني .

٧٧- مصطفى سالم .

تكوين اليمن الحديث ، ثلاثة أقسام ، القاهرة ، مكتبة سعيد رأفت .
القسم الاول ، الاتراك العثمانيين قبل الامام يحيى ، كما تحدث عن
سياسة عبد الحميد الثاني الاسلامية ، وانتقل بعد ذلك الى الانتداب
العثماني (١٩٠٨) ، وأثره على اليمن .

٧٨- مصطفى مراد الدباغ .

جزيرة العرب ، بيروت ، منشورات دار الطليعة ، الطبعة الاولى ١٩٦٣ .
معلومات تتعلق بجغرافية وطبيعة أرض الجزيرة العربية .

٧٩- هاشم سعيد النعيمي .

تاريخ عسير في الماضي والحاضر ، غير معروف مكان الطبع وسنتها .
على شكل ثلاثة فصول ، والفصل الثالث : حالة عسير السياسية ، فتحدث
عن ضمن ذلك عن الامير عائض ، وابنه محمد بن عائض ، وعلاقاتهم بالدولة
العثمانية ، والولاية العثمانيين .

٨٠- الواسعسى .

تاريخ اليمن ، المسعى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ،

القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٣٤٦ .

القسم الاول : السيرة النبوية وأئمة اليمن ، والقسم الثانى : جغرافية

اليمن .

٨١- يوسف احمد ،

المحمل والحج ، القاهرة ، مطبعة حجازى ، ١٩٣٧ .

استعرض فى البداية العلاقات المصرية الحجازية ، ثم الاهتمام من قبل

الحكومة الحجازية بالحجاج واخيرا تكريم الكعبة فى عهد السـ

الاسلامية .

مراجع أجنبية مترجمة

٨٢- بيير زوفان ، تاريخ العلاقات الدولية ،

تاريخ العلاقات الدولية ، ترجمة د . جلال يحيى ، القاهرة ، دار

المعارف ، ط ١ / ١٩٧١ .

قسمين . فى ستة أبواب ٣٨ فصل .

الفصل السادس عشر : قناة السويس والسياسة الفرنسية نحوها ، الفصل

الثلاثون : آسيا الصغرى . وسكة حديد بغداد .

٨٣-

تاريخ القرن العشرين ، ترجمة نور الدين حاطوم ، دمشق مطبعة جامعة

دمشق / ١٩٦١ .

محاضرات عن القرن العشرين ، مقسمة الى ثلاثة أقسام :

القسم الاول ، الفصل الاول : المصالح الاساسية للدول الاوروبية

المعظمى فى بداية القرن العشرين .

٨٤- جان بيشون .

بواعث الحرب العالمية الأولى ، ترجمة محمد عزة يروؤة بيروت ، مطبعة

الكشاف . الكتاب باللغة العربية عن ترجمة تركية عن فرنسية . للكاتبة التركى

حسين جاهد ياشين الفصل الرابع : التشاؤم الفرنسى - الانكليزى فى

القرن التاسع عشر ، الفصل التاسع : التفاهم على أمور الشرق قبيل الحرب

العالمية الاولى .

٨٥- جالينا نيكتينا .

قناة السويس ملكية وطنية للشعب المصري ، ترجمة : ابراهيم عامر ،

القاهرة مطبعة الدار المصرية ١٩٥٧ .

يبين أن قناة السويس ممر بحري ذو أهمية حيوية .

٨٦- جان جاك بيرى .

جزيرة العرب : ترجمة نجدة هاجر ، وسعيد الفز ، بيروت ، المكتب

التجارى للطباعة .

خمس أقسام .

القسم الثالث : الجنوب العربى .

٨٧- جيمس موريس .

الطوك الهاشميون ، بيروت ، ترجمة ونشر المكتب العالمى للتأليف

والترجمة .

المقدمة : الاوضاع العامة فى الدولة العثمانية ، خاصة منطقة الحجاز

ثم ترجم للشريف حسين .

٨٨- جورج انطونيوس .

يقظة العرب ، ترجمة د . ناصر الدين الاسد ، د . احسان عباس ،

بيروت ، دار العلم للملايين ط ٣ .

تحدث فى الفصل الرابع عن عهد السلطان عبد الحميد ١٨٧٦ - ١٩٠٨

البلاد العربية الخاضعة للسلطان .

٨٩- حسين لبيب / ترجمته .

تاريخ الاتراك العثمانيين ، القاهرة ، مطبعة الواعظ ، ١٩١٧ .
مترجم عن الانجليزية ، الجزء الاول قسطن كل منها مستقل بفصله
وأرقامه وصفحاته ، فتحدث في الفصل الخامس عن سكة حديد الحجاز .

٩٠- شونفيد هيو ج .

قناة السويس ، ترجمة أحمد خاكي ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف
والترجمة ، ١٩٤٥ .

تحدث في الفصل الرابع عن ادارة قناة السويس وتجارة العالم - كيف
نظمت شركة قناة السويس . رسوم القناة وتكاليفها - الصيانة وتنظيم
الممر - وأثرها في تجارة العالم .

٩١- عبد الله فيلي .

تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ترجمة عمر الديراوى ،
بيروت ، منشورات المكتبة الاهلية .

احدى عشر فصلا ، بدأ من محمد بن سعود ، وانتهى بحمد العزيز
ابن عبد الرحمن .

٩٢- كارل بروكلمان .

تاريخ الشعوب الاسلامية ، ٥ أقسام ، ترجمة نبيه امين فارس ، وميصر
البعليكي ، بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة السادسة ، ١٩٧٤ .
القسم الرابع : الاسلام في القرن التاسع عشر ، وعلاقة الدولة العثمانية
بأقاليمها .

القسم الخامس : الدول الاسلامية بعد الحرب العالمية الاولى ، وعن
الاحداث في شبه جزيرة العرب .

٩٣ - محمد عمر حبشي .

اليمن الجنوبي ، قسطن ، ترجمة د . الياس فرح ، د . خليل احمد
خليل ، بيروت ، دار الطليعة ، الطبعة الاولى ، ١٩٦٨ .
المقدمة لمحة تاريخية عن اليمن الجنوبي ، وذلك منذ الاكتشافات
البحرية الكبرى ، كما تحدث عن الاستعمار البريطاني لعدن .

٩٤ - هارولد ف ، يعقوب بك ، سي ، اى .

عدن وجنوب اليمن في ملوك العرب ، جزآن ، ترجمة المضواحي ، دار
النهضة ، الطبعة الاولى ، ١٩٦٧ .
يتحدث في الجزء الاول عن الحكم العثماني في اليمن ، واستيلاء
بريطانيا على المناطق المجاورة لعدن .

المراجع الاجنبية

London,
H.L. Hoskins : British Routs to India, /Frank - ٩٥
& Company L T D 1966.

المجلات والدوريات العلمية

٩٦ - ميشال اسطفان .

مقال بعنوان (تاريخ الطوابع في المملكة العربية السعودية) ،
مجلة تاريخ العرب ، المجلد ٧٠ .

٩٧ - وجيه الخيمى .

مقال بعنوان (الخط الحديدى الحجازى ماضيه وحاضره) مجلة
الفيل الحد ٣٢^{هـ} ، صفر ١٤٠٠ هـ / يناير ١٩٨٠ السنة الثالثة
دار الفيل الثقافية الرياض .

فهرس الموضوعات

الفهرست
=====

المقدمة - اهمية الجزيرة العربية - وعلى الاخص الحجاز -

٢٠ - ٣ . للدولة العثمانية .

الفصل الاول : الوضع في غربي الجزيرة العربية قبل افتتاح

٢١ قناة السويس .

٣٥ - ٢٢ أ (الاشراف في الحجاز .

٤٧ - ٣٦ ب (الحالة في عسير واليمن .

٦٦ - ٤٨ ج (البريطانيون في عدن .

٦٧ الفصل الثاني : قناة السويس

٨٤ - ٦٨ أ (عودة طريقه التجارة العالمية للبحر الاحمر .

ب (اهمية القناة للدولة العثمانية فمن حيث سياستها

١٠٢ - ٨٥ العربية .

الفصل الثالث : جهود الدولة العثمانية لتأمين الحجاز بعد

١٠٣ افتتاح القناة .

١١٤ - ١٠٤ أ (اخمد القلاقل في عسير ١٢٨٩ هـ / ١٨٧٢ م

١٢٧ - ١١٥ ب (الفتح العثماني لليمن ١٢٨٩ هـ / ١٨٧٢ م

١٥٧ - ١٢٨ ج (محاولة استعادة نفوذ الدولة العثمانية في عدن

الفصل الرابع: عوائق استكمال نفوذ الدولة العثمانية على الساحل
الغربي للجزيرة العربية .

١٨٧-١٥٩ أ (احتلال انجلترا مصر وسيطرتها على القناة .

٢٠١-١٨٨ ب (النفوذ البريطاني في عدن ١٨٨

٢١٣-٢٠٣ ج (ثورة اليمن

٢٤٢-٢١٤ الفصل الخامس: سكة حديد الخجاز

٢٢٨-٢١٥ أ (افتتاح الخط ١٩٠٨

٢٤٢-٢٢٩ ب (اهمية الخط في ضوء العوائق السابقة

٢٧٥-٢٤٣ الخاتمة : النتائج والتحليل

٢٧٦ الملاحق ؟

ملحق رقم (١) :

٢٧٧ خارطة قناة السويس

ملحق رقم (٢) :

٢٧٨ خارطة سكة حديد الحجاز

ملحق رقم (٣)

خارطة خليج عدن وجنوب البحر الاحمر في النصف الثامن

من القرن التاسع عشر .

ملحق رقم (٤) :

النص الانجليزي مع الترجمة العربية للملحق رقم (٥) الصادر عن

المعتمد البريطاني في اسطنبول في ٢٤ يناير عام ١٨٧٣ نقلا

عن وثائق دار المحفوظات البريطانيه تحت رقم :

H.C.I. 3752X/P0983

٢٨٢-٢٨٠

صفحات

ملحق رقم (٥) بنص مذكرة الجنرال شنايدر المؤرخة ٢١ اغسطس
١٨٧٣ الموجهة الى مسترجون .
عن وثائق دار المحفوظات البريطانية تحت رقم

H.C.I. 3752X/P0983

٢٨٣

ملحق رقم (٦) :

مذكرة هنري اليوت المؤرخة في ٣٠ نوفمبر ١٨٧٣ مع ترجمتها العربية
نقلا عن وثائق دار المحفوظات البريطانية تحت رقم :

H.C.I. 3752X/P0983

٢٨٧-٢٨٦